أشرف فقيه

رسمُ العدَم

قصة ليوناردو فيبوناتشي مع الصفر والأرقام العربية

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING
مكتبة

إهداء لـ..

Maybe

هذا رسم الوجود

مكتبة | سُر مَن قرأ **رسمُ العدَم**

29 10 2022

مكتبة
t.me/t_pdf

الكاتب: **أشرف فقيه**
عنوان الكتاب: **رسمُ العدَم**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-70-0
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2020
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

أشرف فقيه

مكتبة | سُر مَن قرأ

رسمُ العدَم

رواية

قصة ليوناردو فيبوناتشي
مع الصفر والأرقام العربية

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

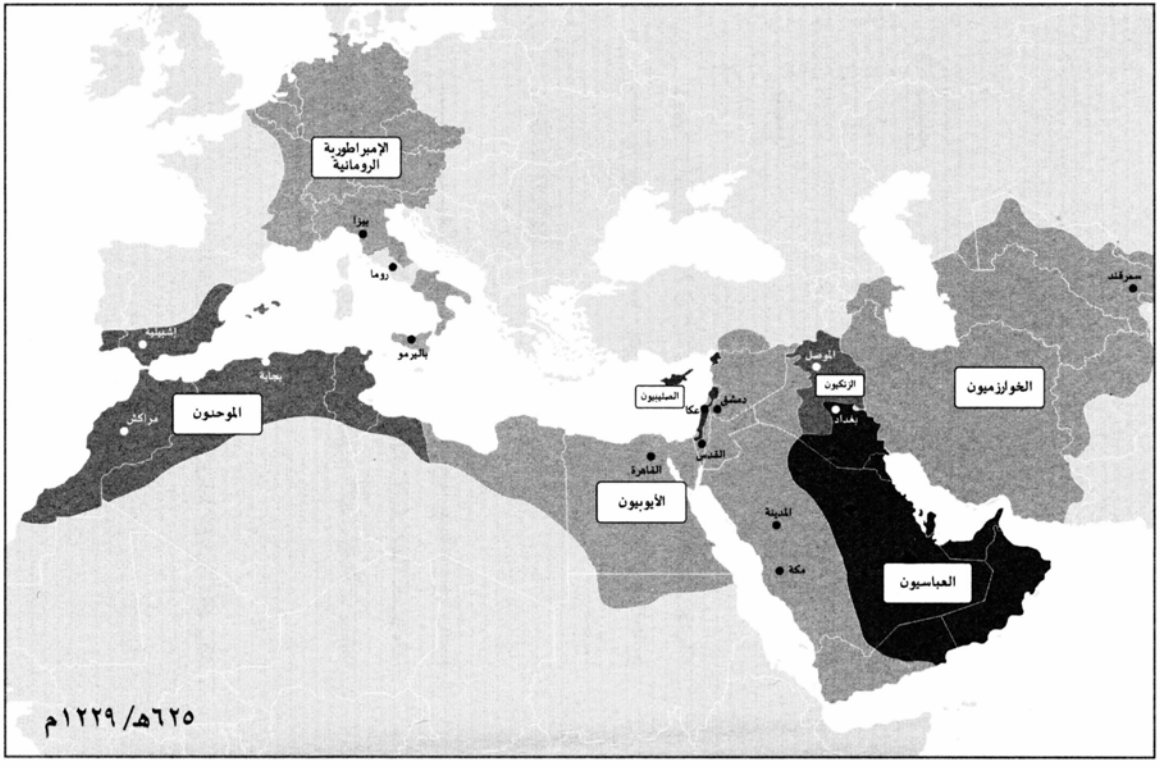
الإمبراطورية الرومانية
بيزا
روما
باليرمو
إشبيلية
بجاية
الموحدون
مراكش
الصليبيون
دمشق
مكا
القدس
القاهرة
الأيوبيون
المدينة
مكة
الموصل
الزنكيون
بغداد
الخوارزميون
سمرقند
العباسيون
٦٢٥هـ/ ١٢٢٩م

«كان اللّه، ولم يكن شيء غيره»

حديث

«الطبيعة تمقت الفراغ»

أرسطو

«الرموز الهندية التسعة هي: 9 8 7 6 5 4 3 2 1 بهذه الرموز وبالعلامة 0 التي تسميها العرب زيفِر، يسعنا أن نكتب أيّ عدد نشاء»

ليوناردو بوناتشي

أَلِــفٌ ثم ياء ثــم حج بعده ... عــو وبعد العو عين ترســم
حاء وبعد الحاء شكل ظاهر ... يبدو كالخطّاف إذا ما يُرسم
صفــران ثامنهــا وألّف بينها ... والواو تاسعها وبذلك يُختم

أبو الحسن القلصادي

«في هذا الوجود ليس إلا مُطلقان: الله والصفر»

گوتفريد لايبنتز

(١)

بيزا، توسكانيا. ٦٤٨هـ، ١٢٥٠م

مكتبة
t.me/t_pdf

ليؤكد موقفه، وضع الجندي يده على كتف الشيخ الفاني ودفعه أمامه برفق عبر البوابة.

أنعم عليه بكل صور الشفقة طوال الطريق. لكن النظرات الميتة في أعين القضاة الثلاثة جعلته يتصنع الحزم. قطّب حاجبيه وضغط على رمانة كتف الشيخ. خيل إليه أنه يتأوه. لا يمكن تمييز شيء بين الحشرجات والزفرات التي يصدرها بلا انقطاع. سيموت في أية لحظة! ومع ذلك يستدعيه الكاردينال دي مورّا في هذا الصقيع.

مبنى كاتدرائية بيزا المكسو برخام أبيض، معتم من الداخل. الشمس كابية والنيران التي تتقد في المجمرة بجوار منصة القضاة تبدو قطعة من الجنة في هذا الزمهرير. اليوم ليس بأحد. خواء مقاعد الصلاة لا يفوقه غرابة إلا المنصة التي نُصبت في الصدر حيث تتلى الترانيم عادة ويتم طقس المناولة. ابتلع الجندي ريقه وفكر أن دي مورّا ومن معه جاؤوا اليوم ممثلين للربّ في نقمته.

الشيخ يسعل ويتنحنح طوال الوقت. أنفاسه تتكدس في منخرين مسدودين ورئتين على شفير العطب. لعله في الثمانين. لكنه سمين ومتأنق كما يليق بسليل أسرة ثرية. الموكب الصغير مثير للجلبة. الشيخ يتنفس كأنه منفاخ مثقوب، والجندي يقعقع بكل ما فيه؛ خوذته وقبيعة سيفه والمهماز ان في عقبيّ حذائه.

اتخذا طريقهما إلى آخر القاعة. بدا له أن خطوات الشيخ صارت أبطأ، وأن القرقعات التي تصدرها مفاصله صارت أعلى. في منتصف المسافة توقف ليلتقط أنفاسه. اتكأ براحة يدٍ عجفاء على أحد المقاعد. خاف الجندي أن يتمادى ويجلس عليه فيأمر الكاردينال بضربه. لكنه لم يلبث أن واصل المسير.

بلغا المنصة أخيراً فانتصب الجندي محملقاً في الفراغ ويده على مقبض السيف المعلق بخاصرته، فيما بدن الشيخ يرتجف برداً ووهناً.

القساوسة الثلاثة يحدجونه من عليائهم بأعين لا ترمش. وجوههم كتماثيل الحجارة وأنوفهم معقوفة كأنها من لوازم المنصب. أما الشيخ فتمتد شفتاه من بين الجلد المجعد لتتلمظا ويتحرك لسانه في فم خاوٍ. الكاردينال دي مورّا يتكلم أخيراً. كلماته بطيئة ولصوته صدى كأنما يصدر من قاع الأبدية:

- أنت ليو...

ينخم الشيخ بغتة حتى يكاد ينشق أنفه. يستنزل البلغم ويستخرج منديل حرير مطرزاً بأحرف اسمه. لا يملك الجندي إلا أن يستلب لمحة إلى القماشة الفاخرة. يجمع الشيخ سوائل وجهه

ويتفل في المنديل ثم يكومه في جيب سرواله. يلملم أطراف معطف الفرو حول جسده فيبدو كجرو دبٍ أصلع ملتحٍ.

يضيق دي مورّا عينيه في غلّ. يواصل بذات البطء وإن برز عِرق في وسط جبهته:

- أنت ليوناردو گويلمو بوناتشي، الشهير ببيگولو؟

- بالطبع!

يخبط القاضي الجالس على اليمين بيده على سطح المنضدة. يفزّ العسكري في وقفته فيما يتردد الدويّ على السقف العالي والجدران الرخامية. عينا الشيخ الناعستان مثبتتان بمحدثه الذي يصيح:

- اسمع يا بوناتشي. إن وضعك صعب بما يكفي ولن تفيدك قلّة الاحترام هذه. لدينا من الاتهامات ما يكفي لإلقائك في السجن بقية عمرك فالتزم خيراً لك.

- بقية عمري؟

قالها الشيخ محدثاً نفسه. كاد الجندي يبتسم.

- لم أقصد التقليل من قيمة أحد. معالي الكاردينال يعرفني منذ كان شاباً يافعاً وبقية الموقرين كذلك. ليتكم تتفضلون وتحددون سبب المجيء برجل مسن مثلي في هذا اليوم العصيب. تقولون اتهامات؟

يقترب الكاردينال بجذعه أكثر. يريح ذقنه على أصابعه المشبكة ويهسّ:

- ما علاقتك بالهالك المحروم فريدريك هوهنشتاوفن؟

- جلالة الإمبراطور؟

يجز دي مورّا على أسنانه:

- كان الإمبراطور. لكنه هلك. هو الآن يعاين سطوة الرب الذي طالما أنكره.

تدور عينا الشيخ وكأنه لا يدري ما يقول. ينطق أخيراً:

- كان حاكم الإمبراطورية المقدسة. ملك صقلية وأورشليم. وأنا كنت أحد رعاياه.

- لكن ما بينكما أكثر من ذلك. لقد استضافك في بلاطه. وكانت بينكم مراسلات. صحيح؟

- كان ذلك منذ سنوات أعجز عن عدها.

- وأهديته أحد كتبك.

- على ما أذكر.

- اسمه (كتاب الجذور)؛ Liber Quadratorum. أهديته له في مقدمتك.

يمسك القاضي الجالس على اليسار بورقة ويدنيها من وجهه ليقرأ بصوت أخنف:

- «بعدما جيء بي إلى بلاطكم في بيزا بواسطة المعلم دومينيك الإسباني، لأمثل عند قدميّ جلالتكم الساميتين، التقيت

المعلم يوحنا دي باليرمو، والذي ناقشني في مسألة حسابية ذات أبعاد هندسية خطرت له. ألا وهي إيجاد قيمة عدد مربع لو أضيف له العدد 5، أو طرح منه العدد 5، يكون الناتج قيمة مربعة».

يود العسكري لو يهرش رأسه مقاوماً الغباوة التي تستولي على ذهنه. يكاد يدير عنقه ناحية الشيخ الذي أطبق جفنيه ورفع أنفه عالياً وكأنه يتشمم عبقاً قديماً. شارباه تمددا كأنهما قرنا استشعار.

يأخذ دي مورّا نفساً عميقاً ليخرجه ببطء. يتقارب حاجباه حتى يتصلا وينقر بسبابته على سطح المنضدة. يلقي باتهامه الأول:

- ما هذا الكلام يا ليوناردو بيگولو؟ يبدو لي سحراً أسود، أو من هرطقات المحمديين الكفرة الذين أحبهم ملكك الهالك!

لا يرد الشيخ. يتلفت حوله كمن يبحث عن مفقود. يدور حول نفسه ثم يتهادى في مشيته ناحية صف مقاعد الصلاة. يجلس على أطرفها ويتنهد:

- تعبت.

يبرز عرق ثانٍ في جبهة دي مورّا. ويهيأ للجندي أنه سينزل من منصته ليسحب الشيخ من قفاه. لكن الكاردينال يومئ له بعينين نافرتين فيهرع إلى الشيخ في جلسته. يجده مرخياً رأسه على صدره. يكاد يمدّ يده ليهزّه لكن ليوناردو بوناتشي يبادره بالشخير غاطّاً في غفوة خاطفة.

*

(٢)

بجاية، المغرب الأوسط. ٥٨١هـ، ١١٨٥م

بيوت المدينة مبعثرة ككِسر الخبز بين ذراعي الجبال التي تؤمّن ظهرها. شمالاً وشرقاً يمتد البحر إلى الساحل الأوروبي. يحدّ الفتى ليوناردو بوناتشي بصره باحثاً عن خيال البرّ المقابل بلا طائل. جال بنظره في المباني والطرقات المكتظة بالبشر والبهائم، وفي الميناء حيث اصطفت السفن لترسو. بعضها قادم من إيطاليا بلا شك، من بيزا ومنافساتها؛ جِنوة والبندقية. بعضها قادم من الأندلس، وبعضها من بلاد لا يسعه إلا أن يعطيها أسماء مبهمة من مخيلته. حدثته نفسه بأن يتسلل إلى مركب فتأخذه لوجهتها السريّة. حمّى الترحال ما تزال تستعر في روحه لم يطفئها إبحاره الأول قبل أسابيع. قلبه تتنازعه الرغبة في السفر والشوق لاستجلاء خبايا هذه البلدة التي تتكشف أمامه بخفر.

هب الهواء من جهة البحر لاذعاً محملاً بالأصوات فخفق معطفه كالشراع ومال به. وثب مرافقه ليمسك بذراعه ويسحبه خطوة إلى الخلف:

- الحذر يا سيدي!

أرخى ليوناردو عنقه ناظراً في الهوة عند قدميه. الصخرة التي يقفان عليها مشطوفة كأنما قصها حدّ سكين. الجبال حول بجاية حمراء ممشوقة تتخللها شلالات. عند سفوحها غابات خضراء يلمح من موقفه الماعز البري يرعي بين أشجارها. جلود الماعز والشمع الفاخر أعزّ ما تبيعه أسواق بجاية ضمن بضائع أخرى تردها من كل أنحاء الدنيا.

أحس بضغط الأصابع على معصمه يشتد. التفت إلى تابعه بابتسامة معتذرة وكوّن الجملة العربية في رأسه ببطء قبل أن يلفظها:

- تخاف عليّ يا عطاء؟

- أخاف من أبيك.

مكتبة
t.me/t_pdf

يضحك الفتى فيتكوّر خدّاه وتصير عيناه هلالين مقلوبين. يلقي نظرة أخرى على المدينة بمرفئها الفسيح قبل أن يتراجع خطوتين. يرخي عطاء أصابعه السمراء فيحس ليوناردو بحرية معصمه ويسري الإحساس في كامل جسده. يدير ظهره للجرف والبحر وينطلق راكضاً. يهتف عطاء بسبة قبل أن يسرع خلفه.

الدرب إلى البلدة وعر منحدر. يقفز الاثنان كالقرود فوق جلاميد الصخر وجذوع الشجر الميتة. الأرض المائلة تكسبهما سرعة فيندفعان في الركض أكثر ولا يكادان يلحقان بساقيهما. لا يلبث عطاء أن يسبق سيده. تأخذه البهجة هو الآخر وتغلبه فورة جسد ابن السابعة عشرة. ليوناردو أصغر منه بسنتين وأكثر

منه تنعماً. يقهقه الفتى البيزاوي ويضاعف من ركضه وقد قبل التحدي. يمرق الاثنان كسهمين بجوار حمار محمل بالحطب. يفزع الحيوان ويتشبث صاحبه برسنه شاتماً. المدينة غزاها الفسّاق وعيال الكفرة وما سلم من شرّهم مسلم ولا دابة.

توقفا عند السبيل في ساحة البلدة. المياه مثلجة آتية من الجبال الأعلى والأبعد. شربا وتبردا. أخرج ليوناردو من كيسه قرشاً ليشتري خوخاً وزبيباً وقطعتي لحم مقدد. تلفت عطاء حوله واقترب بجسده من سيده ابن سيده ليحميه. تمت المقايضة بأمان. واصلا السير فيما كتل شعرهما تهتز مع كل مضغة لحم ينتزعانها بأسنانهما.

توغلا في السوق فغشيهما ظل السواتر وغبار الطريق وصياح الباعة. حواسهما تنازعتها روائح الأشياء وألوانها. تسلل إلى رأسيهما النتن من حارة السمّاكين وأحواض الدباغين المزوية خلف الزرائب. مرّا بحوانيت القصّابين والعطّارين والصاغة. تسللا بحذر محاذاة الجند المصامدة في زقاق الحدّادين، وبحذر أكبر تجنبا كل امرأة صادفاها متلفعة بالأقمشة أو متخففة منها. تلكأ الاثنان عند باعة العسل والإقط، وتوقفا في كُتبية الوراقين. أشرق محيا ليوناردو وأنفه تشبع بعطر الورق والحبر. نسّاخٌ شاب رفع بصره إلى الرومي وصاحبه البربري اللذان ألقيا بظلهما عليه يتمليّان فيما بين يديه. لكن عصا سيده وكزته في ظهره فعاد إلى نسخه. ذات العصا اهتزت في الهواء محذرة الفتيين من مغبة التسكع فانصرفا.

النداء إلى الصلاة ارتفع من مئذنة الجامع فرفع ليوناردو وجهه إلى

السماء مبتهجاً. تدافع أهل السوق من حوله إلى المياضئ والمصليات فانجرف مع سيل الناس. أصابع عطاء التفت حول معصمه حتى آلمته هذه المرة:

- ليس هذا دربنا.

قاربا الميناء فتبدلت الوجوه واللغات. تلقتهما الأعين الملونة والبشرات الصهب للتجار الصقالبة والإيطاليين والإغريق. صار ليوناردو أجرأ. تبادل التحايا باللاتينية والفرنكية ولمس بيده كتل الفرو وجرار الدبس وأقراص الجبن الآتية عبر البحر من الأصقاع الشمالية. لو كانت يد عطاء هي التي امتدت لوجدت من يقطعها. لكن ليوناردو بن گويلمو معروف هنا. ومن لا يعرفه بالاسم يميّز قسماته المهذبة والزي البيزاوي حول جسده الدقيق وعمامة النبالة فوق رأسه.

قرب المرفأ تحولت البسطات والحوانيت إلى مبان حجرية. أبوابها خشبية منقوشة، مصاريعها من حديد ولها أقفال عريضة تشي بأهمية ما فيها ومن فيها. عند جدرانها تستظلّ ثلل من ملثمي الصحراء، مسلحين بحراب طويلة مزينة بالريش وسيوف معقوفة باردة. لا تظهر منهم إلا أعينهم التي ترقب بصبر الصبية والبطّالين ممن ينتظرون لحظة سهو ليثقبوا كيس حنطة أو يختلسوا ثمرة طارفة. الطريق هنا مرصوفة بحجارة عريضة تخبط عليها النعال وحوافر البغال بمن عليها من رجال معممين؛ عرب وبربر وفرنجة وترك، كلهم تشي هيئاتهم بالتمكّن والثراء.

عند مدخل مبنى من دورين وقف عطاء ليصلح هندامه. نفض شعره الأشعث وجلبابه وأحكم ربط النطاق حول وسطه. تجاهل الحارس المغطى بالحديد وبالظل الأحمر الذي يسقطه علم بيزا المرفرف فوقهما. التفت ليسمح للفتى بالدخول أولاً فوقع قلبه بين رجليه. لا أثر لليوناردو! دار حول نفسه في ذعر وهتف بالحارس:

- أينه؟

لا يقابله إلا الصمت ووجه جامد.

نضح العرق من جبهته وظهره. أراد أن يصرخ باسمه لكنه خشي أن يصل صوته إلى من بالداخل فتكون نهايته عاجلاً غير آجل. رنّت في أذنه ضحكة امرأة وصفير بحّارة طال بهم الأمد.

هرول كالتائه لدقيقة بدت دهراً قبل أن يشهق بردّة الروح لمرأى الفتى باركاً على عقبيه قبالة طاولة. عليها كان إطار خشب فيه أعواد ممدودة بالعرض تتخللها خرزات حمراء وسوداء وبيضاء. على الجانب الآخر من الطاولة تربّع صينيٌّ قصير شعره ملموم في ضفيرة طويلة وشواربه طويلة وعيناه المسحوبتان يغطيهما شعر حاجبيه الطويل. الصيني يلعب بالخرزات ذات اليمين وذات الشمال بسرعة وخفة، وعينا ليوناردو معلقتان بها. سكن الصيني أخيراً ورفع وجهه ليقابل الفتى الذي واصل التأمل قبل أن يرفع ثلاثة أصابع مرتين ثم يفرد اصبعين. تهلل وجه الصيني وأطلق ضحكة عالية قابلها ليوناردو بابتسامة جذل.

- سيدي!

ودّ عطاء لو يضربه على مؤخرة رأسه. لكن فرحة الفتى أنسته فَرَقه وغيظه.

- تعال يا عطاء وانظر. هذا كالذي عند خالي في بيزا. نجمع عليه الكسب ونطرح بلا قلم ولا قرطاس.

واصل الصيني هز رأسه. سأله ليوناردو عن أعجوبته بكل لغة يعرفها ولم يتلق إلا هزّ الرأس.

- تعرف ما اسمها في كلامه يا عطاء؟

أخذ البربري نفساً عميقاً وذكر الله في سرّه. سيقصر هذا الرومي الأبله عمره وليت أباه ما استقدمه ولا وكّله برفقته وحفظه. ومن يحفظه هو من فلتات الولد الغرّ إلا الله الحي القيوم؟

- نرجع إلى ديوان الوالد أبرك يا سيدي.

لكن الخرزات عاودت الطيران بين أصابع الصيني على جانبي الإطار. حتى إذا ثبتت تقلصت ملامح ليوناردو لبرهة قبل أن يسرى عنه. رفع قبضته مضمومة أمام وجهه:

- لا قيمة. لا مكسب ولا خسارة!

صفّق الصيني حتى التفت له كل من بالسوق. التفت ليوناردو إلى عطاء:

- كيف تقولون «لا قيمة» بلسانكم؟

- نعطيها قيمة. نسميها صِفراً.

***

يلجان عبر باب الديوان فيبتلعهما عالمٌ آخر لا يمت لخارجه بصلة. طبقات ستائر ثقيلة من الجوخ حجبت الشمس والضوضاء. العتمة بددتها شموع كثيرة موزعة على الأسطح والجدران، دخانها اختلط بأبخرة اللبان والصمغ التي تحترق لتبدد العطانة، ممزوجة برائحة نبيذ توسكاني لا يخطئها الأنف الخبير.

المبنى، يسميه الإيطاليون «الفونداكو»، مملوك لحكومة بيزا باتفاق مع سلطة الخليفة الموحديّ في مراكش. واحد من عدة مقار تتوزع في بجاية وسواها من موانئ المغرب، يديرها موظفون يشتغلون بالسفارة وتحصيل الضرائب وتسيير التجارة بلا منغصات، مع الحرص على تقويض نفوذ الإمارات الإيطالية المنافسة.

الطابق الأرضي من فونداكو بجاية عبارة عن مخازن رُصّت فيها براميل النبيذ والزيت وأواني الزجاج وأكداس الصوف، وخيرات سواها وردت من توسكانيا وكورسيكا وصقلية. الدور العلوي شغلته حجرات توزّع فيها الكتَبة المنكبّون على دفاترهم. أطراف أناملهم ملوثة بالحبر وظهورهم محنية على دفاتر الورق المجلوب من قرطبة وفاس. يدونون الصادر والوارد ويحسبون الربح والقليل من الخسارة. لا يقطع تركيز أحدهم إلا تراقص لهب شمعته أو غمس طرف قصبته في فوهة دواته.

المبنى على هيئة مربع مفرغ، في وسطه فناء زرعت به نخلتان وضعت عند جذعيهما طاولة طويلة عليها فتات خبز وأقداح من وجبة سابقة، يسارع عطاء إلى تنظيفها. الفتحة الواسعة فوق النخلتين

غُطيت هي الأخرى بشراع عريض تسللت خيوط الشمس وأزواج السنونو من بين فراغاته.

الضلع الشرقي المواجه للبحر شغله جناح سيد الفونداكو؛ المعلم گويلمو بوناتشي، القيّم على ثروات بيزا في الساحل الأفريقي. منضدته العريضة واجهت الشباك المفتوح على مصراعيه. لا أحد يشرّع نافذته إلا المعلم گويلمو.

يقف ليوناردو عند مدخل الحجرة ويسعل معلناً وصوله. لكن والده لا يرد ولا يلتفت. هو الآخر مشغول بالكتابة. يتقدم ليوناردو ليُجلس نفسه على كرسي خاوٍ. عيناه تدوران بحثاً عن أي جديد. على المنضدة ذات الدفاتر وصرر أموال بكل العملات. ثمة نسخة من الكتاب المقدس وصليب أبنوس مطعم بالعاج. على الجدار خلف ظهره عُلق علم بيزا الأحمر بصليب أبيض كبير في وسطه. يتأمل ليوناردو في جانب وجه والده بمزيج إعجاب ومهابة وغيظ. المعلم گويلمو يرتدي زيّه التوسكاني كاملاً مع قلنسوة مطرزة موشاة، ويستعين على الحرّ بشراب مثلّج وبنسمات البحر التي تلعب بالستائر. عيناه تنتقلان من سطور دفاتره إلى سفنه الراسية والبحارة الذين يفرغونها في عربات. الحرس الذين ينفق عليهم يحيطون بالكل. وهو يراقب الكل كالصقر من علياء وكالته. السفن ستعود إلى بيزا محمّلة بالحرير والبهارات والجلود والسكاكر، إنما بعدما يوثق واردها في دفاتره ويقيده في سجل مخزنه، ويخصم أجرة المراكب ونفقة الرجال الذين أبحروا بها وأمّنوها ومكوس

الخليفة من ذلك كله. سيستغرق الحساب ليل كتَبته وسحابة غدهم كذلك. مهمة مضنية ليس لها آخر. ولا ينبغي أن يكون لها آخر. المال لا بد أن يجري بلا انقطاع. لذا هو هنا بعيداً عن أرضه وأهله؛ لينمي تجارة وطنه ويصون شرف عائلته. الغرض الثاني أغلى عنده من الأول.

التفت إلى ابنه أخيراً فأزهر وجه الفتى بابتسامة. يعدّه أثمن مدخراته. سيصير كاتب عدل مثله وأفضل منه. لأجل ذلك استلحقه من بيزا. أنفق النفيس على تعليمه هناك، درّسه اللاتينية واليونانية والأشعار القديمة وعلمه العدّ والحساب عند أمهر المرابين. لكن اللعب بالأرقام مهارة يتقنها العرب أكثر من سواهم. يعرف أن بين كتبته من يجيد فك أسرار الأعداد بسرعة لا يستوعبها هو ولا أبناء جلدته الذين يعدونهم سحرة ومشعوذين. يرسم العرب طلاسم ورموزاً لا قبل له بحلّها. لا يفوقهم في ضروب الحساب إلا الصينيون، لكن أولئك لا سبيل لفهمهم ولا جدوى من تجارتهم لولا الحرير والخزف. في النهاية لا تُقيد الحسابات في دفاتره إلا صحيحة دقيقة كأنما نزلت من السماء. لا يهم بأية طريقة ووفق أي مذهب. سيتعلم ليوناردو ذلك كله وسيأخذ مكانه هذا يوماً ما. أما اليوم فسيعهد به إلى أحد كتبته العرب الماهرين ليكون تلميذه ومريده حتى يتقن صنعته.

زفر وقد ضايقه أن الفتى ضيّع أيامه الأولى في بجاية متنزهاً رفقة خادمه. عزى نفسه بأن اختلاطه بالناس سيعينه على إجادة لسانهم.

يجب أن يتقن العربية ليكون له شأن هنا وإن عاد إلى الديار. ومن يدري؟ لعله ينضوي في خدمة أمير أندلسي أو كونت جرماني يأخذه إلى الأرض المقدسة فتكون طاقة سعده. سيقرر له رحلته القادمة بعد سنتين أو ثلاث، وسيستمر اسم بوناتشي حياً نافذاً.

ملأ صدره بهواء البحر ورشف من الشراب المثلج. عبر النافذة لمح الجرم الضخم للريّس خير الدين يذرع سطح المركب موبخاً بحارته قبل أن يهبط حاثاً الخطى إليه. سيستقبله الخادم وسيجلسه على المائدة عند النخلتين. عاين أكياس ذهبه وعرف أن سيخسر بعضها بعد قليل. النفقات تزيد مع زيادة المخاطر. القراصنة النورمان والبربر يتربصون بكل سفينة وأساطيل بني الغانيّة تُغير من ميورقة. بضاعته وصلت سليمة هذه المرة لكن الحظ يتقلب مع تقلب الموج، وخير الدين سيطالبه بالمزيد بلا شك وقد أوصل سفنه بحمولاتها غير منقوصة. سيطاوعه قدر المستطاع وإلا تغيّر عليه ونهب الردّ التالي.

عدّل قلنسوته وابتلع مشروبه. وقف فتبعه الفتى كظله. من الأسفل جاءته أصوات طرق الباب وهدير الريّس خير الدين. ستكون هذه فرصة مواتية ليطلع ليوناردو على أساليب التعامل مع البحارة السراسنة وطرق مقايضتهم. فكّر أن البحارة أياً كانوا، محمديين أو يهوداً أو بنادقة أو بيزاويين، كلهم في الخبث سواء. لا يرون فيه إلا مستودع كنوز ويود أحدهم لو يختلي به في حجرته العلوية ليحزّ عنقه ويستولي على ماله. تحسس الخنجر المخبوء في حزامه ولف معطفه حول وسطه. ابنه لم يعد صغيراً لكن الوقت لم

يحن بعد ليشهد الدم يراق بيد أبيه أو من عروقه. صلّب على رأسه وكتفيه داعياً بالحفظ والعناية قبل أن يهش ويبش في حضرة ضيفه.

***

رفع خير الدين كأسه متأملاً انعكاس النور على البلور والسائل القاني. التفت بكامل جسده حتى أطّ المقعد من تحته ليتفحص مكنونات المخزن. يعدّ نفسه شريكاً في هذه الثروة. يعرف گويلمو ذلك ويرفضه. لكنه يحتفظ بأفكاره لنفسه دون أن تتغير ابتسامته أو ينكسر صمته.

الربّان الطنجي المعتق اعتدل في جلسته وهرش شعر صدره ولحيته. جسده يفوح بالوخم عقب أيام في البحر. ملابسه يبقّعها العرق والدهن وعمامته مكومة في حجره. رأسه الأصلع يلمع كقذيفة مدفع وفي قفاه جرح حجامة طازج. حرّك عينيه بين گويلمو وابنه قبل أن يثبتها على الفتى ويروزه من رأسه إلى قدميه. ليوناردو أغضى بأدب إلى جوار والده. قاوم گويلمو ضيقه مصراً على مواصلة لعبة السكوت. جرع خير الدين ما بقي من شرابه وضرب بقعر الكأس على سطح الطاولة. تكلم أخيراً:

- الخير عندك وفير يا شيخ التجار.

تتسع ابتسامة گويلمو ويرد المجاملة من فوره:

- الشكر للرب يا شيخ البحر. نحن وأنت نمرّ بأيام عصيبة ويهمنا أن ينشط البيع ولا تنقطع الأرزاق.

لا تمر المعاني المخبوءة على الريّس:

- تقول ذلك وأنت منعّم في دارك، أما أنا ورجالي فنعاين الأهوال ونمرّ بين يديّ الموت في كل وقت.

التاجر البيزاوي المحترف لا يفاجئه أي رد. وإن حصل فإن وجهه لا يتغير مهما سمع. رأسماله في سرعة خاطره، والمقايضة بدأت منذ حلّ هذا الثور في وكالته:

- لا أراك إلا تبالغ. والذي يسمعك يحسب أن بجاية حصن حصين. ألم تشهد بعينيك تسلط بني الغانيّة ورجالهم من زناتة وبني هلال علينا من حيث لا نحتسب؟ ألم يدخلوا بخيلهم المسجد وقت الجمعة ومن لم يبايع أميرهم قتلوه في موضع صلاته؟ ألم يقفلوا البحر بمراكبهم ويحصروا بجاية بمن فيها حتى فكّنا الرب من شرهم وقيض الأمير المنصور فأجلاهم؟ أثناء الوقيعة لم يأمن المرء على عمره ورزقه. كان ذلك من شهور معدودات إن كنت لا تذكر فأي نعيم تتحدث عنه؟ نحن وأنت في الهمّ سواء يا خير الدين.

ليوناردو يعصر أصابعه وقد زاد إطراقه. يستشعر التوتر من حوله لكنه يصيخ السمع ليفهم ما يسعه من الكلام. فصاحة أبيه بلسان القوم تبهره وتعجزه. أما خير الدين فينتفخ صدره:

- لا ينقصك إلا منبر لتخطب فينا على كفرك. والمكوس دفعتها لعامل ابن الغانيّة فأمّنك وقومك والآن تدفعها

مضاعفة لعامل أمير المؤمنين ولست منهم، وها أنت أمعنت في الأمن حتى استقدمت جروك من ديارك.

يقطب ليوناردو محملقاً في الذراع المفتولة التي تشير إليه. والده يتغاضى عن الإهانات ويرفع كفيه ليهدئ محدثه:

- وأنت أنزلت راية ابن إسحق عن صاريك ورفعت راية يعقوب بن يوسف ولا ملامة عليك. ولعلك أبصرت الملثمين من فلول ابن إسحق مشردين في الدروب وقد انقطعت بهم السبل وجاعوا بعدما انكسروا وحاق بهم سخط الأمير يعقوب. ولا تلبث مراكبه أن تفتح البحر وتقطع شر بني الغانيّة من أصله فاحمد الله على النعمة.

- أريد الضعف.

يصمت گويلمو بوناتشي وقد أخذته المفاجأة أخيراً. توقع أن يبالغ الربّان في الجشع لكن الرجل جنّ لا محالة. يتمالك نفسه فيما الوجه الداكن المشعر يدنو منه:

- بنو الغانيّة في جزر الأندلس مراكبهم مصونة وقد تمكنوا من قفصة. وابن إسحق فرّ إلى حمى الأعراب في الصحراء ولا ندري متي يكرّ بهم. الخطر قائم والعمر واحد وأنت تكنز ثمرة تعبي وجهدي.

- ومن أين أعطيك وأنا ما بعت والخلق على خوفهم وإمساكهم؟ والأرزاق كما ترى مكنوزة حولك لا تجد إلى السوق سبيلاً.

انفجر خير الدين ضاحكاً. تأمل ليوناردو مرتاعاً البطن المترجرج وصفيّ الأسنان المشهرة. حوّل بصره مشفقاً إلى والده الذي أحكم خير الدين حصاره:

- تلعب بي يا ملعون وأنا أعرَف بخبثك وتدبيرك. تمسك بالأرزاق حتى تشحّ ثم تبيع بالغالي. وقومك من الفرنجة والروم يتخففون هنا من متاعهم وبضاعتهم ليلحقوا بملوكهم في غزو الشام ومصر فتشتري منهم بالرخيص وتكسب في الدينار قنطاراً. ويحك! لو أني مكانك لاغتنيت فوق غنى قارون ولملكت الأرض لكن سبحان من سلّطكم علينا وسخّرنا لكم.

- أتركها لك إذن.

ينتصب ليوناردو في جلسته مصعوقاً غير متأكد مما سمع. ومثله ينسى خير الدين فاهُ مفتوحاً غير مستوعب لما قاله الكاتب البيزاوي الذي أكّد:

- أترك تجارتي وأعود إلى موطني ولا أنيب أحداً مكاني. أو أنقل الفونداكو إلى سبتة حتى إذا سألني عامل الخليفة عن انقطاع العطاء وسألني كبراء قومي خبّرتهم بما نالني منك. ويحكم بيننا أمير المؤمنين. أو لم تقل إنك تروم منازعته في الملك؟

تحمر عينا خير الدين. يعلق ليوناردو بصره بقبضته التي تكورت وينتظر لحظة انقضاضها على أبيه. أما گويلمو فيحدّ نظره إليه وقد

عادت تعابيره مصمتة. ولما لم يحر الطنجي جواباً واصل ليهدئ روعه وينهي الصفقة:

- أعطيك فوق ما كنت أعطيك. عن الدينار ربع ليبرة وعن الدرهم عُشر بيزاوية زيادة. هذا عين العدل وعوض عمّا نالك.

يرجع خير الدين بظهره على مقعده. أنفاسه الحارة تتباطأ وحمرة حدقتيه تخف. يعرف أنه خسر باستقواء الرومي اللعين بالخليفة وقد مكّن لتجارهم في أرضه وبينه وبين ملوكهم المواثيق. والبيزاوي يسعه أن يتخلى عنه ويستجلب مراكب ورجال من بلاده لا يرده عن ذلك إلا توفير النفقة. يتخيل نفسه مصلوباً في السوق إلى جوار جيفة عبد الله الصنهاجي عامل ابن إسحق فيؤثر السلامة. يستخرج من جيبه ورقة ويقرأ منها:

- لا أفهم ما تقول ولا أية حيلة تسوق عليّ. لكنك مدين لي بسبعة دنانير ذهب وواحد وعشرين درهماً أندلسياً. ما زيادتي من هذا على قولك؟

- يحسبها لك الكتبة في ديواني ويوفونك نصيبك غير منقوص.

- لك ليبرة وليبرة إلا ربع. وعن الدراهم بيزاويتان وعُشر بيزاوية.

حدج الاثنان ليوناردو الذي نطق أخيراً. تنقل بوجهه بين أبيه وخير الدين. لا يدري أصاب أم أخطأ حين فتح فمه بالجواب الدقيق.

ينصرف خير الدين فيغلق گويلمو الباب خلفه بالترباس. يرفع رأسه منادياً أحد تابعيه في الحجرات العلوية. تخرج الكلمات الإيطالية من بين شفتيه سريعة قلقة كرشق النبل:

- جِد لنا من يوظف المزيد من الحرس. كلفوا العاطلين من الزناتية إلى حين ومثلهم من المصامدة واحداً لواحد فلا يتمكّن علينا فريق منهم. وابعثوا إلى بيزا ليرسلوا لنا بالرجال الموثوقين على مركب محروسة للغاية ليستلموا ما عندنا من أموال فتكون في مأمن لديهم.

ثم التفت إلى ابنه الذي حبس أنفاسه منتظراً رد أبيه على تدخله في الحوار بين الكبار:

- وعيّن لي عربياً من عندك ليلازمه ليوناردو ويتعلم منه أصول الحساب على طريقتهم.

*

مكتبة
t.me/t_pdf

(٣)

إشبيلية، الأندلس. ٥٩١هـ، ١١٩٥م

لا يكاد ليوناردو يستقر في جلسته على الوسائد الوثيرة. روحه متوثبة وحواسه متحفزة. يتملى في أبهة الدار؛ في الزليج على الأرضية والحيطان، والمقرنصات المشغولة في السقف، وفي الجواري اللاتي يقدمن المشاريب والأطايب. أين هذا من بجاية ومن بيزا؟ إحساسه بتواضع هيئته وغربته ثقيل يستولي على وعيه بالرغم من حرارة الترحاب. لكن الذي جاء به أهم. عليه أن يتجاوز ذلك كله ويجعلهم يرون الكنز المخبوء بين أضلعه وفي داخل جمجمته.

يغمض عينيه ليبطئ نبض قلبه ثم يفتحهما ليقابل الوجوه الرانية نحوه. يخاطب أبا بكر الحصّار رافعاً صوته ليسمعه كل من بالمجلس الفسيح:

- لو قلت لك أن عنكبوتاً من جند الله تسري على حائط أملس. تصعد في كل يوم قدراً معلوماً ثابتاً، وترجع القهقري قدراً معلوماً ثابتاً غيره. فكم يوماً ينقضي حتى تبلغ العنكبوت نهاية الحائط؟

يعتدل الحصّار في جلسته ويرجع عمامته إلى الخلف:

- كم علو الحائط؟

يرسم ليوناردو ابتسامة متبسطة على شفتيه. يعلم أنه محاط بجهابذة ما فارق بجاية إلى الأندلس إلا ليلقاهم. عرف الحصّار في بجاية وجالسه وحضر دروسه. ولما استقر المقام بالرجل في إشبيلية كاتبه ووعد بموافاته. وها هو اليوم جمع له أقرانه من كبار المشتغلين بالعدديات والحسابيات. تجاهل نظرات أبي إسحق البطروجي وابن المنعم العبدري التي انحطت عليه وكأنه حصان ناطق. لا يرى القوم كل يوم رومياً يجيد ما يجيدون ويفقه ما يفقهون. أخذته العزة بالنفس فانساق:

- أرى أنك أدركت مبتدأ العلم في هذه المسألة يا أبا بكر. وكذلك المجهولات لا تنجلي حتى تُعرّف بأصولها أو تُعطى صوراً معلومة توافي معانيها.

- هذا كلام المتمنطقين والفلاسفة. وكأني بك تردد كلام ابن رشد في تحقيق القياس باستنباط المعلوم من المجهول.

أطرق ليوناردو مدركاً الفخ الذي ينصبه له العبدري. لا يعرف رأيهم في ابن رشد وقد شهد المشاحنة والتراشق بالنعال على كلامه في حِلق بجاية. أرسل استغاثة صامتة إلى صاحبه عطاء لكن الرجل مشغول بالبرد الذي استولى على عظامه. قرر أن يراوغ لاعباً على حبليّ الاحتمال:

- ما دريت بذلك ولا لي واسع إحاطة بمصنفات المتكلمين.

لكني أحسب أن العلم كله من مشكاة واحدة، وكل منّا يأخذ منها بقبس فإما يستنير أو يحترق.

- وهذا من كلام السهروردي المتصوّف الذي قتله صلاح الدين.

تلهّى بقدح مغلي النارنج بين كفيه حتى واصل محدثه:

- السهروردي تكلم في نور الله وجوهر الوجود. وأنت علمك في المجموع والمقسوم والموازبة بالمكسب عن أفهام المتحصلين وجمّاعي المكوس.

- هذا والله هو العلم النافع يا بطروجي.

يضحك الجمع ويتنفس ليوناردو مرتاحاً وقد آنس في مدارك القوم فسحة. ليس له شأن في لاهوت المحمديين ولا لاهوت الكنيسة. لكن آخر ما يريده أن يقضي أيامه الأندلسية في جوف زنزانة متهماً بالزندقة على الكفر.

- نعود إلى عنكبوتك وحائطك. هات حل المسألة.

يستقيم ظهر ليوناردو أكثر ويستجمع أفكاره:

- لو افترضنا، كما اتفقنا يا أبا بكر، أن الحائط بعلو ثلاثين ذراعاً. وأن العنكبوت تصعد في اليوم قدر ثلاثة أذرع، وتهوي في اليوم قدر ذراعين.

- هذه سهلة. ثلاثة مطروح منها اثنان تكون المحصلة ذراعاً واحدة في اليوم. يعني ثلاثون يوماً لبلوغ المنتهى.

مكتبة 1020

يرفع ليوناردو إصبعاً متحيناً لحظة مجده. يحاول أن يتصنع التواضع قدر المستطاع لألا يقدح الضغينة في قلب محاوره:

- صبراً يا ابن منعم. فلعلك هوّنت من همّة العنكبوت المسكينة. حسابك صحيح ولكن إلى حين. فبتمام اليوم السابع والعشرين يكون ما ذكرت. وتستقر العنكبوت عند الذراع السابعة والعشرين. وفي يومها التالي؟

- تقطع الأذرع الثلاثة الباقية، ثم ترجع ذراعين.

- هو ذاك! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. قد تم بلوغ المراد إذن في ثمانية وعشرين يوماً.

يهلل القوم ويتضاحكون. غطس ليوناردو في الطنافس وقد اكتملت فرحته بغمزة التقدير من ابن المنعم. شعر بنفسه صبياً ينال رضى والده. تذكر أباه فخبَت فرحته قليلاً. لكن صوت صاحب الدار استرجعه:

- أحسنت يا أونارد! خيراً فعل الحصّار إذ أتي بك. وأنت هنا في إشبيلية بين أهلك وناسك. لكني أسألك عن الذي دفعك للاهتمام بفن الحساب وما عُرف ذلك عن قومك ولا رأينا رومياً قبلك يتقنه. وقد سمعنا أن إجادتك تفوق ما رأينا منك للتو.

يكاد ليوناردو يجيب لكن الحصّار يسبقه بالرد:

- هو كما قلت يا أبا محمد. قد جمعتني بأونارد الحِلق في بجاية

وتجاورنا بالمناكب في كتبيتها نقرأ ونكتري من النساخين. والحق أن مقامه بها عشر سنين قد أكسبه من الفصاحة والمعارف ما ندر أن يكون لمثله وإن كان مبتدأ أمره في ديوان الروم البيزاوية كاتباً عند أبيه. حتى إذا استفرغ المتاح في حساب الأموال وضبط الدفاتر بمكاسبها وفرائضها، يمم شطر صنوف الجبر والمقابلة والهندسة. وقد استعنت به لفهم أصل ما كتبه الإقليدس في (الأصول) وبطليموس في (المجسطي) فأعانني بدرايته باللسان الإغريقي وسواه. وأنا أعنته على ما صنّفه الخوارزمي وأبو كامل شجاع وسواهم.

يسكت الحصّار فيجدها ليوناردو فرصة. ما زالوا يستكثرون عليه فهمه وعلمه، وعطاء يحرضه بالإشارة ليكسر شكّهم:

- بارك الله في معلمنا أبي بكر الحصّار فقد كان لي نعم الصاحب. وقد حللت ببجاية فإذا الشيخ القرشي قد توفاه الله، فالتجأت إلى تلميذه أبي محمد البجائي أنتفع بعلمه وشروح ما وضعه معلمه في الجبر. فلما فُتح عليّ بتعلم أصول العدد وحسابه، صار عندي الشوق لإتقان سائر ضروب العلم الخوارزمي والفن الفيثاغوري والأرثماطيقي. وحضرت فراغ الحصّار من مخطوطه (الكامل في صناعة العدد) فعرفت فوق ما عرفت في ديوان والدي وما قبله من أساس الحساب الهندي والصيني، من طبائع الكسور وضربها وتصريفها، واستخراج الجذور، وفي الجمع على توالي النسب.

- وأحطت بذلك كله؟

- ما مسألة العنكبوت آنفاً إلا مسألة عابرة في توالي العدد يا ابن منعم. وكل ذلك في كفة والاستئناس برؤيتك العشية في كفة، وقد حصل لي عظيم الأنس قبلاً بمطالعة ما دوّنته في (فقه الحساب).

انتفش العبدري زهواً. حسب ليوناردو أنه بلغ المكانة في نفوسهم فأضاف:

- وأني أستنير بذلك كله وأستعد به لما سأكتب وأصنف في أبواب الحساب والجبر إن شاء الله.

صمتوا وأخذتهم البغتة. حدجوه بين مكذّب ومستخف. عرف ذلك في وجوههم وكأنه لمح ابتسامة تحوم على شفتي ابن المنعم. أصابع عطاء اشتدت على قماش إزاره وقد حبس أنفاسه. لما طال الصمت صفّق صاحب الدار بيده ليكسره عنوة:

- ليس ذلك على الله بعزيز. ولم لا يصنّف الرومي في الحساب بما يوافق فهمه؟ وهذا العبدري قد صنّف مسائل في علم الموسيقى. هلم يا أبا جعفر؛ تناول عودك وأطربنا على مقام الفيثاغوريين، ومن كان منكم على مذهب الظاهرية فليبشر بمنقوع العنب والزبيب.

***

استيقظ ليوناردو على شمس ساطعة آذت عينيه. لعله أسرف

في الشرب ليلة البارحة. صداع يعربد في رأسه، وذكريات عائمة ممزوجة بمرارة لم تنجل. فتح باب حجرته وأطل على فناء النُزل. دواب تسقي وأزواج بط تحجل وأناس غادون رائحون. ضجيج يليق بصباح شتوي مشمس. لكن شمس روحه كاسفة.

تدثر بعباءة وبره وتقدم ليعبّ الهواء البارد. المعمار الأندلسي يشد انتباهه في كل وقت وهذا النُزل بالذات يعجبه على بساطته. مربع بضلع مفتوح مطل على السهل الفسيح. كل الحجرات تفضي إلى الفناء الذي تتوسطه فسقية تبثّ الماء في خيوط مقوسة. صوت الماء مع زعيق البطّ يدوي في رأسه كقرع المطارق. لكنه يتسلى عن ذلك كله بتأمل تراص قطع القرميد على الأسقف وفق نمط ثابت، وتتابع الحِلق التي تكلل أعمدة الرواق في متوالية خلابة.

أمال رأسه فاحصاً البناء المتجانس، متخيلاً القواعد الهندسية التي بُني عليها، وأقطار الدوائر التي اشتقت منها أقواس الحجر. تذكر طفولته في بيزا.

في يوم مشمس كهذا، أخذه خاله بونّانو ليستقبلا عربات تجرها ثيران، كلٌ منها عليه جلمود رخام أتى من جبال بعيدة. وضعه في حِجره وفرد أمامه لفّات ورق عريضة لا يكاد يُرى بياضها من كثافة ما عليها من رسم ورموز. يشير الخال إلى الورق وإلى الخارج المصطخب. العمال يحفرون ويخبطون والبناء يتصاعد ناصعاً كل يوم. كاتدرائية بيزا ليس على الأرض لها مثيل، وأعمال البناء لم تتوقف منذ مئة عام. غنائم الحرب مع السراسنة في صقلية

وفي الأرض المقدسة تموّل المشروع الرباني. يعود به خاله إلى الورق ويريه ما سيكون؛ برج جرس فريد بسلمٍ لولبي يصل إلى عنان السماء وأعمدة بتيجان رومانية وتوريقات عربية. يتخيل الطفل ليوناردو الصرح الذي يرتفع الآن لثلاثة طوابق وقد صار أعلى وأعلى حتى تسمع الملائكة قرع أجراسه. أما الخال بونّانو فيهذي أرقاماً وهندسيات عن ميل القاعدة عن خط الأفق وميل البناء عن خط الشاقول. صبّ الخال في سمعه المشرّع الأبعاد والأرقام. علّمه أبجدية الأعداد؛ I V X C M. كل ما على الورق سيصير حقيقة تتألق بمجد الرب.

في صباح تالٍ أردفه على فرسه وانطلق به إلى الميناء، مجد بيزا الدنيوي يُصنع هنا. ورش السفن تتراص فيها الهياكل الخشبية التي ستكسى وتتشكل أساطيل تسد أشرعتها الأفق لتسري بتجارتها بين موانئ المتوسط. يفرد خاله أمامه لفّات أخرى بمزيد رموز وأرقام. كل ما في الدنيا مصمم وفق ناموس رباني. والرب أعطى الإنسان من ذلك قدراً يكفيه ليسيّر شأن حياته وفق المشيئة العليا. ليبني الكاتدرائية ويشيد المراكب، وليقيد المكسب والفقد في الدفاتر. كل وجوه عظمة بيزا؛ تعداد الجند وحصر جراياتهم، والضرائب التي يحصّلها المجلس من السكان، ومقادير المحاصيل وإحصاء رؤوس الماشية والأنفس. وخرزات المعداد في المدرسة. كل خلق الربّ وفق حساب وعدد. خلق الدنيا في سبعة أيام وشكّلها في سبع جنان وسبع طبقات جحيم. الرب هو المهندس الأعظم، والمختارون من خلقه وحدهم يبصرون ذلك.

تعلق قلب الطفل ليوناردو بذلك كله. صار ذلك هوسه وحلم شبابه. كبر وصار رجلاً وما زال يسعى خلف السر الإلهي. أقرانه انشغلوا بالنساء أو المال، وهو انكب على الرموز في قراطيس أبيه وأخواله. لعلهم ظلموه؟ حرموه من رؤية العالم بهيئته الظاهرة كما يراه سائر خلق الله. هل يحمّلهم همّ غربته ووحشته؟ أم أن الحسرة الخالصة له وبسوء تدبيره؟

التفت بجذعه لينظر إلى رشق مياه الفسقية في فناء النُزل الأندلسي، ويقدّر درجة انحنائها. دفق الماء إلى القلب النابع محسوب هو الآخر بدقة تضمن ثبات قوس الماء. مسح على صدره بكفيه ليجلو مراراته.

- كل ما هاهنا مقدّر موزون. لا مخلوق طارئ ولا موجود فائض عن سعة الجمال. وكل شيء عنده بمقدار.

- تتسلى بالتعبد في بديع الخليقة؟

فاجأه صوت صاحبه ورفيقه من خلفه فأجفل. التفت إليه وتكلف الابتسام:

- كيف بتَّ يا عطاء؟

- بأفضل مما بتَّ أنت. ولو أنك تعلمتَ أصول تقوى الله في بجاية، مثلما تعلمتَ أصول الحساب والعدد، لكنت في حال أحسن من حالك الساعة.

يبتسم ليوناردو الآن بحق:

- وندمائي البارحة، ألم يكونوا على نِحلتك ويعرفوا محارم الله وفق ملّتك فيجتنبوها؟

- لله في خلقه شؤون.

- هو ذاك يا أخي. وهو ما يستولي على خاطري الآن وفي كل حين. التدبر في شؤون الخلق واستفتاح ما استغلق من أسرارها. يقولون إن الصنعة تدل على الصانع. وأنا أبحث عن سر الصنعة لعلي أهتدي لمفتاحها.

- لا تزد على كفرك يا أونارد.

- على رسلك يا عطاء. أوَليس الله يأمركم بالنظر في خلقة الإبل؟ أنا أنظر أبعد من ذلك وأدنى منه في كل موجود ومحسوس. إني يا أخي لا أرى في هذه الدنيا، في دقائق المخلوقات وجليلها، في كل حركة وسكنة إلا شِرعة هندسية ومنهاج حساب لا يختل. ويسوؤني إلا أحيط بطرف علم من ذلك كله. لا أحسب الإقليدس والخوارزمي وكبار العارفين إلا شُغلوا بذلك. أفلا أكون مثلهم؟

- أراك نسيت صاحبيك الحصّار والعبدري فيمن ذكرت من العارفين.

تكسو القتامة وجه ليوناردو ويندم عطاء على مناكفته وتذكيره بخيبته. إنه لم يترك زوجه وعياله إلا وفاء لصحبة العمر الذي جمعهما. سنوات عشر قضياها معاً في بجاية حتى صارا بمنزلة الأخ من أخيه، وصار ليوناردو بمثابة العم لعياله حتى تسمى أحدهم باسمه.

لكن البيزاوي محموم ممسوس مركوب. وما مسه ولا ركبه إلا عفريت الفن الحسابي. تركه أبوه وشأنه في مخالطة العلماء والنسّاخين عسى أن يعلو شأنه ويخلفه في مهرته أحسن خلافة حتى شُغل عن الزواج وقد جاوز الخامسة والعشرين، وعزف عن أمر قومه وتجارتهم. نزل عن ذلك كله واختار أن يسيح في الأرض ليجلس إلى العالِمين ويدرس عليهم وينقب في النادر من مصنفاتهم. بدأ رحلته بإشبيلية ولعلها تنقضي فيها. أمّل عطاء أن ينقطع رجاء ليوناردو بعدما لاقى البارحة فيرجعان إلى بجاية، وإن كان ركوب البحر آمن إذا سكنت الريح وولى الشتاء. قدّر أن أشهراً من الانقطاع تنتظرهما فتصبّر. المال الذي معهما يكفي بالكاد وقد أبى المعلم گويلمو أن يعطيهما فوق ما معهما. عليه أن يحسن التدبير وإلا هلكا.

أخذتهما أقدامهما وأحاديثهما بعيداً عن النُزل عبر السهل. بزغت أمامهما على الأرض زهرة دوّار شمس. انحنيا عليها ولمس ليوناردو بتلاتها الزاهية:

- ما أعجب أمرها. غريبة مثلي يتيمة مثلك جاءت في غير وقتها!

ما كاد يتم عبارته حتى كانت يد عطاء تقتلعها:

- بذورها لنا غذاء ومنقوعها لنا شراب. هذا رزق ساقه الله إلينا.

انتزعها ليوناردو منه:

- ألا ترى في الأشياء إلا ما يؤكل أو يشرب أو يقضى به الوطر؟ أعمل بصرك وبصيرتك وتأمل يا أخي.

يقربها ليوناردو من وجهه ويدقق في بنيتها. في توزع وريقاتها واتساق البذور في صحن متاعها:

- كل ما فيها مقدّر محسوب. لا شيء طارئ ولا فائض عن سعة الجمال. تأمل يا عطاء! ألا ترى كيف تتوزع البذور في قلبها وفق نظام سحري. تبدأ بذرة واحدة في القلب، تجاورها بذرتان، فثلاث، فخمس، فثمان وهكذا. لا تزاحم بذرة أختها ولا تفسح بذرة فسحة إلا شغلتها أختها. فإذا ما فحصنا ما بين بذراتها، أترى؟ كلهن يملن عن الخط القائم بمقدار معلوم، بل أظنه ثابت مكرور. من ألهمها ذلك؟ أليست هذه أجلى آيات الهندسة؟ عدّ معي البتلات حول التويج. تتبع عدداً ثابتاً على الدوام. تلك هي متواليات العدّ المخبوءة في الموجودات التي ما تبحّر فيها لا الخوارزمي ولا العبدري.

- فارس يقترب!

يرفع ليوناردو رأسه إلى حيث يشير عطاء. يكون الجواد قد صار على بعد أذرع منهما ويتبينان راكبه. يسأل ليوناردو:

- ألم يكن هذا معنا البارحة؟

- اليهودي. عرفته بزيّه الأصفر.

يلوح القادم بيده محيياً وهو يسحب لجام حصانه باليد الأخرى. همحم الحيوان حتى أحس ليوناردو بأنفاسه الرطبة على جبينه.

- السلام عليكما. ساقكما الله إلي وقد كنت قصدتكما.

- وعليك مثلما قلت. عرفناك بوجهك ولم نعرفك بالاسم.

يعطي القادم عطاء، الذي تصدى للرد عليه، ابتسامة مشفقة. ثم يتجاهله ويوجه كلامه إلى ليوناردو:

- أنا سعديا بن بركات. قد حضرت مجلسكم البارحة ورأيت وسمعت. ولعل ما لدي يجبر كسر خاطرك ويسري عنك يا بيزاوي.

* * *

قال ابن بركات وهو يمد يده إلى صحفة الإفطار بلا دعوة:

- اتركنا من مسائل العنكبوت والخفائف التي نلهو بها في بيت أبي محمد. ما مرامك من كل ما درست وعلمت؟

ينبري عطاء للرد مجدداً:

- وما مرامك أنت من السؤال والاستفسار؟

يرمقه اليهودي بنظرة استخفاف ثانية ويتناول بيضة. يتدخل ليوناردو:

- اعذر أخي عطاء على جفاوته فإنه ما يريد بي إلا الخير. وقد رأيت القوم استخفوا بي وما عاد بي وثوق في أهل إشبيلية.

- وما أدراك أني من أهل إشبيلية؟

- ليتك تبتدئ فتعرفنا بنفسك والغاية من زيارتك.

- خبّرتك باسمي وقد عرفت ولا شك قومي وملّتي. وما جمعني بكم بالأمس إلا ما عُرف عني من اشتغالي بالفلسفة والنجوم وعلم التلمود مما لا شأن لك ولا للقوم به.

هتف عطاء:

- يهودي متفلسف. هذه والله جديدة!

يضحك ابن بركات حتى يظهر صفار البيض في فمه:

- ها قد باء بها صاحبك يا بيزاوي. تلومون على الناس وتنسون أنفسكم.

يحمرّ وجه عطاء. أما ليوناردو فيجاري ضيفه في الضحك. يتناول ابن بركات قطعة من مخلل الفجل ويتبعها بكسرة جبن. يمضغ ويتكلم:

- يهودي متفلسف. رومي عارف بفقه الحساب. القوم غمطونا حقنا وألزمونا مكامن الوضاعة والدونية ولا ملامة عليهم.

يبهت ليوناردو:

- لا ملامة؟ ما تقول سامحك الله؟ ظننتك أتيت لتجبر خاطري وتسري عني.

يعتدل ابن بركات في جلسته ويكتسي محياه بكساء الجد:

- أنا درست على ابن ملّتي المعلم الأكبر موسى بن ميمون وقد تمكن في الطبابة والتنجيم عند صاحب مصر صلاح الدين وعند بنيه من بعده. وكان فيمن نبغ من رفقتي في أرض المغرب يوسف بن عقنين. وفي علم الحساب والعدد إبراهيم بن عزرا، وإبراهيم بن برحيا من قبل. أسمعَ أيكما بهم؟

يهز الاثنان رأسيهما بالنفي فيما يتابع ابن بركات:

- فمن أحق بالأمن من مكر القوم فينا؟ هات لي رومياً أو فرنجياً أو صقلبياً نبغ فيما تشتغل به. أمرك إن شئت الحق عجيب.

يصمت ليوناردو. منطق اليهودي يروقه ويود لو يجاريه في الأخذ والرد. لكنه يجده دخيلاً ثقيلاً ولا عازة قاهرة لمسايرته. يواصل ابن بركات وكأنه يقرأ أفكاره:

- جدودي عمروا هذه الديار من قبل أن يعبر طارق بن زياد البحر. كانت لنا فيها لازمة بين المسلمين والنصارى سواء بسواء. ثم جاء الصحراوي المنصور فألبسني الصفار والزراق ليميزني عن خلق الله ويضيّق عليّ. معلمي ابن ميمون ما طاق العيش هنا فارتحل. وأكثرنا يعيش في سبتة وفاس بالخفية والتقية. ولو كنّا في مُلك قومك النصارى شمالاً لذبحونا كالنعاج وحرّقونا كالحطب. ومع ذلك فها أنا ذا يعرفني القاصي والداني وأقعد متساوياً بالمنكب والقدم

مع أئمة العلم في الأندلس حيثما اجتمعوا وإن أُلبست بردعة. ولا يجهلني إلا الغريب مثلك. وأنت تفت في عضدك الهمزة واللمزة، وكلمةٌ فلتت من أحدهم تغيّرك وتركد ماءك؟

يحس بكلمات اليهودي تفور في قلبه.

- قل لي يا ابن بركات بارك الله فيك، ما دفعك إلى طلبي لتقول ما تقول؟

تبزغ ابتسامة واسعة بين الشارب واللحية الفضيين. يعود سعديا ليسترخي في جلسته:

- لعلك ذكّرتني بنفسي إذ كنت غراً يافعاً مثلك. ولنفترض، على ما درجت من القول، إن بي ما بالقوم من اعتقاد في ضعف همتك وعقلك. هاك؛ ادحض رأيي فيك يا بيزاوي.

يتنهد ليوناردو مستجمعاً منطقه:

- قومي لا تنقصهم دراية بالعدّ إنما جهلهم بالعدد يا ابن بركات. وذاك أول ما فُتح به عليّ في مقامي ببجاية. وقد عرفتَ وعرف الخلق ما قومي عليه من مهارة وحذق في الحساب. وما كنزهم المال وربح تجارتهم بضرب الحظ ولا من ضعف العقل. لكن ما حيلة الصانع الماهر وقد بليت أداته؟

- كلام حسن. فأي أداة؟

- قد استقدمني أبي إلى بجاية وأنا ابن خمس عشرة وما تيسر

ذاك لغيري من أقراني، فعقلت لسان العرب وأدركت ما انتهى إليه أكابر عارفيهم، وكان أشد ما تعلقت وشغفت به أيما شغف ما وضعه الخوارزمي في أصول الجبر والمقابلة. وودت لو أنقل ذلك كله إلى لسان قومي وأزيد عليه. ومتواليات العدد فيها من الاسرار الكامنة ما سيُفتح به عليّ بإذن الله.

- وما أعظم ما لفتك وأنار فهمك من فن العدّ عند العرب؟

- تلك الرموز العشرة التي ابتدعها الهنود وطبقها الخوارزمي ومن بعده.

- أية رموز؟ تعني الأرقام من الواحد إلى التسعة؟ ويحك! ذلك مما يتلقاه العيال في الكتاتيب.

- هي هي يا ابن بركات. ومعها رمز الصفر المفرغ. ولو أحاط بها قومي وتبينوا وظيفتها ووجوه العمل بها لصار لهم أقصى النفع.

- قل كلاماً غيره يا ابن البيزاوية!

- لا يحاط بالكل مع الجهل بالجوهر. والجوهر في تلك الرموز العددية الهندية العشرة. فهي سر الصنعة كلها وقلب العلم الحسابي بخاناته ومضاعفاته وتبدل قيمه بتغيير المنازل. فإن ضُبط تطبيقها وتحقق استخدامها انفتح عقبها ساحل بحر لا آخر له.

- وهذا من قول ابن عربي، يا بيزاوي.

- لعلي وإياه نقتبس من السراج ذاته. ابن عربي هذا كان يهودياً مثلك؟

يضحك ابن بركات حتى تبدو أضراسه. يمسح عينيه بباطن كفه وقد تلوثت أصابعه بمعجون الأترج:

- هو من العارفين وإن أنكره المسلمون وجهله اليهود. كان هنا في إشبيلية سنة ثلاث وتسعين. ألم تلقه في بجاية؟ قد عرفه صاحبك الحصّار.

- ما قابلته ولا سمعت به إلا الساعة.

- وهذا أول النقص فيك.

لا يتمالك عطاء نفسه وقد أمسك لسانه طويلاً. ضرب على فخذه وصاح:

- عجيب أمرك يا يهودي! تحل علينا من حيث لا نحتسب. تأكل زادنا وتبلي حصيرنا، وتفتي في أمرنا وكأنك كشفت خبايا صدورنا وأنت لم تعرفنا إلا ساعة من نهار وساعة من ليل قبله. ألا تستحي؟

يسلط ابن بركات عليه ناظريه شزراً حتى يختلج قلب عطاء ويوجس خيفة. يسترق النظر إلى الملعقة الخشبية في الصحفة أمامه ثم يتجلد. يتكلم سعديا ابن بركات أخيراً وينصت الاثنان:

- العلم صنوف وأنواع ومراتب. منه العلم بالله وشرائعه وهو

أسماها وأرفعها. ومنه العلم بخلق الله من المحسوس المادي، ويدخل فيه العلم بالعالم وصفته الظاهرة، وهذا ما أنت في بعضه.

ينصت الاثنان وقد استحضرا أيام حلق بجاية ومجالسها، وما خطر ببال أحدهما أنهما سيثنيان الركب عند يهودي في إشبيلية. ينتعش الأمل في نفس ليوناردو بعد خبوه وسعديا يتابع:

- ومنه العلم بالرجال، وهم أرفع خلق الله مكانة وأسماهم. العلم بظواهرهم وبواطنهم. فأما الأول ففيه صُنّف الجرح والتعديل. وبه عرفنا سير الأنبياء والملوك وأيام العرب والعجم، وما معرفتك بالخوارزمي والإقليدس إلا وجهٌ من ذلك.

- هو ذاك.

- وما عندك منه شيء! ولا يكون لك شأن حتى تحيط به جميعه. أو كلما سألتك عن اسم من أسماء سادات العلم قلت هاه لا أدري!

- رويدك يا ابن بركات فما غرّبني عن قومي وجاء بي وبأخي عطاء إلا ذلك.

- وما الوجه الثاني من وجوه معرفة الرجال؟ ذكرت المعرفة بالبواطن يا ابن بركات.

- يا لله! أرى أن صاحبك أنبه منك يا بيزاوي.

تململ عطاء وقد أراد أن ينال عند اليهودي حظوة. لكن الرجل واساه بتربيتةٍ على ركبته وأكمل:

- العلم بالبواطن، وتسميه العرب علم الفراسة. وهو مما لا يتحصل بالاجتهاد والمثابرة، بل هو عطية ربانية ومنحة إلهية يمن بها الإله على من يشاء. فهو من صنوف المعرفة الفوقية ويحيلنا إلى العلم بالله في أول ما ذكرنا. وهكذا العلم سلسال مترابط ودائرة تنتهي بمبتداها وتبدأ بمنتهاها. شبهه العالمون بالبحر، لكني في حضرتك وأنت المشتغل بالهندسة والعدد أشبهه لك بدائرة لا أول لها ولا آخر. مليح؟

- مليح والله! دائرة كرسم الصِفر.

يتردد عطاء ثم يليّن نبرته لألا يساء فهمه:

- وأنت تزعم أنك ممن منّ الله عليهم بالعلم الفوقي؟

تصامّ عنه ابن بركات:

- قد وقعت في نفسي يا بيزاوي موقعاً حسناً أول ما رأيتك. وليكونن لك شأن. إنما الطريق أمامك طويلة والمعالم باهتة وبصيرتك كليلة وهمتك قاصرة.

- تمدحني أم تذمني يا ابن بركات؟

- بل أصدُقك. ومن صدقي لك أقول؛ اعرف الرجال في حقل معرفتك ولا تحصر نفسك في الحصّار والخوارزمي وبطليموس.

- لكن أولئك هم الأوائل المقدمون!

- وما أدراك؟

- قد جرى بذلك القول.

- تطمح لأن تغلب القوم وأنت لا تقول إلا بقولهم ولا ترى إلا بأعينهم؟ إن أنت إلا مقلد ناقل.

- فما التدبير؟

يقف ابن بركات ويقفان معه وقد تعلقت به أبصارهما وقلوبهما. ينفض يديه من الفتات والدبق ويضع قدميه في خفيه. عند باب الحجرة يصفق بكفيه طالباً دابته. يستوي عليها ويلوي لجامها فتدور حول نفسها به:

- استلحق ما بقي من خير الأندلس؛ رجالها ومكتباتها ومدوناتها. ملوك نافارة وليون يحشدون الحشود فإذا حل الصيف وقعت الوقيعة بينهم وبين المنصور لا محالة ولا يُدرى من يكسر الآخر. ونصارى الشمال لا عقول ولا نظر لهم إلا في الأناجيل والسيوف فيرفعون هذه بتلك ولا يُدرى ما يصنعون لو اعتزوا وتملكوا الأندلس.

يردد عطاء من طرف حنجرته:

- يتملكون الأندلس!

يهمز ابن بركات فرسه فتمضي به. يأتيهما صوته بدون أن يلتفت:

- عندك مكتبة إشبيلية فيها من الكنوز ما ينتظرك لتستخرجه.

تدبّر فيما تركه ابن برحيا البرشلوني، ومن لم تسمع بهم قبلاً. فتّش وتميّز. وليكن أول أمرك الرموز العشرة، وآخره ما لا يعلمه إلا الله في علاه.

*

-٤-

مضت أشهر الشتاء والربيع على ليوناردو في إشبيلية كأنها غمضة عين تبدلَ فيها من حال إلى حال.

لو رآه أبوه لما عرفه، أو لظنه خارجاً من حبس زنزانة. أرسل لحيته وعوده نحل وعيناه الوادعتان تدورتا. عرف الجوع وهو المرفّه في الدعة، لكنه رضي بذلك ثمناً بخساً لما هو مقبل عليه ولما نذر نفسه له.

انقطعت مؤونته فلزم مكتبة إشبيلية وصار نزيلاً دائماً بوقفها. التحق بنسّاخيها، ينقل ويترجم مقابل أقل الأجرة. انكب على كتبها بالتمحيص والمطالعة كما أوصاه ابن بركات.

على ضوء الشموع متنشقاً غبار الورق، تعرّف أسماء جديدة وتكشّفت له مجاهيل من علوم الرجال والعالم الظاهري. تعمق في خصائص العلم الأرثماطيقي. وتبحّر فيما ورّثه بطليموس وديوفنطس. ظهر له من بين دفّات الكتب حرّانيٌّ اسمه ثابت بن

قرّة برع في حساب المثلثات على الأسطح المكوّرة، وآخر يقال له الإقليدسي مع أنه دمشقي. نسبوه إلى المعلم الكبير لما صار آية في علمه. كاد عقل ليوناردو يشتّ لما وقع على ما دوّنه من شروح الكسور والعشور ونقطة صغيرة ابتدع وضعها فوق الخانات ليفرق الصحيح عن المكسور.

رفقته لم تقتصر على أشباح الفانين ووحدته لم تكن مطلقة. زملاؤه النسّاخون من عرب ويهود وقشتاليين عاونوه وقد فُتنوا بشغفه. نقلوا معاً صفحات لا تحصى من اللاتينية إلى العربية ومن العِبرية إلى اللاتينية ومن اليونانية القديمة إلى هذه وتلك. استبقى ليوناردو نسخة من كل مخطوط لنفسه. حدثته نفسه بأن تكون هذه نواة مكتبة سينشئها يوماً في بيزا، أو حيثما تحط به الأقدار. حلمٌ آخر في متوالية الرجاء!

الحصّار لم يقطعه وما انفكت دهشته منه تتعاظم. ووجهاء إشبيلية انشغلوا بتصاريف الأيام ونُذر الحرب لكن مجالسهم لم تنقطع. مرة أو مرتين، اصطحبه الحصّار معه ليصيب من المآدب العامرة ويستعرض مهاراته أمام الضيوف العابرين ويناظر العارفين منهم. صار له صيت بينهم. علمه ترسخ وذخيرته تضاعفت ومنطقه استقام، أو هكذا أوحى لنفسه وإن ظل مقيماً على هاجسه القديم؛ إن هو إلا مهرّج الملأ.. أعجوبة طارئة!

كلما انجزع قلبه للخاطرة صرّف ذاته ناحية درسه ومخطوطاته. صحا كل يوم على شاغل الفشل فاستغرق في عزلته. علاقته بعطاء

تزعزعت وقد صار الجدل بينهما لا ينقطع. رفيق عمره كره المقام بالأندلس وقد نفد المال وتمكن منه الاستوحاش. اشتغل في الكتاتيب والاحتطاب والعتالة، وما بقي إلا أن يستجدي العابرين. صار يصارحه بانقطاع أمله في مسعاه الوعر:

- إلى متى تغرّب بنا وما لنا هنا من أنيس ولا قريب؟ أفلا نعود إلى بجاية وتقنع بمهرة أبيك وقد كانت لك ردءاً من هذا الذل الذي نابني ونابك؟

لكن ليوناردو يصم أذنيه وقلبه. يعرف أنه يخسر أخاه الذي لم تلده أمه، وذلك عنده أهون من خسارة مراده الذي يلوح له كالسراب، كلما قطع إليه مرحلة ابتعد.

أواخر أيام الربيع، أخذهما الحصّار إلى بعض بساتين إشبيلية العامرة بالمتنزهين ليصلح ما بينهما ويجدد رباط الرفقة التي عرفها ثلاثتهم من أيام بجاية.

احتواهما زحام الناس بإقبالهم على الحياة. فتية وفتيات متبرجون بالزينة يتخالسون ضروب الغواية والتحبب. سائلون يتفننون في إشهار عاهاتهم مسترقّين القلوب أو منذرين بالشؤم. أمهات محملات بالعيال وبسلال الأطايب باحثات عن مواضع افتراش وآباء متبرمون بسعة النفقة على ضيق ذات اليد. لاعبون بالأخيلة ودمى الظل تقاطر عليهم الصبية بالدراهم الشاحبة في الأكف الضئيلة. ضاربات ودع وقارئو بخت ومحدثون كذابون بأسانيد موضوعة، ومتبارون في الشعر ولاعبون بالسيف والترس

ومرقّصوا قردة، وعازفو طنبور حولهن راقصات متسترات إلى حين، يرمين بالنظر في كل آونة إلى رجال الشُرط الذين يسقون دوابهم في الغدير غير بعيد.

- فلنلحق بالنعيم قبل أن تدركنا الصائفة. الربيع هنا تذكار بالجنة التي وعد الله عباده. وإني لأخشى أن نُحرم متاع الآخرة بقدر ما قُدّم لنا في الدنيا.

لا يضحك أيهما من كلام الحصّار. عطاء متبرم على الدوام وقد ساءه ما الناس فيه من الزينة وهو يرتدي الوضيع. أما ليوناردو فغائب في أفكاره وتهويماته. يلومه الحصّار:

- أترك عنك ما أنت فيه وانس شغلك يا أونارد. ساعة وساعة!

- وقعتُ أمس على أمرٍ يا أبا بكر، لو علمتَ به لأصابك ما أصابني.

- وأي شيء؟ قرطاس جديد؟

- لو غيرك قالها! هو ذاك. مخطوط لأبي الوفا البوزجاني؛ فيما يحتاج إليه الكتّاب والعمال في علم الحساب. فيه شروح بديعة لمسائل الأرثماطيقي وتقريب الكسور وجمعها على التوالي.

- ما جئت بجديد يا بيزاوي. قد سبقه إلى ذلك أبو الحسن الإقليدسي في فصوله في الحساب الهندي لما اشتغل على جمع

الكسور واستنباط جذورها. وما أضاف شيئاً على ما أتى به أبو موسى الخوارزمي قبله.

يهز ليوناردو رأسه بإصرار. يعمد إلى غصن شجرة دانٍ ويكسره. يقرفص على الأرض ويخط على الرمل:

$$\frac{1\ \ 5\ \ 7}{2\ \ 6\ \ 10}$$

- أرأيت شيئاً كهذا قبلاً؟

يمسد الحصّار لحيته وهو يمعن النظر. يجثو إلى جواره ويدقق أكثر:

- هذه صيغة لم تسبق لي رؤيتها. ولا أتعجل وأجيب بلا علم فأقع في الحرج.

- تلك هي متتاليات الكسور عند البوزجاني، على المجاميع المفضية إلى قيم ثابتة تقريبية. ما خططته لك يُقرأ: سبعة أعشار زائدً خمسة أسداس العشر زائداً نصف سدس العشر.

- عجيب! وما نفع ذلك؟

ينتصب ليوناردو واقفاً. تأخذه الحماسة:

- كل النفع يا أبا بكر. كل شيء مقدّر محسوب. الأرثماطيقي هو أصل العلم في حساب المثلثات وظلها وجيبها، ورسم الدوائر والصنعة الهندسية، وأساس العلم بمواقع النجوم والفلك. وهذه المتتاليات، هي سر الخليقة. الأرقام أبجدية الوجود وترجمان لغة السماء.

اقتحم عطاء نقاشهما ليمسح برجله ما خُطّ على الرمل:

- ويحك ما أسخف مقالك. أسداسٌ وأعشار جعلت منها سر الخليقة؟ ما أصبر الله عليك!

يرتاع ليوناردو لمدى سخط صاحبه عليه لكنه يتمالك نفسه. يرنو ببصره ناحية خيمة تحلّق حولها الناس وفيها ضاربو عود. ترفرف في السماء حمامة ويقفز قدّامهم أرنب واتته جرأة.

يتنفس ليوناردو عميقاً ثم يخرج صوته معكراً بالبؤس:

- يا أخي. لو شاء صاحب هذا البستان وأقطعك بعضه أما كان لنا علم الأرثماطيقي ملاذاً وملجأً لنعرف قسمتك؟ وهذه الإيقاعات الموسيقية التي تسري إلى أذنك مسرى الهواء إلى الصدر، أليست بمقامات محسوبة تكلم في أصولها المتكلمون؟ وهذا الأرنب المختبئ في جحره. كم واحداً مثله في هذا البستان فنعرف قيمته إن شئنا صيده؟

يكاد عطاء ينقض عليه. لكنه يكتفي بالتلويح والزعيق:

- أرانب وحمائم وصيد؟ أهذه عاقبة انقطاعك وآخرة ما جعلتنا فيه؟

يقف الحصّار بينهما. أرادها روحة ونزهة فإذا هي فاتحة شرٍ كامن. تستولي الكآبة عليهم ويجلسون على العشب الغضّ تاركين النسمات تهدئ روعهم. الهرج يغمرهم وما بأنفسهم الكليلة متسع للاستمتاع، لكنهم يرخون أعنتها لتهيم في فلاة الوقت.

يتردد صوت ليوناردو بعد فسحة صمت:

- زوج أرانب وُلد الساعة. بلغا بعد شهر فتسافدا. وبعد شهرٍ ثانٍ وضعت الأنثى أرنبين. بلغا بعد شهر فتسافدا أما أمهما فوضعت بطناً ثانية. صارت عندنا ثلاثة أزواج. بعد شهر وضع الزوج الأول زوجاً وكذا فعل الثاني، صارت عندنا خمسة أزواج، وبعد شهر..

يلتفت إلى الحصّار ويسأله:

- ما قولك يا حصّار؟ كم زوجاً يصير التعداد عقب الشهر الخامس؟

- ثمانية! ثمانية أزواج يا بيزاوي.

- هو ما قلت يا صاحبي. وبعد شهر يصير المجموع 13 زوجاً، ثم يصير 21 زوجاً ثم 34. قد سهرت على برهان المسألة وحققتها. وطبيعتها عجيبة فكل رقم تالٍ هو مجموع سابقيه.

يترك الحصّار في دهشته الغامرة ويلتفت إلى عطاء. يضع يده على كتفه:

- ألا ترى يا أخي؟ هذه المتواليات وجمع كسورها سرّ رباني. ثلاثة فخمسة فثمانية، أتذكر؟ هكذا إلى أن يفنى العالم وتقوم القيامة.

يتمعر وجه عطاء وينهض منصرفاً:

- قامت قيامتك!

تعلو ولولة الراقصات الفارات مع انقضاض جند الشرطة إذ أخذتهن الجرأة فتمادين.

***

تداخلت أصوات المؤذنين تعلن وقت المغرب. تناول الشخص سقاء جلد من حزامه وكسر صومه مواصلاً مشيه.

حدّث ليوناردو نفسه؛ هذا على الأقل مسلم صالح! ظلت الوساوس تلعب به. منذ وافاه الغريب في خلوته وأصرّ عليه أن يتبعه وهو متخوّف منه. لم يتبين ملامحه مع انسحاب الضياء أول الأمر. لكنهما ما إن صارا إلى الطريق حتى استبان له الأمر. من حسبها امرأة خشنة الصوت هي أقرب في الواقع إلى الرجال! عباءته والحلي المتدلية من أذنيه وأنفه لا تشي بذلك. لكن رسمة فكّه، والبروز في حنجرته، ومشيته! فكّر أن يفر منه عائداً إلى ملجئه. لكن وسواساً حثّه على أن يواصل المسير خلف المرسول ليعرف من أرسله وفيمَ؟ قدّر أنه سيتغلب عليه لو اشتبكا في صراع. مسح الأرض بعينيه باحثاً عن خشبة أو حجر. وماذا لو التأم عليه بعض من أشباهه؟ لا مخلوق سواهما في دروب إشبيلية والوقت وقت إفطار. لعل الكآبة التي تلبسته في أوّل رمضانٍ يقضيه وحيداً دفعت به إلى المخاطرة أملاً في أية رفقة تسلّيه.

طمأنه توغلهما في أحياء الميسورين وبياض الناس. ما هذه وجهة من يُبطن الشر أو الرذيلة. لكن ما أدراه بخبايا إشبيلية وأمزجة ناسها؟

نوّار لاح لهما من البعيد بعمود ناره، مضيئاً فوانيس الدرب قبل اشتداد الدهمة. التفت له الغريب ليستحثه فتبين الكحل الذي يرسم حدود عينيه. صارا إلى دار حسنة الباب. دفعه الغريب وولج بلا استئذان. ولما طال وقوف ليوناردو الحائر خارجها برز له:

- هلم.

عض على شفته مدركاً حمقه الفادح. لكن هبّة رعونة دفعت به فتقدّم داخلاً.

ممر ضيق أفضى بهما إلى فناء مشجّر جليل الزينة. لولا تام معرفته بأنه في بعض الدور لحسب أنه في قصر الوالي أو الجامع الأكبر. عاوده الانبهار بذات الخصائص الفاتنة؛ الخشب المشغول ورسمات القاشاني والطُنف المنقوشة على أطراف الأقواس التي تدور واسعة لتتقارب أطرافها منسدلة في اسطوانات رشيقة. أجلسه مرافقه على حشية وثيرة وغاب. تركه لتحديقه وتساؤلاته. الآن انسحب خوفه وغلبه الفضول. ما عاد بفكره شاغل إلا استجلاء آخرة الأمر. أيكون الحصّار دبر له تدبيراً؟

تعالى من خلفه حفيف ثياب وقرع أوان وصوت نسوة فتقلصت أمعاؤه. جمد في جلسته وثبت رأسه ناحية الجدار ملتزماً الأدب غاضاً الطرف مخافة أن يهتك حجاباً أو يطلّع على محرّم فيقع في التهمة وهو بعدُ في عداد الأبرياء. لكنه شُده وضحكة ناعمة تنساب من وراء كتفه:

- أنت الرومي الأعجوبة؟

تمنّع عن الالتفات لكن محدثته لم تتكلف الستر بل برزت أمامه بكامل قامتها. عليها جلباب قدّر أنه أثمن من كل بضاعة أبيه التي في بجاية، شعرها مفروق منسدل على ظهرها. تعرق جبينه وهو يلفي نفسه في دار غير داره، على جهالة وحين فُجأة، مختلياً بامرأة أجنبية لأول مرة منذ حلّ بإشبيلية. لكن ذعره تضاعف حين تبعتها نسوة أخريات بالتوافد وعلى محياهن الحبور. ضحكات جذلهن زادها ما هو فيه من ذهول بيّن.

وكأن ما يعانيه لم يكفهن، إذ ما لبث أن انضم إليهم الشخص الذي قاده إلى هذه المصيدة، واضح الحَرْقَدَة تحت حنكه الأمرد في ثوبٍ زاهٍ. تقدم حاملاً حصيراً عليه مآكل شتى فوضعه على الأرض وجلس إليه. التأمت حوله النسوة. ألقين بضفائرهن الطويلة خلف ظهورهن وشرعن يأكلن. أولاهن عزمت عليه:

- اسمك أونارد؟ هلّا أصبت من إفطارنا فالليل في أوله وما بيننا سيطول.

لملم شتاته وحرك أطرافه تحريكاً. أفسحن له وهن يتضاحكن، وتبرعت إحداهن بتقديم الأنواع التي أخذت ألوانها وروائحها بحواسه فهوّنت عليه. مدت ذراعها فانحسر كم ثوبها عن زند مكتنزة وكف منقوشة كأنها صفحة من كتاب. رأت اهتمامه بزينتها فتبسمت في غنج:

- أمامك قصعة بقية، وزيرباجة دجاج. وبعدَ الموالح تحلو البسطيلة وأقراص الخشكنان بالفستق والجوز، قليتها بنفسي،

وعندك درّاق مرقّد وإن كنت عطشاناً ففي الإناء عصير العنب المطيّب بالقرفة وماء الزهر.

مالت عليه حتى شم روح الورد في شعرها:

- ولو كنا في غير الشهر لسقيتك سواه.

حدق بها فزعاً لكنها كشفت عن صفين من الأسنان الدقيقة:

- أسكب لك؟

هزّ رأسه قابلاً ولا عضو آخر في جسده يطاوعه.

تأملن جموده بأعين براقة. قالت التي قابلها أولاً:

- ما لك لا تنطق؟ قد سمعتك تفصح وتُبين في بيت أبي محمد ومن يراك الآن يظنك أصم أخرساً.

أجبرته المفاجأة الجديدة على الكلام:

- أنتِ كنت في بيت أبي محمد؟

- هو عمّي. ومن كثر تقليبك وجهك في سقف داره حسبتك تنبهت إلى الشُرف حيث نسترق النظر ونرمي بالسمع إليكم.

- ما دريت بذلك إلا الآن.

- فاعلم أنّا سمعنا لك وأعجبنا ما أتيت به. وأحببتُ أن أستزيد أنا وصويحباتي مما عندك فبعثنا لؤلؤاً ليأتي بك بالخفية. ولعلك تعذر وتسامح فما من بُدّ مما حصل فللناس أعين وألسن.

يومئ مبدياً الفهم. كما أنه أعجمي لا يتحرجن من الظهور

عليه. يراقب المدعو لؤلؤاً الذي يباشر رفيقاته قبل أن يأكل. الأكل طيب والصحبة أطيب. لكن وعيه بأن ما يتم لا يليق بالعلن يكدر عليه صفوه ويسعّر قلقه.

تدرك ابنة أخي أبي محمد توتره فتطمئنه:

- لا عليك فهذه الدار داري ولا يفد عليها أحد بغير إذني. والناس مشغولة في الإفطار والشعائر. أنت في حماي فاستكن.

يرتاح إلى نبرة الثقة في صوتها والتمكن في تصرفاتها. لكن دهشته من اللقاء الذي لم يخطر مثيله على باله لا تزول. عاش بين المسلمين شطر عمره ولم يختل بنسوة في دار إحداهن بلا محرم قط. عاود النظر إلى لؤلؤ. تلاقت أعينهما فغمز له فغص بلقمته.

تابعت صاحبة الدار:

- لعل ما تجد نفسك فيه غير ما اعتدت. فاعلم أن الأندلسيات على غير أدب المشرقيات ولعل نسوة بجاية لا يقدمن على ما نقدم عليه. لكن جرى فينا أن الواحدة تستقل بأمرها ويكون لها مجلسها ولا تفرق عن الرجال في شيء. فلما آل أمرنا إلى الموحدين وغلب علينا البربر بالجلافة وطبع البداوة انحسر عُرفنا القديم. وإني من بيت نسب وعلم ولا أنزل مختارة عن شيء كان لسلفي وأنا حقيقة به.

- قد شعرت بذلك ورأيته في إهابك ومقالك. فهل تعرفينني باسمك؟

- صُبح. ونسبي فهري قرشي وإن كانت أمي مولّدة. وصويحباتي على ذات شرف المكانة والعلم. ديدننا أن نجتمع في كل ليلة من رمضان فتحدثنا أخيتي رضيّة في الفقه والتفسير، ونتداول شيئاً من الشعر ويطربنا لؤلؤ بالمألوف والمطروز، ثم نناقش في أمور الحساب والمنطق. وأحببنا أن تشاركنا فيها فتزيد ونزيدك.

قرصته دقيقة الأسنان مرسومة الكفين في عضده:

- لابد من الغناء والرقص أحياناً. لؤلؤ أحسن من يضرب على الرقّ.

تملى في وجوههن الرانية نحوه شغفاً. كل منهم يرى في الآخر أعجوبة أو سراً لطيفاً ما ظن أن الدنيا تتيح له استكشاف مثيله يوماً. سبق لسانه خاطره:

- وتُجدن ذلك كله؟

جمدت النسوة وخبا سطوع فرحتهن. ارتفع حاجبا الفهرية:

- أخيتي عزّة عندها لك أسئلة في الحساب.

- أجيب إن قدرت.

- نختبرك ونقارن جوابك بما وصلنا له.

- وفكرتن فيها؟ ما المسألة؟

تنبري إحداهن:

- رجل أعطته امرأته قطعتين من ذهبها تزنان معاً رطلاً واحداً. باع الأولى بـ 67 دينار للرطل. وباع الأخرى بـ 50 دينار للرطل. ورجع لامرأته بـ 56 دينار. فكم كان وزن كل قطعة؟

- أجيب بعدما نأكل ونتكلم في الفقه ونطرب.

- ثم يُرجعك لؤلؤ لتبيت ليلتك حيث جئت.

سكت موافقاً. خضباء الكفين رمقته بطرف عينها لكنه تغافل:

- هو ما قلتِ يا فهرية. لكن أسألك بالله فاصدقيني.

- سلّ.

- أيكنّ التي خاتلها زوجها فباع لها ذهبها بالخسارة؟

***

انقطعت عنه زيارات عطاء. وحدته صارت أكيدة يحسّها في كبده كالقار الثقيل. عاود ليوناردو الالتجاء إلى مكتبته رفقة أشباحه وما خلّفوه. مرّت عليه الأيام والليالي حتى نسيّ عدّها وهو المسكون بالعدد. صحا يوماً وما به رغبة في مطالعة ولا استيعاب. أحس صدره خاوياً والأرض من تحته مائدة والسماء على ظهره ثقيلة. أخذه بغتة حنين إلى فونداكو بجاية، وود لو أنه في حضن خاله بونّانو. خنقه الأسى وضاق صدره حتى كاد يبكي. كان أبوه يسمع له وما تضجر يوماً من إلحاحه في مناقشة أحاجي الحساب.

رجلٌ حان أجله فاستدعى أولاده وقال: اقسموا مالي بينكم

على ما أقول. قال لابنه الأول: لك دينار واحد وسُبع ما يتبقى من المال. وقال لابنه الثاني: لك ديناران اثنان وسُبع ما يتبقى من المال. وقال لابنه الثالث: لك ثلاثة دنانير وسُبع ما يتبقى من المال. ومضى هكذا كل ابن يأخذ ديناراً أكثر من سابقه وسُبع ما يتبقى من المال إلى الابن الأخير الذي أخذ ما بقي من المال. بعد تطبيق القسمة وجد الأبناء أن أقسامهم من الإرث متساوية. كم ابناً كان للرجل؟ وما مقدار ما ورّثه من مال؟

أكان أبوه يجاريه؟ يرخي له الحبل ليفيد من هوسه في تسيير تجارته في التالي من الأيام؟

حتى رفاقه النساخون والكتبة أعرضوا عنه وما عادوا يوادونه كدأبهم. أتراه استوحش حتى توهم الصدّ منهم؟ أم إنها إشارات باطنية من التي ذكرها سعديا ابن بركات؟ أيكون عطاء قد أوغر صدورهم؟

اشتد حرّ إشبيلية فصار يطلب الطراوة تحت سقيفة في حمى المكتبة. مخطوطاته مبعثرة من حوله ونفسه لم تزل حائمة فوق غطاء الكشف. كان ذاك حاله حين أقبل عليه الحصّار وعطاء أخيراً ذات ظهيرة قائظة. أعرض عنهما متدرعاً بدرع الجفاوة السميك فجلسا دون تحية ليلمّهم الصمت.

تململ أخيراً وحانت منه التفاتة إليهما فراعه اكفهرار الحصّار وكدمة دامية على وجنة عطاء.

- ما شأنكما؟ وما أصابك يا عطاء؟

تبادل القادمان النظرات السوداء. تنحنح الحصّار وشرع في الحديث:

- بلغتك الأنباء يا أونارد؟

يضرب عطاء كفاً بكف ويشد ثوبه حتى يكاد يمزقه:

- وكيف يعرف أو يسمع وهو المقطوع عن الدنيا كالذي التقمه حوت؟

- صبراً يا عطاء!

- عجلوا بالخبر يا قوم فوالله ما بي طاقة. أبي أصابه شيء؟

- ما عندنا خبر عن أبيك. بل الأمر أكبر من ذلك.

وأي شيء أكبر؟ بُهت واستولجته الدنيا بهمومها فكأنما لا أحلام أفنى عمره يطاردها ولا آمال ربط تاليه بها. الأمل دخان والواقعات بحر. وما أسرع ما يتوارى الدخان إذا انطفأت ناره.

استرجعه صوت الحصّار:

- اسمع يا أونارد. قد التقى الجمعان؛ جيش الخليفة المنصور وجيش الألفونش عند حصن الأرْك. وأيّد الله جنده بنصره فدارت الدائرة على النصارى وأفناهم الله.

- هكذا إذن. وما شأني أنا؟

انقض عليه عطاء وأخذ بخناقه. أرعبته لمعة الجنون التي لم يرها قبلاً في عيني أخيه:

- كيف وأنت النصراني ابن النصرانية؟ والناس يعيروننا بك ويطلبونك ليرجموك أو يصلبوك. وما بقي سفيه في إشبيلية إلا عرّض بي وبك حتى التأموا عليّ وضربوني.

عقدت الصدمة لسان ليوناردو. التفت إلى الحصّار الذي هز رأسه أسفاً:

- القوم أخذتهم العزة بالإثم وفرحوا بما أوتوا فنسوا. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين. اسمع مني يا أونارد. لا مقام لك في إشبيلية إلا أن تتخفى بالكليّة أو تدخل في ملتنا. ولا أراك تقوى على هذه أو تلك.

وضع ليوناردو رأسه بين ركبتيه. ها قد أطبقت عليه أقدار السماء. لا مراد ليبلغه ولا رحلة ليقطعها. قد كان رجاه أبعد من أن يُنال. لا سبيل أمامه إلا الرجوع إلى بجاية كاتباً في فونداكو حكومة بيزا.

قابله وجه عطاء. سحنته ارتخت ونغمته رقّت:

- نرجع يا أونارد. نرجع إلى دورنا وأهلنا ويكفيك ما حصّلت وما تم لك. وما في بجاية أعلم منك اليوم.

اعتصرت يدٌ خفية قلبه. خيبته ستصير خيبات. يرجع بذيله بين ساقيه كالكلب؟ كيف انقلب الحلم كابوساً؟

مرّت في رأسه خيالات العبدري وابن بركات وأبيه وخاله بونّانو.

كل شيء بمقدار. كل شيء محسوب. الرب هو المهندس الأعظم، والمختارون من خلقه وحدهم يبصرون ذلك.

صدره يفور كالمرجل وجزعه يستوي سخطاً. الحرارة تدب في قلبه والدم يحرق رأسه. جمّع وريقاته ومجلداته وقد عزم على أمره. الطريق طويلة إنما سالكة، والمعالم لا تفتأ تتبدى وبصيرته نافذة وهمته لن تنقطع.

- قم يا عطاء. فمركب بجاية تنتظرك.

هب إليه أخوه الذي لم تلده أمه واحتضنه. عصر صدره حتى كاد يؤذيه. دوى صوته الراقص بالفرح في أذنه:

- أبشر فداك أبي وأمي! لا تبيت ليلتك إلا في عرض البحر إن شاء الله.

- بل تبحر وحدك.

تصنّم جسد عطاء في حضن ليوناردو. رجع برأسه ليحدق به فقرأ في عينيه ما لا يقال. عاد الاثنان لاعتناق بعضهما وبكيا حتى بلّ أحدهما عاتق أخيه.

*

مكتبة
t.me/t_pdf

(٥)

بيزا، توسكانيا. ٦٢١هـ، ١٢٢٥م

- مائل! لا شك في أنه مائل. لن يكتمل. وإن اكتمل فسيقع. وإن لم يقع فسيظل منتصباً بميلانه الشنيع كأنه قضيب الشيطان.

لم ينبس أحد ببنت شفة وأسقف بيزا يهدر بالبذاءات في حرم الرب. البعض عذروه وآخرون أيقنوا بأن الله مطّلع على مبرر ثورته وسيسامحه. فالأمر جلل والخطب فادح.

برج الكاتدرائية، هذه الأكبر في الدنيا بأسرها، مفخرة بيزا ومفخرة المؤمنين، برج الجرس الموعود مائل عن استقامته! الحقيقة تتجلى للجميع من على بعد مئة خطوة عن قاعدة البرج الذي لم يكتمل ربعه بعد. عامل بناءٍ وقف على قمته المؤقتة، ممسكاً بحبل في طرفه ثقالة رصاص. الأمر واضح لكل ذي عينين. جذر البرج الموعود منحرف بمقدار درجة أو درجتين. الأرض تنحسر وتميع من تحته والبناء الصاعد لن يستقيم بل سيزيد الأمر سوءاً.

أي نحس؟ أي ذنب جرّ على مدينتهم هذه الفضيحة على مرأى

من كل المؤمنين والكفرة؟ ألم يُستشر المنجمون قبل حفر الأساس؟ وإن كان التنجيم زندقة فلِم لم يُصلّ المصلون بإخلاص وتفان لألا تقع هذه الفادحة حين وُضع أول حجر هنا قبل خمسين عام ونيّف؟

كان ليوناردو وقتها في الثالثة. وها هو اليوم في الخامسة والخمسين. واقف مع الوقوف واجم مع الواجمين لكن لأسبابه الخاصة، ضمن المجموعة التي التفت إليها الأسقف أورسيني وفجّر فيها غضبته وكأن أفرادها هم المسؤولون عن هذه المهزلة التي بدأت قبل أن يولد أكثرهم:

- أين نذهب بوجوهنا من الرب وقد دنسنا بيته بإهمالنا؟ أين أذهب بوجهي من البابا؟ من الإمبراطور الجديد الذي ما فتئ يتوعدنا بزيارته سنة بعد أخرى؟

ثم إن وجهه احمرّ وكأن التالي أشد إيلاماً مما سبق:

- وبقية الكرادلة، في فلورنسا وجنوة؛ ماذا سيقولون عنّا؟ لا شك في أن الخبر وصلهم فاستلقوا على أقفيتهم من الضحك.

موّجت الريح بالعشب الأخضر عبر السهل المفتوح حيث يقفون. مبنى الكاتدرائية الرخامي المكتظ بالزخرف يلمع خلفهم تحت الشمس. شادَه جدودهم خارج أسوار المدينة ليقولوا للعالم أن بيزا كلها حِمى وأنهم لا يخافون عدواً. وراء الكاتدرائية إلى الغرب مبنى المعمودية الدائري الذي أقامه آباؤهم. كل من رآه قال إنه الأجمل في الدنيا بين نظرائه. لم يبق إلا برج الجرس لتكتمل تحفة

بيزا وتاج ملكوتها الدنيوي. بل تاج عارها كما يظهر! اشتدت الريح بغتة فرفرت ثيابهم وطارت أردية رؤوسهم. خادم أورسيني ركض خلف قلنسوته ليعيدها إلى الرأس المقدس الذي احمر أكثر من شدة الغضب.

- والآن ما العمل؟ جمعتكم اليوم وفيكم كل بنّاء خبير وعارف بالهندسة والإنشاء. كيف سنعدّل البرج اللعين؟

لم يحر أحدهم جواباً. عندهم اقتراحات كثيرة لكن كلها أفكار تقتضي التجريب. بعضهم فكّر أن نقض البرج وإقامته من جديد على أرض أصلب هو أمثل حل. لكن لا يجرؤ أحد على مطالبة نيافة الأسقف بنسف جهد خمسين عاماً وإهدار أموال طائلة. سيتهمهم البابا بالسفه وستضحك عليهم أوروبا أكثر. ثم إن كل دينار إضافي سيأتي من جيوبهم وبدماء أبنائهم في حملات جديدة في المشرق والمغرب باسم الصليب. الأبناء يمكن تعويضهم أما الحرب فستقطع خطوط تجارتهم وستغرق سفنهم ولا قبل لهم بذلك.

صاح الأسقف ثانية ليؤكد استيائه وليغلب صوت الريح:

- لماذا خرستم؟

طأطأوا رؤوسهم متفادين المواجهة. لم يعجب ذلك نيافته، قرر أن يصب نقمته على أحدهم. استقر بصره على ليوناردو بالذات:

- بيگولّو!

بدهشة رفع ليوناردو وجهه وكأنه لم يتوقع أن ينتبه لوجوده

أحد. الهواء يرفرف بمعطفه كالراية لكن عمامته الشرقية ثابتة تفرقه عن الآخرين بهيئتها وباستقرارها حول خصل شعره الأشيب المبعثر:

- نعم يا صاحب النيافة.

يقذف عليه الأسقف أورسيني بالسؤال مع ابتسامة مرّة:

- أشر علينا يا صاحب السعادة. ألا يقولون إنك أذكى رجل في إيطاليا؟

يتنهد ويطبق جفنيه. لا يريد أن تلتقي عيناه بعيني أحد فتصله إمارات الشفقة أو الشماتة. لقد ملّ هذا كله! سنوات وسنوات والأسقف، هذا والذي قبله والذي قبلهما، وكل رجال الكنيسة وكل الكتبة والمحاسبين ومن يعرف كيف يخط رقمين في بيزا يناكفه أو يناصبه العداء. قد ملّ وتعب من الاستقصاد والسخرية بمبرر وبدونه.

لكنه يردّ بأدب:

- أشكر لكم ثقتكم بي يا صاحب النيافة.

- لا تسخر بي وإلا أنزلت عليك اللعنات!

دوّت الصيحة فالتزم الصمت. سيواصل أورسيني إفراغ غضبه عليه ولا يسعه إلا الصبر على البلل حتى تمر السحابة.

- أين معرفتك بالأرقام السحرية يا بيگولّو؟ أين رموزك الشيطانية التي جئت بها من عوالم السراسنة السود؟ ألم تزر مدن الدنيا؟ وكتابك الذي طار بسمعته الطائرون وإن

جزمتُ أن أحداً لم يفقه منه شيئاً، وحلول مسائلك عن البط والأرانب والخنازير، أليس فيها ما ينقذ مدينتك وأهلك من هذه الإهانة السماوية؟

- هو كما قلت يا سيدي.

- ماذا تقصد؟

- كتابي ما درى عنه أحد ولا فُهم منه شيء. كله عن الأرانب والبيع والشراء ومسائل لا علاقة لها بهذه الأزمة الفادحة. مرادك ليس عندي يا سيدي.

***

قبل المغيب بلغ ليوناردو داره.

دار واسعة تليق بسلالة بوناتشي. عائلته الممتدة توزع أفرادها بين بيزا وروما وموانئ أفريقية ليديروا شبكة تجارة نمّاها أبوه وإخوته. أما هو، فلم يكن إلا فرداً آخر من آل بوناتشي، إنما بلا سلطة حقيقية على الإرث الذي فرّط فيه اختياراً في فلتات شبابه.

هكذا قرر أهل بيته وأهل بيزا. ليس لليوناردو شأن في التجارة ولا في شؤون حكم الإمارة التوسكانية التي ضمّها فريدريك هوهنشتاوفن إلى إمبراطوريته المقدسة أخيراً. عقل ليوناردو أُخذ من صغره بعلوم المحمديين ولعله التاث ولسانه اعوجّ بعد المقام بين ظهرانيهم. صحيح أنه رجع إلى الديار قبل خمس وعشرين سنة، بعد غيبة طالت حتى انقطع خبره وظنوه مات. عاد فأطلقوا

عليه لقب الرحّال؛ «بيگولّو»، وإن كان اللفظ يفيد السخرية المبطنة بارتحال وعيه الدائم. بالُ بيگولّو هائم دوماً في مسائله وحساباته التي لا يدرك كنهها أحد.

في أول عودته اعتكف عاماً وزيادة قبل أن يخرج عليهم بكتاب زعم أنه ثمره جهده وخلاصة عمره. اهتم الناس به وقيل إن فيه من العلم الفريد ما لم يخض غماره أوروبي من قبل. نال شهرة حسنة وطابت نفسه أخيراً. صار له شأن! بات في الدنيا مخطوطٌ يحمل اسمه، مثله مثل إقليدس والخوارزمي والبوزجاني. تحقق الأمل أخيراً، ثم خبت البهجة كما يخبو لهب الشمعة.

مرّت ثلاث وعشرون سنة منذ فرغ من (كتاب الحساب). بعث بنسخ منه إلى الحصّار وإلى رفاقه في بجاية وفي أركان الأرض. ودّ لو أنه نقله إلى لغاتهم لكن همته خذلته. وخذلته بيزا. الرموز العربية التي بشّر بها جُنّ لها جنون الرهبان وهم القيّمون على العلوم والدرايات هنا. اتهموه بالسحر وحذروه من إغضاب الرب باستجلاب البدع من عند الكفرة.

وكأنه ما أنجز شيئاً. تراكمت المرارات على عاتقه كما تتراكم ذرّات الرمل في قاع الساعة وصارت جزءاً من قسماته وصوته ومشيته. ما أصابه اليوم حصاةٌ في جبل عثرات يثقل كاهله.

في فناء الدار المعطّر بزهر الياسمين والبرتقال، استقبله كلبان مرحبين بذيلين هزازين. تركهما يلعقان راحتيه وداعب رأسيهما بود. هذان مخلوقان يقدرانه ويعتقدان بتفوقه. وصله الصخب المرح

من داخل الدار. العائلة ملتئمة حول مائدة عامرة ولا شك. تخيلها مائدة أشد بذخاً من تلك التي عرفها في فونداكو بجاية ومن كل سماط جمعه برفاق لا حصر لهم حول حوض المتوسط. كان ذلك منذ دهر. أما اليوم فيوم آخر، مفعم باليأس مثل سواه.

أخذ نفساً وأقام ظهره. سيخوض ما بقي من ليلته مرفوع الرأس. عزّى نفسه بأن ما مضى من العمر أكثر مما بقي وأحس بالخاطرة تنغرس في قلبه كالدبوس لكنه تقدم وفتح الباب على مصراعه ليعلن وصوله. ما إن أطل عليهم حتى انقطع الكلام والضحك وكأن الهواء انسحب من صدورهم. الرجال والنساء، وحتى الصغار، وجموا كأنه وافاهم عارياً. لقد عرفوا بإهانة أورسيني له الغداة إذن. لا بأس!

ترك الخادم ينزع عنه معطفه ويمسح له وجهه بخرقة مبللة بماء الورد. عادة أتى بها من عند السراسنة. أخذ مكانه قرب رأس المجلس. ما يزال من كبار الأسرة. أفسحوا لجسده البدين وسارعت زوجه لتسكب له صامتة. صوفيا صامتة دوماً ولا كلام بينهما منذ سنين. لا يعرف كيف أنجب منها ولدين وثلاثة بنات. الولدان مهتمان بالتجارة والإبحار. لم يخذله الرب فيهما وإن كان يعلم أنهما لا يشاطرانه الرأي فيه.

عاد الكل إلى أطباقهم وحلّ المضغ والرشف محل الكلام. ومع إمساك الكل عن الحديث في وجوده، أترع كأسه وراحت عيناه تجوبان سطح المائدة لتستكشفا الطيبات التي غدت تسليته في الحياة. الأصناف تشي بخريطة نفوذ آل بوناتشي. رأس خنزير

في المنتصف، حوله أجبان وفواكه مجففة وبيض أوز وخبز حنطة. حساء محار ورنجة مدخّنة ومربى سفرجل مطبوخة جاءتهم هدية من تاجر تونسي يطمح في فرع للفونداكو عنده. استشعر الرضى بالوفرة وبادل رأس الخنزير ابتسامته. أما وجوه أفراد عائلته وعيالهم، وزوجه التي تخنقها عبرة دائمة، فكانت أقل بشاشة من وجه الخنزير، قبل أن يشرعوا في حفره بسكاكينهم.

تذكر شيئاً ففتح فاه وتكلم، كي يحرك السكون أو بدافع فضول حقيقي:

- صوفيا.. كأني سمعتك توصين الخدم في الصباح بذبح عدة أرانب. لا أرى أياً منها.

خيّل إليه أن زوجه تجمدت في جلستها ويدها شُلّت باللقمة بين الصحفة وفمها. وكأن الصمت صار أثقل وأرسخ. نقل بصره بين وجوههم المتيبسة وهُيء له أن بعضهم يكتم ضحكة أو يواري ابتسامة.

- ما الأمر؟ هل سُرق قن الأرانب؟

التفتت إليه صوفيا وكادت تجيب. لولا أن سبقها ولد صغير بضحكة خبيثة افترت عن أسنان مشوهة:

- ثلاثة.. خمسة.. ثمانية.. وهكذا وهكذا!

حدجه رجلٌ، لعله أبوه، بنظرات حارقة من طرف الطاولة. تشجع ولدٌ آخر ولكمه معاقباً على قرن جمجمته. التحم الولدان

في عراك وانفلت الكبار يسبونها ويتبادلون اللوم فيما بدا بديلاً للحرج الذي وجدت الأسرة بأكملها نفسها فيه تجاه العم ليوناردو بيگولّو.

- هكذا إذن!

قالها بصوت ضاحك فعادوا يلتفتون إليه بأعين محملة بالشفقة والأسف. الولد الشقي يغالب دموعه ويفرك كدمته. وصوفيا أحنت رأسها فلا يدري إن كانت تبكي أم تلعنه لأنه أفسد عليها عشاءها. تجاهلها وتوجه إلى الولد بالحديث:

- ما اسمك يا صغيري؟

تنشق الولد مخاطه فتضاعفت بشاعة وجوده. رد بصوت باكٍ:

- گويلمو.

- آه، على اسم أبي! ومن أبوك يا گويلمو؟

بلا حرف أشار الولد عبر الطاولة إلى شاب أحمر الخدين مبروم الشوارب. داڤيد، أحد أبناء عمومته.. أو خُؤولته، سيّان. بادله نظرة التحدي بلا مسحة اعتذار. لم يكترث له ليوناردو وهو من سن والده. عاد يخاطب الولد:

- ومن علّمك هذه المتوالية، يا عزيزي گويلمو؟

- متوالية؟

- الأرقام التي ذكرتها لتوّك: ثلاثة خمسة ثمانية إلى آخره.

لم تخف على ليوناردو إشارة الوعيد التي رمى بها داڤيد ابنه. نقل الولد بصره بين أبيه والعم ليوناردو للحظة. جاءته غمزة متوعدة من أخيه الذي ضربه تواً فثارت غريزة تمرده وغلبه أصله المخرّب. اندفع غير مبالٍ:

- العمة صوفيا قالت إنها لا تريد أن تبصر أرنباً بعد اليوم وأنك جعلتها أضحوكة بين النساء. أبي والخال فابيو قالوا إنهم يبنون وأنت تهدم وإن الأب أورسيني عيّرك اليوم بكتابك عن الأرانب والقطط. والعم ماتيو قال إنك جلبت العار على اسم بوناتشي وصار يقلدك ويعدد: أرنب أرنبان ثلاثة خمسة ثمانية وهكذا وهكذا وهكذا.

حطّ الصمت مجدداً حتى ما عاد يُسمع نفَس. تأوه رضيع في حضن أمه منذراً فرجرجته عسى أن تنتابه غيبوبة. حتى الولد الشقي سكت تماماً وقد استشعر أخيراً أية كارثة جلب بكلامه.

لم يقطع سكوتهم إلا ليوناردو الذي اتكأ بمرفقيه على المنضدة وأسند شفتيه إلى أصابعه المعقودة. تكلم أخيراً فصدر صوته مكتوماً:

- هكذا إذن.

تحفز الرجال مستعدين لمواجهة مع الشيخ الغاضب أما النساء فتبادلن نظرات الذعر. لكن ليوناردو بسط كفيه بهدوء على سطح الطاولة ورجع بظهره. واصل كلامه مع الصبي:

- وماذا بعد الثمانية يا بنيّ؟

الولد يحدق به في بلاهة، هو والمحيطون به كذلك. ينفرش ظل ابتسامة على وجه ليوناردو الذي حرثته السنين:

- ثلاثة فخمسة فثمانية.. ثم ماذا؟ كم ناتج خمسة زائداً ثمانية؟

لا ينطق گويلمو الصغير وإن كانت تعابيره تغرق في الغباوة وليوناردو يواصل:

- كل عدد هو نتاج العددين قبله. ثلاثة زائد خمسـ..

ينتفض الأب ليقاطعه فجأة مرعباً كل من حول المائدة:

- إياك يا ليوناردو! إياك أن تلوث عقل الولد بترهاتك.

يخبط ماتيو، ابن ليوناردو الأصغر، على الطاولة بقبضته ويصرخ:

- داڤيد! إياك أن تتطاول على أبي والزم حدّك!

يلوح ذو الشاربين المبرومين بيده باستخفاف ويتقلب وجهه:

- لا تمارس علينا دور الفتى الشهم يا ماتيو. أنت من بدأ الأمر وأنت من كان يسخر بأبيك الخرف. من قليل قلت إنه جلب لكم العار وأخواتك لن يجدن من يتزوجهن والآن تدافع عنه!

هبّ ماتيو فبادله داڤيد الوقوف والصراخ والتلويح بالأذرع. اندفع الاثنان في نوبة سباب صاخبة انتقلت عدواها إلى الجميع. صارت قاعة الطعام في دار آل بوناتشي أشبه بسوق السبت أو بساحة معركة صغيرة كل من فيها يزعق على الآخر. وحدها صوفيا ظلت على جلستها المطرقة لم تتزحزح. قام ليوناردو وتركهم جميعاً.

خرج إلى الفناء وهواء الليل دخل صدره لزجاً خانقاً. الكلبان تحلّقا من حوله لاهثين والخادم تبعه لعدة خطوات لكنه لم يأبه لأي منهم. على الطرف الآخر من الفناء كانت حجرة منفردة يكسو اللبلاب حائطها. دفع بابها الصغير وأوقد السراج فوقع ظله على عشرات المجلدات واسطوانات الورق المبرومة في خزائن الجدران. كتبَ هو بعضها بيده. خطّها أو اشتراها من كل محطة سفر في رحلة شبابه التي أخذته من بجاية إلى إشبيلية إلى پروڤانس إلى القسطنطينية إلى مصر إلى الشام رجوعاً إلى بيزا. خمس سنوات من الترحال تلتها سنتان من التدوين، بكل عناية وحرص، لخلاصة علمه وفكره.

امتدت يده وسحبت المجلد الضخم الثقيل: Liber Abaci (كتاب الحساب). على صفحته الأولى كتب قبل سنين طويلة:

الرموز الهندية التسعة هي: 9 8 7 6 5 4 3 2 1. بهذه الرموز وبالعلامة 0، يسعنا أن نكتب أيّ عدد نشاء.

قلّب الصفحات حتى بلغ الفصل الثاني عشر منه. مرّ على الكلمات التي لم يزل حبرها الغالي لامعاً حالكاً رغم الزمن:

رجلٌ لديه حقل مسوّرٌ، جاء فيه بزوج من الأرانب ذكرٌ وأنثى. والأرانب تتزاوج إذا بلغت شهراً ففي نهاية الشهر التالي تكون الأنثى قد ولدت زوجاً من الأرانب ذكر وأنثى. بافتراض بقاء جميع الأرانب حية وبافتراض أن كل زوج أرانب يلد زوجاً من ذكر وأنثى في كل شهر ما أن يبلغ، فكم أرنباً يصير لدى الرجل في سنة واحدة؟

الكلمات تشحب تحت بصره. السراج مضاء والورق نظيف، لكن غمام الدمع يتجمع أمامه. رفع السراج ودار به على جدران مُختلاه ومكتبته الصغيرة. يعرف كل كلمة في كل مخطوطة ويعرف مصدر كل معلومة نقلها أو حسّنها. قد أحاط بعلم الرجال وبالعلم العددي ظاهريه وباطنيه وما على البسيطة من يفوقه في الفهم. ذلك ما وقر في صدره وما ارتاح عقله ولا استكان طيلة ثلاثة وعشرين عام ولا ترك التفكّر والمراجعة، وإن كان انقطع عن التدوين طويلاً، طويلاً جداً.

صارت له كتب ومكتبة كما حلم في شبابه، وأبناء يعيّرونه لأنه جلب العار على اسم بوناتشي.

لو كان اليوم غير اليوم لألقى بالفانوس على الأوراق ولأحرق كل شيء. ولربما ترك نفسه يحترق معها. سيقولون: «مات بيگولّو المجنون» و«قتله سحر المحمديين». سيصلّبون على صدورهم ثم سينسونه.

ابتلع غصة كأنها كرة شوك وفتح صندوقاً أسفل منضدة كتابته واستخرج منه لفافة مخمل أحمر، فكّها فبرز له مخطوط حسن التجليد، تحسس غلافه برفق مثلما يتحسس أبٌ وجه وليده الجديد. هذا ثاني عياله بعد عُقم دام عشرين سنة. سرّه الذي لم يطلع عليه إلا رجلاً واحداً رجاء أن يكون طاقة قدره ونافذة حظه. استهلكه سنين ليستعيد لياقة فكره وروحه. صنّف (تطبيق الهندسة) Practica Geometriae في فنون المساحة والأبعاد والقياسات والأحجام،

معتالاً على ما خلّفه ابن برحيا البرشلوني ومضيفاً إليه. رحمك الله يا ابن بركات أينما كنت! خطّ من الكتاب الجديد نسختين، استبقى إحداهما لنفسه وبعث بالأخرى إلى الوزير العالم دومينيكوس الإسباني في بلاط الإمبراطور فريدريك. كان ذلك من سنتين. تبادلا الرسائل خلالها. مكاتبات تقدير ومعارضات في مسائل الرياضيات. وما يصنع الغريق بسفوف الرمل وهو الملهوف إلى سعة الساحل؟ سنتان، وقبلهما عشرون ونيّف. كاد رجاؤه ينقطع. بل قد انقطع.

لو كان اليوم غير اليوم لفعلها ولأحرق كل شيء. لكن اليوم مختلف. ثمة شعاع أمل يقتحم ظلماته المطبقة.

أدخل يده في جيب ثوبه واستخرج ورقة مطوية بحرص وعناية. مكتوبٌ موجّه له بالاسم، تلقاه صباح اليوم بالذات والكل مشغول عنه. ختمُ الشمع الأحمر ما يزال متماسكاً على طرفه، كثيفاً عريضاً فاخراً، صريحاً بشعار سلالة هوهنشتاوفن، واسم جلالة الإمبراطور الروماني المقدس فريدريكوس الثاني.

*

(٦)

تزلزلت بيزا بتواتر الأخبار. بدأ الأمر كشائعة تكررت حتى استحال تجاهلها. ثم انقلبت المدينة رأساً على عقب لما ظهرت رايات هوهنشتاوفن وراء الأسوار من قِبل الشمال الشرقي. برزت بيزا كلها إلى الشوارع ولم يأوِ الناس إلى بيوتهم إلا عندما خرج أعضاء الحكومة لطمأنتهم. الزيارة المرتقبة تأكدت لكن جلالته لم يصل بعد. سبقه حشدٌ من أتباعه للترتيب والتجهيز.

اصطف الأعيان والرهبان في الصباح التالي على قمة السلالم العريضة لمجلس بيزا بانتظار موكب الضيوف. وبخلاف الظاهر كان الكل حانقاً لأن جيشاً إمبراطورياً صغيراً يخيّم خارج الأسوار. بدا ذلك أشبه بإذلال علني، وكأن بيزا التي رفضت الرضوخ لإرادة البابا هونريوس وطاردت سفن الإمبراطور الجديد قبل بضع سنين، تُحتل بقوة الأمر الواقع هذه المرة.

مال الأسقف أورسيني على أذن الواقف إلى جواره وهمس:

- أحقاً ما يقولون؟ الكتيبة التي أرسلها فريدريك فيها جند مسلمون؟

- بل إن الكتيبة كلها من السراسنة. صقليون. أجلاهم عنها وأسكنهم في لوتشيرا على مرمى حجر من روما. أمر لا يصدقه العقل نيافتك.

ظل لغد أورسيني يرتجف غيظاً إلى أن تعالى وقع حوافر الوفد الإمبراطوري، يتقدمهم حرس بيزا بالزي التوسكاني الأحمر. وراءهم ارتفعت راية هوهنشتاوفن الصفراء بالعُقاب الأسود والسباع الثلاثة. صفق المستقبلون في ترحاب قبل أن يحبطهم مرأى صفيّ الفرسان المعممين ذوي الملامح العربية. وسطهم اختال مبعوثو فريدريك على جيادٍ عالية. ميّز الجميع أحدهم بدرعه اللمّاع المطلي بالأبيض الناصع تحت صليب أسود عريض. طمأنهم ذلك. يظهر أن فريدريك لم يكفر بالمسيح المخلّص بعد.

هرول أورسيني نزولاً على الدرج ليتلقى مبعوثي جلالته قبل أن تستقر أقدامهم على الأرض. قبّل الوزير دومينيكوس هيسپانوس على وجنتيه وألقى بالكلمات الساخطة في أذنه:

- لو علمت أنكم تأتون في صحبة هؤلاء الكفرة لما سمحت بإدخالكم إلى المدينة.

ربت الإسباني على كتفيه بودٍ زائد ورفع صوته فوق صخب الناس والدواب:

- وأنا سعيد برؤية نيافتك، وبهذا الاستقبال الجميل من أهل بيزا المخلصين.

تدافع الكل عبر بوابة مجلس المدينة. استأثرت نخبتها بالحكم أسوة بدويلات إيطاليا المستقلة. علاقتهم بالبابا في روما وبالأباطرة الذين يصنعهم وينصّبهم تفاوتت. وهاهم اليوم يأخذون مقاعدهم على المدرج الدائري الأشبه بالكولوسيوم ووزراء فريدريك جالسون في وسطه. قرر الإمبراطور أخيراً أن يمرّ ببلاطه الرحّال على بيزا بعدما ثبّت حكمه شمالاً في الولايات الجرمانية، وبعدما مزق جيوش المتمردين في ميلانو. استقبال البيزاويين له كان إذعاناً بالخضوع أكثر منه ترحيباً بملكٍ يزور ولايته التوسكانية للمرة الأولى.

ما إن استقر الجميع في مجالسهم وخف الهرج حتى وقف المعلم دومينيك في مواجهة الأعيان المتألقين بالمخمل والريش. الابتسامة المخاتلة على وجهه ثابتة وعيناه تبرقان في وسط بشرته الزيتونية:

- ليبارك الرب هذا الجمع في هذا اليوم الأغرّ..

لكن مرافقه المدرّع بالصليب قاطعه بالوقوف فارداً هامته المديدة. لفت الأنظار بخديه الناضحين بالعافية ولحيته العظيمة. تكلم فدوى صوته أجش عالياً محملاً بالمقت:

- قبل أن يسكب الإسباني في آذانكم معسول الكلام اسمعوا مني أولاً لنكون على بينة. لقد سمعتُ ما استقبله أسقفكم به، وعرفت عدم رضاكم عن مجيء الفرسان السراسنة

بمعيتنا. وأقول إن الأمر ليس لكم. وتهديده لنا بغلق الأبواب ومنّته أن أدخلنا الأسوار هو مثل الريح التي تخرج من الدبر. هذه المدينة، بأهلها وما فيها، وفرسان لوتشيرا المسلمون، وكل رجل في جيش جلالة الإمبراطور، كلنا تبع ورعايا جلالته وفي خدمته بأمر البابا الذي هو مشيئة الرب المباشرة. وأيّ منكم يساوره شك في نفاذ هذه المشيئة فليتقدم وسيفي الذي لم تجف عنه دماء رفاقكم اللومبارديين بعد سيعدّل رأيه ويقيم فكره.

بقي واقفاً يجيل البصر فيمن حوله. لم يرف لأحد جفن. جلس أخيراً وصدى قعقعة درعه يتردد في القاعة فواصل دومينيك الكلام:

- أشكر صديقي هيرمان ڤون سيلزا، مقدم الحرس التيوتوني؛ وبطولاتهم في الحرب المقدسة معروفة. وهذه فرصة لأقدم لكم مرافقيّ الآخرين؛ وزير الحاشية الصقلية ومعلمنا يوحنا دي باليرمو، ومنجّم البلاط وفيلسوفه أخي ثيودور الإنطاكي.

إسبانيّ وصقليّ وسفاح جرمانيّ ومنجّم إنطاكيّ. لم يعرف أهل بيزا إن كان فريدريك يستهزئ بهم أم يخصهم بنخبة رجاله. كان وعيد ڤون سيلزا ما يزال يرنّ في آذانهم ودومينيك يواصل:

- أنقل لكم تحيات جلالة الإمبراطور، الذي يحدوه الشوق للقائكم والتعرف على مدينتكم بما فيها من عجائب، سمعنا

كثيراً عن كاتدرائيتكم العظيمة وعن مشروع برج الجرس الطموح.

أحس أورسيني بثيابه الثقيلة تبتل بالعرق أكثر. تمنى لو تضربهم صاعقة من السماء أو ينهار السقف عليهم فينقضي هذا الكابوس. لكنه لم يملك إلا إصاخة السمع والإسباني يتابع:

- وأنا شخصياً أعدكم أن زيارة جلالته ستكون عجيبة تتكلم بها الأجيال، وسيكون مقامه في بيزا حدثاً يليق به، ويليق بكم، ويليق بمجد الإمبراطورية المقدسة التي هي ظل مملكة الرب في هذه الدنيا.

راح ڤون سيلزا يضرب بقبضته محيياً على سطح طاولته فاندفعوا يقلدونه. أكمل دومينيك وابتسامته تتسع:

- ولكي ننجح في مسعانا المشترك هذا، فعلينا أن نتعاون. إن موكب جلالته مهيب بما لن يحيط خيال أي منكم بمداه. ولا يمكن أن تتحمل المدينة كامل عدته وعتاده وحاشيته. جلالته تعطف بإدراك ذلك ولا يحملكم فوق طاقتكم. ونحن هنا لتدبير إنشاء قصره خارج الأسوار، مع مستلزمات حرسه وبطانته وضيوفه المحتملين.

تنحنح أورسيني وسعل. ثم انبجست الكلمة من حلقه:

- قصر؟

- نعم يا نيافة الأسقف. إن الإمبراطور لن يسكن في بيتك.

تعالت بضع ضحكات على حس قهقهة ڤون سيلزا التي دوّت عالياً. أشار دومينيك إلى الإنطاكي فوقف ليكمل شرح خطة القدَر الإمبراطوري الذي كُتب على بيزا:

- وفقاً لقراءتي للطالع وحركة الكواكب، فستكون الزيارة الإمبراطورية أوفق وأسعد في أشهر الصيف، بين يوليو وأغسطس. والمكان الأنسب للإقامة هو في الغابات الشمالية والنهر إلى ظهورنا. هكذا تتوفر الحماية والمواد اللازمة للتشييد والبناء.

تناول منه يوحنا الصقلي دفة الحديث. أما أعيان بيزا فدوّروا رؤوسهم بين المتحدثين وقد ربطت المفاجأة ألسنتهم:

- غابات الشمال عامرة بشجر البلوط والسنديان. تكفي لتشييد مبنى فاخر لإقامة جلالته الصيفية وللزيارات التالية إن شاء الرب. والسهول بمحاذاتها ممتازة لرعي الإسطبل الملكي، وبما ستجودون به بفرح من ماشية لمؤونة الحاشية.

صاح ڤون سيلزا مستحضراً أقصى درجات تركيزهم:

- قدّرنا أن إقامة جلالته ستكلفكم خمسمئة ديناريّ ذهبي. لن أبرح مكاني حتى أجمعها كلها. وأنت أيها السمين ستكون المسؤول أمامي.

إصبعه الملوثة أشارت إلى أورسيني الذي دارت الدنيا في رأسه وكاد الغمّ يوقف قلبه. جاهد ليبتلع ريقه وأراد أن يقول شيئاً يدفع به النظرات الغاضبة التي تسلطت عليه. خمسمئة ديناري ستقودهم

إلى شفير الإفلاس، وكانوا سيتحججون بالحجة ذاتها لو طُلب منهم عُشر ذلك. لكن باب القاعة فُتح بغتة وتعلقت الأعين المدهوشة بأحد حرس لوتشيرا الذي دخل غير عابئ بأحد. خلفه كان ليوناردو بوناتشي يخطو متعثراً.

تمتم أورسيني محدثاً نفسه:

- وما الذي أتى بهذا الآن؟

مبعوثو الإمبراطور الأربعة التفتوا ليعاينوا القادم الجديد الذي وقف مبهوراً لا يدري ما يراد منه. أما الجندي فانحنى ليهمس في أذن دومينيك بكلمات هبّ على إثرها هاتفاً:

- آه بوناتشي. هذا أنت يا عزيزي!

سقطت السماء على رؤوس البيزاويين فيما دومينيك يحتضن ليوناردو بفرح. لم يبدُ هو أقل تفاجؤاً ويوحنا الصقلي يتناول كفيه مصافحاً:

- ليوناردو بوناتشي! ها قد التقينا أخيراً. لقد انتظرتُ هذه اللحظة طويلاً يا سيدي. وجلالة الإمبراطور يتطلع لمثولك في حضرته.

***

تقافز حسّون على حافة السور بخفّة. شقشقته الحادة تؤذي الأذن أكثر مما تطربها. لم يلبث أن رفرف بعيداً تاركاً ذرقاً لامعاً على الحجر الأحمر.

تأمل ليوناردو ذلك. طيور الحسون لا تخرأ في الأحلام. لا يمكن أن يكون ذلك كله حلماً معقداً متقناً؛ الحرّاس الصقليون الواقفون على مدخل داره عبر الفناء، مانعين أفواج الفضوليين الذين جاؤوا ليعاينوا بأنفسهم غير مصدقين. رايةُ الإمبراطور المرفرفة فوق رأسه في يد جنديّ أخذته سحنته الحنطية إلى بجاية، فكأنه يشم هواءها في أنفه. رفع رأسه فتلقته وجوه زوجه وبناته المبهوتة من النوافذ. أحنى رقبته فإذا خادم يحمل صفحة بدورق شراب وأقداح. تناولها منه، أثقل من أن تكون جزءاً من حلم. ووقفته هذه عند مدخل حجرة مخطوطاته، والرجال الثلاثة الذين انتهكوا حرمتها القديمة، شرعوا يقلّبون وينبشون ويقرأون، غير عابئين بالغبار ولا تكاثف العتمة.

كل هذا ليس حلماً.

- ليوناردو جئت في وقتك!

صيحة دومينيكوس الإسباني استرجعته أكثر. وجيب قلبه لم يخفّ منذ ساعتين حتى آله. سيستعيد الدقائق المذهلة لاحقاً. أما الآن فلا يعنيه إلا مراد هؤلاء من كتبه وأوراقه. لم يقو على الاعتراض وهم يقتحمون داره بداعي الزيارة والمؤانسة. تركوا مجمع الأعيان تحت رحمة ڤون سيلزا وأركبوه هو جواداً مطهماً جعلوه في قلب الموكب الإمبراطوري. «إلى دار بوناتشي يا رجال!». «أرنا كنزك الخفي يا بيگولّو». لحظةٌ خاطفة إثر أختها وها هو واقف في فناء داره كالغريب، وثلاثة أغراب يجوسون في مكتبته وكأنها سبيلٌ لوجه الله أو مصطبة نسّاخ.

يجر قدميه ويدخل. المساحة الضيقة عابقة بروائح الأجساد والأوراق. المجلدات واللفائف متزاحمة على المنضدة الوحيدة. يقف بصحفة الشراب في يديه حتى ترتجف ذراعاه ويرن زجاج الأقداح. ينتبه ثيودور الإنطاكي فيهب لتناول حمولته. دومينيك الإسباني يزيح مجلداً ليوجد متسعاً للضيافة لكنه لا يلتفت إلى المضيف. أما يوحنا الصقلي فيلصق عينيه الكليلتين بما يقرأ ويهمهم بالكلمات عالياً ليعزز فهمه.

يصبون لأنفسهم فيما يواصلون المطالعة. حرصهم على ما بأيديهم واضح ومعاملتهم له متأنية. يقدرون قيمة مقتناه وهذا يضاعف خوفه. كتلة القلق تكبر في حلقه وتسد مجرى نسمه. يبتلعها تغصباً وينطق:

- هل ستأخذونها؟

يرفعون وجوههم عن قراطيسهم أخيراً. ابتسامة دومينيك تشع لكنها تتقلص لمرأى وجهه المصفر. يقبل عليه مهتماً. بصره زائغ وجبينه نديّ مع أن الجو بارد. يأمر جندياً بأن يجلب للمبجل بوناتشي مقعداً ليستريح عليه وينادي:

- ثيودور.

الإنطاكي يجس نبضه وحرارته ويضغط على أحشائه ويتشمم أنفاسه. يتبادل النظر مع الإسباني ويهز كتفيه. يأتيهم صوت الصقلي المنهك من الداخل:

- إنه خائف. لقد زعزعنا قلبه المسكين.

يقلّب دومينيك أنظاره بين يوحنا وليوناردو الذي يهمس في إغماءته:

- لا تأخذوا كتبي.

يربت المعلم دومينيك على خده ويقرب طرف الكأس من شفتيه الجافتين:

- هاك. اشرب يا رجل لن نأخذ شيئاً. اعذرنا فقد سرقتنا الفرحة بك فنسينا أن نشرح لك.

***

حول مأدبة العشاء تحلق الضيوف الثلاثة مع أسرة ليوناردو الصغيرة. الولدان والبنات الثلاثة وأمهم. الكل تصنّع الحرص وأكل أقل مما اشتهى في حضرة رجال الإمبراطور الذين كانوا على أتم سجياتهم. طعموا وضحكوا وأولوا كامل الاهتمام لمضيفهم الكريم: السيد ليوناردو بن گويلمو بوناتشي.

لم تر صوفيا زوجها متألقاً هكذا منذ دخل بها أول مرة. كان متألقاً كذلك يوم أظهر للناس كتابه في الحساب. لم تلحظ ذلك وقتها لكنها تذكرت الآن وهي تتأمل انشراحه والطريقة التي ينهمر فيها الحكي من بين شفتيه وقد عاودته العافية. تنفست بحسرة وامتنان معاً. سارعت لتغرف مجدداً لأحد الملوك الثلاثة الذين تستضيفهم تحت سقف بيتها. ابنتها أورورا حذرتها «هؤلاء ليسوا ملوكاً بل خدم عند الملوك». لكنها لم تفلح في إقناع قلبها والنحّال

لا يأتي من قِبله إلا الزهر أو العسل. الفرحة تكاد تطير بصوابها. كيف تحصّل لهم هذا الشرف بين عشية وضحاها؟ من أين يعرف ليوناردو هؤلاء الرجال؟ أيعقل أنها غفلت عن الشمس الساطعة في حجرها كل تلك السنين؟

انتشلها من أفكارها هتاف المعلم ثيودور:

- رويدك يا سيدتي. يخنة الأرانب هذه شهية لكن لا أقدر على هذا كله.

أضحكها الحرج وقد أترعت صحن الضيف سهواً. لم تعرف ما تقول فاختلقت عذراً:

- سامحني من فرحتي بك بالغت. الأرانب أكلة ليوناردو المفضلة.

تلاقت عيناها بعيني زوجها، ثم انتابتهما نوبة ضحك لمّت كل من بالجلسة حتى الضيوف وإن لم يفهموا سر العبارة.

بدافع أسئلة مفصلة من المعلم يوحنا والمعلم دومينيك، استرجع ليوناردو أيامه في بجاية ومعارفه المكتسبة بها وبكل بلدة زارها في شبابه. سألوه عمّن قابل ومن عرف بالمواجهة أو بالتلقّي فأفادهم بأسماء ولطائف جمعته بكبار العارفين الأحياء والمتنيحين. سألوه عن إجادته للألسن؛ أكد إيغاله في العربية والإغريقية القديمة وشيء من العبرية، فضلاً عن اللاتينية والفرنكية. امتحنوه؛ الإنطاكي كلمه بالعربية الصرفة فكاد ليوناردو يقوم يقبله وقد طال عليه أمدها.

تلعثم وتعثر فكّاه في البدء كحديّ المقص الثلم ثم لم يلبث أن غرّد بها، وعياله ينظرون مشدوهين. كلمه الإنطاكي بالعبرية فردّ وأفصح، وأبلغ في الرد على يوحنا ودومينيك بكل لغة جرباها معه. سألوه عن عموم معرفته بالحساب والأرثماطيقي والجبر والمساحات، والمنطق الأرسطي والكتاب المقدس. تحرّج ثم أبان بأن علمه في العدديات أبلغ وآكد مما سواه، وعلم الكلام ليس العش الذي يأوي إليه طير فكره، وعندهم مكتبته قرينة على ما يجيد ويعرف.

سكتوا وعلى وجوههم الرضا. قال المعلم دومينيك:

- الحق يا سيدي أن مكتبتك كنز نادر الوجود. وما عرفنا مثلك في سعة العلم ووفرة الاطلاع، أما رسوخ فهمك فتحقق لنا سابقاً ولاحقاً لما درسنا كتابك الأول في الحساب، ثم كتابك الثاني في الهندسيات، وفرحتنا بهما لا توصف واسأل ثيودور يجبك.

التقم الإنطاكي المزيد من يخنة الأرانب:

- شهدتها أنا وشهدها جلالة الإمبراطور كذلك.

ران عليهم صمت الهيبة المطلق. وكادت صوفيا تصلّب وكأنما ذُكر أمامها ابن الإله. استرسل دومينيك:

- إن منهجك في Liber Abaci أصيل، وفصوله الخمسة عشر التي كل منها كنز مكنون استغرقتني قراءتها وفهمها شتاء كاملاً. لا أعرف أيها أعجبني أكثر من سواه. فأنت عرضت

بكلام سهل يفهمه الرجل البسيط أفضل الطرق للحساب الصيني والعربي باستخدام الأعداد الصحيحة والكسور مع أمثلة من صميم الحياة، وقواعد القسمة واستخراج الجذر التربيعي والمكعب، والنسب، وقواعد المتسلسلات من الأرقام وإيجاد المتوسطات، وحتى فرائض الربا المركّب وكأنك لم تنس إرث أبيك على روحه السلام.

ماتيو وأخوه لوكا تشاركا النظرات. في هذا العالم مخابيل كأبيهما يتعاطون السحر بل ويخدمون الإمبراطور. صوفيا تجمدت ابتسامتها المرحبة ولم تعرف إن كان ما سمعته الآن كلام بشر أو تراتيل كالتي تقال في القدّاس.

قال دومينيك وهو يناول قدحه للخادم:

- تفاجأتُ حين وصلتني رسالتك الأولى من سنتين والمكاتبات التي جرت بيننا من حينها بالطرائف الحسابية والغريب من المسائل كلها محفوظة عندي. قد غمرني الحبور بعلمك وفهمك فذكرتك عند صاحب الجلالة وزينت له مثولك بين يديه.
- قد عرفتُ ذلك. ولا يسعني شكرك عليه وإيفاؤك حقه ولو بذلت لك شطر عمري.

تنحنح الشيخ الصقلي فيممت ناحيته الوجوه. عيناه لا تظهران من تحت حاجبيه الكثين وشفتاه مستورتان تحت شعر وجهه، لكن صوته خشن كطحن حجريّ الرحى:

- نقلك عن الخوارزمي وأبي كامل المصري واضح. براعتك ظاهرة في ترجمة المسميات والألفاظ من العربية وما أظن أحداً سبقك إلى ذلك. لكنك بارع أيضاً في تناولك للمسائل التي تؤدي إلى حل المجهول الوحيد، أو المجهولين الاثنين. تطبيقك لأسس الجبر التي وضعها سابقوك مباشر ودقيق. وشرحك لمستغلقات الهندسة الإقليدية ممتاز. بما في ذلك الاستعانة بالحروف كنايات عن القيم العددية وتسميتك للمجهولات بأسماء تعرّفها كـ «الشيء» ونحو ذلك.

يرفع المعلم يوحنا رأسه. يخيل إلى ليوناردو أن العينين المستّتين تبرقان كعينيّ سنور في الظلمة وهو يضيف:

- وفعلت ذلك كله مستخدماً الرموز العددية العربية.

مديح رفيع أم تهديد خفيّ؟ الأسئلة والدهشات تتلاعب بعقله وتؤرجحه بين الخوف والرجاء، لكنه يركّز ذهنه على الأَولى فالأولى. يتجنب عياله بما في دواخلهم من صواعق ورواعد مكبوتة ويستجمع بقية جرأته ليسأل:

- لكني لا أفهم. كيف يهتم جلالة الإمبراطور بهكذا شؤون؟

يرد دومينيك:

- عجباً منك يا ليوناردو! ألم يصلك كتابي مختوماً بختم جلالته قبل أسابيع؟

شهقت صوفيا وسأل لوكا:

- فريدريك أرسل لك أنت؟

لم يلتفت له ليوناردو. دومينيك لاحظ الفتور بين الأب وابنه الأكبر فأضاف:

- أرى أنك رجل كتوم وهذا أمر مطلوب لمن سينضم للخاصة الإمبراطورية ويمثل بين يدي جلالته.

- الخاصة؟ أبي؟ لا شك بأنك تمزح!

انقلبت السحنة الباشّة لدومينيك الإسباني فكأن الله أبدله وجهاً غير وجهه ولساناً غير لسانه. ملامحه تداخلت والرذاذ تطاير من فمه وهو يمزق لوكا بن ليوناردو بوناتشي بكلماته:

- إن دومينيكوس هيسپانوس يمزح مع من كان من سنه ومقامه، ولا يلتفت إلى أخرق جاهل لا يعرف قدر أبيه فيحترمه أو فضل العلم الذي في صدره فيوقره.

عينا الشاب جحظتا وهو يهان أمام والديه في عقر داره. لكنه فزّ مرعوباً ودومينيك يصيح به:

- والآن اغرب عنا فما بيني وبين أبيك لا يعنيك ولا من شأنك!

قام الفتى متعثراً لا يلوي على شيء وتبعه الباقون. حتى صوفيا سحبتها إحدى بناتها عنوة. ليوناردو انكسر خاطره لولده لكن خوفاً أكبر شغله. أي ضيوف هؤلاء الذين يحطّون عليك كالحمّى فلا يسعك إلا أن تتلقاهم بحرّهم وبردهم وتقلّبهم بلا سابق نذير؟

تذكّر الجند المسلحين في فناء داره وحذّر نفسه؛ هؤلاء قوم يأمرون فيطاعون ويتبسمون فتظهر أنيابهم التي بها يفتكون.

- أصغ يا بوناتشي.

قالها يوحنا وهو يعدّل الوشاح الصوفي على كتفيه الهزيلتين. صفق ليوناردو فغذى خادم المدفأة بالحطب.

- إن جلالة الإمبراطور رجلٌ فذّ.

- لا شك عندي في ذلك.

- اسمع ولا تتكلم.

يتلقى ليوناردو الصفعة راضياً. أين صار المديح الذي أغرقوه به من هنيهة؟ أم أن الحديث عن الذات الإمبراطورية هو كالصلاة لا يخالطه شأن آخر.

- لا أقول هذا الكلام من قبيل المبالغة. لكن ذلك ما عاصرناه ووعيناه وأكدّه كل من قرأ الطالع واستكشف المكتوب.

يهز المنجّم الإنطاكي رأسه مؤمّناً. صوت يوحنا المشروخ يعلو على طقطقة النيران:

- فريدريك هوهنشتاوفن، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ملك صقلية، وجرمانيا، وإيطاليا بشمالها وجنوبها، وأورشليم. فريدريك الثاني ابن هنري الرابع، حفيد الشهيد فريدريك بربَروسا. الإمبراطور ابن الإمبراطور ابن الإمبراطور، خليفة شارلمان وقيصر. عمره ثلاثون سنة. هل

فاجأتك سنه الصغيرة؟ يجدر بك، وذلك أقل ما يدهشك في شأنه. هذا الرجل ولد في غياهب الضياع. ليغفر لي الرب فما قصدت الانتقاص من مقام جلالته. أبوه ثم أمه ماتا وهو بعد صبي. من كان مثله تطويه الأيام في دفاتر النسيان. لكن المشيئة قيضت لليتيم أن تناله رعاية البابا نفسه. هكذا ضمن حياته. لكن الحياة لا تُقبل على مثله إلا مقفية. من يرعاه في البرزخ الصقلي الذي ولد به وهو ابن السلالة الجرمانية؟ صدّق أننا كنا نتناوب العناية به فيقيم في كل بيت من بيوت الأعيان ما تيسر. أسرتي فعلت ذلك.

يومئ ليوناردو بصبر. القصة مسلية لكنه لا يدرك العبرة منها ولا علاقتها به.

- عيّن البابا له خيرة المعلمين السراسنة فتفتح عقله وانشرح صدره لهم من صغره. ثم لما كبر جلالته وقويَ عوده آل إليه مُلك صقلية. جزيرة شيطانية إن شئت الحق، أقول ذلك وأنا من أهلها. ومن يكون أهلها؟ بقايا العرب، أم اللاتين أم شتات اليونان والنورمانديين؟ مزيج أتعبه حكمه، وأتعبه تكالب ملوك أوروبا عليه طمعاً فيما عنده، وتلاعب البابا الذي لم يهتم به حباً في الله إنما ليضرب به أعداءه. لأختصر عليك القصة: إمبراطورنا المحبوب تغلب على ذلك كله ونصّبه البابا هونريوس على العرش المقدس رغم معاندة المعاندين بمن فيهم قومك البيزاويون. لم ينسها لكم. فهمت يا ليوناردو گويلمو بوناتشي؟

- لا يا سيدي. لم أفهم شيئاً.

يبتسم يوحنا ورفاقه. تعجبهم صراحة البيزاوي الذي لا يجامل. يشرح له يوحنا أكثر:

- في خضم ذلك كله سأخبرك بالتالي، إمبراطورنا يجيد اللغات التي تجيد وأكثر. وعلمه محيط. نحن عينة من رجالات بلاطه، كل منجم وفلكي ومتفلسف وطبيب وشاعر، المشتغلون بالعدديات وبطبائع المواد، والعالمون بالأسرار الربانية والدنيوية، سيّاس الخيل والصقارون والمهرجون. كل واحد منهم له مكانه في بلاط فريدريك، جنباً إلى جنب رجال السياسة والحرب والكهنوت. وهو لكل من أولئك نعم الراعي والصاحب.

تعب يوحنا من الكلام فأكمل دومينيك:

- إن إمبراطورنا يا بيكولّو ليس رجلاً عادياً. إنه أعجوبة قلّ أن يرى العالم مثيلاً لها.

يخالف ليوناردو الأمر الذي تلقاه ويطرح سؤاله الذي حان أوانه:

- والإمبراطور الأعجوبة، جلالته، طلب اللقاء بي أنا؟

- صحيح. عرّفته عليك أنا بعدما وصلتني نسخة من كتابك في الحساب. تناقشنا في مسائله طويلاً.

- تناقشت أنت والإمبراطور؟

- أنا وجلالته، ويوحنا وثيودور وآخر اسمه مايكل سكوت وعالمون آخرون.

- أي عالمين آخرين؟

ما أن نطق بالسؤال حتى اعتراه الندم وأسف لتسرعه. لكن لسانه سبقه وفضح ما بداخل رأسه. ودومينيك الإسباني فهم وابتسم بزاوية فمه فذكّره بابتسامة ابن بركات المتعالية وسحنة ابن المنعم المتكبرة:

- تحسب أننا لسنا أكفاء لك في العلم؟

- لم أقل ذلك.

- وإن لم تقله. ثمة علم بالظواهر وعلم بالبواطن وخفايا القلوب.

دوار خفيف يعتريه. كأن محدثه يفتح سجل الماضي ويقرأ منه. لو كانا يمثلان مشهداً من مسرحية فهذا دوره:

- العرب تسميه علم الفراسة.

- هو كما قلت يا أبا لوكا.

يضحك رغماً عنه دهشة وابتهاجاً. الإسباني يسايره ويحاكيه بعربية جزالتها تضاهي جزالة الإنطاكي. يلتفت إلى الصقلي ويسأله:

- وأنت تجيد العربية كذلك؟

- قليلاً. أبو جدي خدم في بلاط الملك روجر وكان أنداده

عرباً أقحاحاً. هو الذي اشترى الفضة التي نقش عليها الإدريسي صورة العالم.

سمع بذلك وإن لم يدرك تفصيله. لم يعرف كيف يرد على هؤلاء ولا بأية ذخيرة علم يواجههم. دومينيك تابع:

- تحسب أن ليس على الأرض مثلك في العلم والعقل، وأنت الذي بادرت بمراسلتي فلم فعلت؟

يتروى ليوناردو قبل أن يجيب. يدرك أنه سيفتح لهم قبو نفسه ومستودع ضعفه وهم كالكواسر تحلقوا حوله ليجردوا عظم روحه من لحم الستر، حتى إذا قابل إمبراطورهم كان مكشوفاً له ظاهره كباطنه. أهم أهل لثقته؟ وماذا لديه ليخسر؟ بل ليست عنده إلا هذه الفرصة ليحقق نصيبه من المجد فلم التعزز؟

- استوحشت وآذتني الغربة. لا تتعجبوا من كلامي فما ظننت أحداً اهتم لأمري ولا قرأ كتابي. ومع يقيني بفرادة ما جئت به، فقد مرّت عشرون حولاً ما سمعت فيها من عالم أو عارف شرقاً أو غرباً، حتى حدثتني نفسي بالعودة إلى البلاد العربية افتتح بسطة ورّاق أو اشتغل بالدرس إن أذنوا لي. ولولا أثقال الدنيا من عيال وعلل لفعلت. فلما أصبت طرف خبر عنك يا إسباني وعن اهتمامك بالعلم الرفيع بادرتُ وكاتبتك فكنتُ كمن يرمي في جنح الظلام. وبدل الظبي اصطدت ثلاثة فللرب المحامد.

ضحكوا مؤمّنين ووافقه ثيودور:

- أصبت يا صاحبي. ولعلنا قصّرنا معك فلم نعرفك بأنفسنا كما ينبغي فاسمع مني أولاً. أنا ثيودور الإنطاكي. ويسمونني الفيلسوف وهو ما أقبله بكل تواضع. ارتحلت في شبابي إلى الموصل فدرستُ أفكار أرسطو وابن رشد عن الروح وأصل العالم. وطلبت الطب حيناً في بغداد. ثم لزمت معلمي كمال الدين بن يونس، تلميذ شرف الدين الطوسي، رحمهم الله جميعاً. فقرأتُ عليه مصنّفات الفارابي وابن سينا وأصول إقليدس وكتاب المجسطي. أيشفع لي ذلك عندك لأفتي في الحساب والجبر؟ معلمي الطوسي زاد على أعمال فلكي فارسي اسمه الخيّامي شغفتُ بفنه فصرت إلى الحال التي أنا فيها تحت إنعام مولانا فريدريك كبيراً لمنجميه.

علق ليوناردو مبهوتاً:

- ما ظننت قلب رجل واحد يسع هذا العلم كله!

قهقه دومينيك:

- احذر من تصديق الفلاسفة والمنجمين. والإنطاكي له منافس في بلاط سيدنا الإمبراطور هو مايكل سكوت فلا تحكم حتى تسمع منه.

يسايره ليوناردو في الضحك وإن لم تخف عنه القتامة على قسمات ثيودور. أما دومينيك فانبرى ليعرّف بالصقلي:

- أما شيخنا وأستاذنا يوحنا دي باليرمو فهو بمنزلة الوالد لجلالة الإمبراطور وهذا كلام جلالته. وهو حاجب البلاط

الصقلي من قديم، وخازن بيت المال، وهذا مجال براعتكم يا أهل بيزا. غير أن معارفه تتجاوز ذلك. وإن كان لك أن تخشى ناقداً أو ممتحناً لك في علمك فاخشه هو.

يومئ الشيخ الصقلي متقبلاً التقريظ. ويؤكد اطلاعه التام على مدوّنات ليوناردو:

- أنت موهوب بموهبة الرب يا بوناتشي، لكن مقامك بين البيزاويين يجعلك كالوردة في حوض الخنازير.

- وجلالة الإمبراطور يعي ذلك كله؟

- سؤالك أورد غيرك المهالك لكن نقبله منك لقلة عهدك بالخاصة العلية. بلى وأكثر من ذلك. وما أمره بمثولك بين يديه إلا ليناقشك ويمتحنك.

- يمتحنني؟

- يتسلى باكتشاف قدرتك على الإجابة على ما غاب عن علمه وعلمنا من المسائل التي ما خلصنا إلى جواب قطعي لها.

- ولم أنا بالذات؟ وماذا لو فشلت؟

يرمقونه بنظرات خاوية طويلة ويجيب دومينيك على سؤاليه على التوالي:

- لأن جلالته سمّاك. ولن تفشل. لن نسمح لك بالفشل.

*

(٧)

دخول الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الأراضي البيزاوية، في السادس من يوليو من عام الرب 1225، كان أشبه بمسّ الجن الذي أصاب المدينة بأسرها. لم يبق أحد ممن شهد تفاصيله المهولة، إلا وآمن بأن الملك الشاب وبلاطه كانا بحق أعجوبة الدنيا التي ليس لها نظير.

امتد الموكب الإمبراطوري على طول ميل كامل، من المرفأ على الساحل إلى المشارف حيث شُيّدت مدينة طارئة من الأكواخ والخيام توسطها القصر الإمبراطوري الخشبي.

وعلى ضفتي الطريق، احتشد الآلاف من البشر المذهولين، مختلطاً ضحكهم بعويلهم، وهتافهم بتضرعهم إلى الرب كي يهوّن عليهم أهوال القيامة التي يعاينون.

لم يشهد أي منهم فيلاً حياً من قبل. وحين دبّت أمامهم زرافتان بالغتان لأول مرة في حياة أيّ منهم، وشخصت الأبصار بحثاً

عن منتهى رقابهما، أيقن الناس بأن فريدريك يربي في كنفه سلالة الشياطين.

«الإمبراطور هو الدجّال» صاح البعض وأغشي على آخرين. لكن الأغلبية لم تملك ترف الانصراف عن النهر الإمبراطوري المتدفق بالأعاجيب بلا بداية ولا نهاية؛ المهرجون اللاعبون بالسيوف والنافثون للنيران. الراقصات ذوات الأجساد التي يهيأ للناظر أنها مفرغة من العظام لفرط ليونتها، فرق الخيالة المدرعة بالزرد والصفيح، مجلوبة من الأقاصي الجرمانية، من ساكسونيا وسوابيا، والمشاة المحملون بالنبل كأنهم القنافذ من عرب لوتشيرا ولاتين لومبارديا وليگوريا ومن كل أنحاء الإمبراطورية المترامية. لم يكتف فريدريك بإدخال كتيبة اللوتشيريين المسلمين، بل أتبعهم بسرايا العدوة اللدود جِنِوة ليخترق قلب بيزا بسهم ثان. حتى إذا ظن الناس أنهم نالوا كفايتهم من المعجزات والهوائل، طارت عقولهم لمرأى الرجال السود اللامعة أجسادهم بالزيوت يسوقون أمامهم أسوداً وضباعاً ألجمت بالحديد. البعض أفقدهم سحر المشهد صوابهم فاقتربوا ومدوا أيادي متهورة لتمزقها مخالب الوحوش الثائرة فيموج الضاحكون والباكون بالانفعال الهائل.

دقّت نواقيس الكنائس فلم يستجب أحد والمدينة خلو عن بكرة أبيها. حتى الأسقف أورسيني لم يجد من يذكره بتلبية نداء الرب. أذهلته الصدمة تلو الصدمة حتى إذا ما لاح له العرش الإمبراطوري المورّق بالذهب، يجره عشرون ثوراً أبيضاً، وتجلّى العاهل الشاب

مكللاً بالتاج البابوي على هامته، خرّ وكل أهل بيزا على ركبهم وأحنوا رؤوسهم تبجيلاً. توقف نافخو الأبواق وضاربو الطبول حين رفع فريدريك كفه بتحية عابرة. لم يعد يُسمع في الأفق إلا زئير الأسود الغاضبة، وقرع أجراس الكنائس المنسية.

تحرك الجمع الغفير تابعاً لذيل موكب سيده الذي واصل الزحف إلى قصره الجديد. اصطف المئات تحت الشمس والحرس يسوسونهم بأسنة الحراب في صفوف تبدأ عند البوابات ولا يرى لها آخر، ليقدموا فروض التحية والولاء لعاهلهم. اختلط الرعاع بالسادة والقسس بالمرابين في أرتال متطاولة بدت من علٍ كرؤوس الماشية.

على أحد شرفات القصر وقف يوحنا دي باليرمو يرقب كل شيء. الحرّ يثقل أنفاسه لكن وجهه المتعرق مسترخٍ في رضا. شاربه الأبيض يهتز سابقاً الكلمات التي تتحدر من ورائه:

- أحسنت يا ثيودور. اختيارك لهذا اليوم موفّق بلا شك. دخول مهيب يليق بجلالته.

الإنطاكي يحني رأسه بتواضع الواثق. يلتفت إلى ليوناردو الواقف خلفهما ويسأله بعربية درجا عليها:

- ما قولك يا أبا لوكا؟

لا يحرك ليوناردو ساكناً. قامته متخشبة وملامحه قلقة. وقفته بهذا الموضع استمرت طيلة النهار متفرجاً معهما على المهرجان العجائبي

وأُخذ لبّه هو الآخر بما رأي وسمع. لكن ما يشغل باله أكبر وأجلّ من الأسود والأفيال والراقصات العاريات، ومن عرش الإمبراطور الذي تجره الثيران وتحفّه الضباع. بل خوفه من الرجل الذي لأجله وبه يصير هذا كله.

تنبه إلى أن المنجّم الإنطاكي ما يزال يرمقه بتهذيب منتظراً جوابه. أدب البلاط أعقد من أن يتثبت في طبيعته القديمة وقد انقضى عمره أو كاد ففات أوان تقويمه. لكن ذاك عين ما يقض مضجعه، وما توغل الخوف منه في قلبه وقد وقف للتو على هيبة فريدريك وعظيم سطوته.

انتزع وعيه من وحل وجله وتحلحل فكّه ليجيب:

- الحق ما قلت يا ثيودور؛ جلالته أعجوبة العالم.

يبتسم الإنطاكي ولا يكتفي:

- تقول ذلك وأنت من طاف الدنيا وشاهد من الأعاجيب ما يفني مثلك أعمارهم في بعض منه؟

يسايره ليوناردو في تدبيجه. ذلك جزء من طقوس البلاط وفقه الخاصة:

- بل لا يعي عظمته وفرادته إلا من سافر وارتحل، وعاين وتفكّر. وبه وقر في نفسي واستقر في روعي أن ما عليه مولانا وسيدنا الإمبراطور في كفة، وما في الدنيا بأسرها في كفة.

يروزه ثيودور من رأسه لأخمص قدميه. لا يظهر من الراهب

الإنطاكي إلا رأسه الأصلع والباقي مستتر تحت الصوف والبالي من الخرق. لكن الرأس يهتز والشفاه تفتر عن كلمة وحيدة:

- أحسنت.

كل لحظة يمضيها ليوناردو في حضرة ملأ فريدريك هي لحظة امتحان أو إعداد للامتحان الأكبر بين يدي جلالته. استولوا عليه من أشهر وحبسوه عن أهله، فأعادوا صياغة مخبره ومظهره. لقّنوه كيف يقف ويقعد ويأكل ويتنفس، وكيف يتكلم، باللفظ والمبنى وإن استقام المعنى بغير ما لُقّن.

يوحنا الصقلي متواطئ في ذلك كله بل هو مهندسه الأول. يسأله مقفياً في إطلالته على الأسفل:

- والمسألة؟

يعرف ليوناردو مقصده لكنه لا يتقدم في الجواب على المقدّمين من معلمي البلاط. يعد إلى الثلاثة، فلما لم يحر ثيودور لفظاً عرف أن طريقه سالكة:

- إيجاد قيمة عدد مربع لو أضيف له العدد 5، أو طرح منه العدد 5، يكون الناتج قيمة مربعة. قد درستُ أساسها واستظهرت بواطنها. وراجعت جوابها على ما وضعه الأولون واستفرغت الوسع فاهتديت إلى حلها وطريقة بسطه للأفهام، وطابقته بالمعطى من منطوقها فاستقر الجواب الذي عندي على الوجه الأصوب إن شاء الله.

- واستنرت بعلم مَن مِن الأولين في مسعاك؟

يخرق السؤال خاصرته كحد السكين. المعلم يوحنا لا يولي علمه الخاص ثقته المطلقة مع أنه أثبت علو كعبه ودقة فهمه مرات ومرات. لكنه يعذره وإن آذاه بسؤاله. لا مجال لزلة أمام الإمبراطور. والصقلي أحاط بمضمون مكتبته وقراطيسه فلا مجال لمراوغته بأصالة الفهم، لكنه يجيب بما يحفظ ماء وجهه ويؤكد رسوخ فهمه:

- قد بحث في مثلها أبو بكر الكرجي. لكني قد أحطت بها من غير ما طريق وتسمعون مني ما يفي بالجواب ويزيد.

- وأين هذا الكرجي؟

- مات في بغداد قبل مئتي عام.

يستدير إليه المعلم يوحنا. صار الآن في مرمى زوجين من الأعين الفاحصة. الوزيران يراجعان نفسيهما ويدرسان خياراتهما. الإمبراطور طلبه بالاسم، ذلك البيزاوي الذي تفوّق على العرب والإغريق في العدديات والهندسيات وعنده كتاب في الحساب الهندي. أعجوبة أخرى فُتن بها ملك الأعاجيب. لكن إخفاقه الغداة أمام فريدريك سيكون في وجوههم هم.

المعلم يوحنا الصقلي والمعلم ثيودور الإنطاكي يتبادلان الحديث بالنظر. تخيفه لغة العيون هذه وتوغر صدره وهو البليغ بلغة الأرقام والأشكال. يشير له الإنطاكي ويتقدمه فيتبعه. أما يوحنا فيبقى على وقفته ومراقبته للجمع المتكالب وقد علا ضجيجهم وتضاعف عددهم.

لكن الكون من حولهم تنزل به نازلة من سكون فكأن الخلق خرسوا. ما عاد من صوت يحمله الهواء إلا نداء منغّم طويل بكلام لا يُفهم ولحن لم تعتده الآذان. بل تعرفته أذناه وحنتا إليه وإن كان عقله يتخبط في فهم مبرره وتفسيره. تشل الدهشة رجليه فيتأخر عن ثيودور الذي يسأله:

مكتبة
t.me/t_pdf

- ما الخطب؟

- تسمع يا إنطاكي؟

- أسمع يا أبا لوكا. هذا أذان الصلاة والوقت ظهر ومثلك يعرف.

يخالف ليوناردو الناموس ويكسر العُرف. هرع حتى وقف حذاء يوحنا على الشرفة فإذا القوم في الأسفل ذاهلون كأن على رؤوسهم الطير. صوت الأذان يعلو ويستمر آتياً من خيام العسكر. ضرب ليوناردو ببصره فأبصر رجلاً على سارية ينادي لصلاة المسلمين. شهق ثانية دهشة وحنيناً. سأل يوحنا الذي لم تتغير وقفته:

- هذا من العساكر المحمديين؟ والإمبراطور يرضى بذلك ولا يمنعه؟

لا يرد عليه الوزير الصقلي المخضرم. ينسحب بخجله ويلحق بثيودور الذي يربت على كتفه:

- قد قلنا لك إن مولانا أعجوبة الدنيا، فهيئ فؤادك خيراً لك.

***

تلا ليوناردو كل ما أسعفت به ذاكرته من صلوات، من الكتاب المقدس ومن القرآن. جرت آية الكرسي على لسانه كأنه تلقاها الأمس من فم عطاء فرددها ثلاثاً. لن يضيره ذلك وفريدريك يؤمن كما يبدو برب المسيح ورب محمد معاً. الحارسان على مدخل قاعة العرش سمعاه يدندن بلغتهما فتحركت إليه أعينهما وإن لم تهتز وقفتاهما. لو كان الموقف غير الموقف لتبسط معهما لكنه ألزم نفسه موضعها وتثبت بالآداب السلطانية فتجنب مماحكة الرعاع وهو المقبل على مجلس الملك وما بينهما إلا ضرفتا الباب.

تقلبت أحشاؤه وقلبه خفق حتى ظنه خارجاً من أضلعه. كل خلجة فيه تستعد للحظة المجد التي تمناها طويلاً. موضع صغير في عقله، أشبه بالجزء الفاسد من الثمرة، ظل يطنّ ويذكره بحاله في مجالس إشبيلية، لا فرق إلا في المقياس وإلا فالقياس ثابت. كان مؤنس الأعيان وهو الآن مؤنس الإمبراطور. كاد يصفع وجهه ليستخرج ذاته من جحر الكآبة إلى مرج الأمل. وأي مهرج مثله؟ لقد صنف في العلم فتوحاً والحظ خدمه فساق إليه من يعرفه ويقدره حق قدره. لولا الأنطاكي والصقلي والإسباني، والآخر الاسكتلندي الذي لم يلقه بعد، لقبعت القراطيس التي سوّدها في ظلمة الغيب دهوراً أو لأكلتها الأرضة.

حثّ نفسه؛ حري بمن كان مثله أن يدخل على الملوك وهذا موضعه الأكيد.

الحارسان تنبها وهمهمة الواقف بينهما مع نفسه تزيد وصوته

يعلو. لم يدرِ بهما وهو يعيد حل المسألة في سره للمرة الألف كما سبق الترتيب. دي باليرمو سيسأل وهو سيجيب وفريدريك سيهز رأسه في حبور ويخلع عليه خلعة أو ينعم عليه بجائزة. سيخرس هذا ألسنة البيزاويين إلى الأبد، ويرد اعتباره عند آل بوناتشي، وسيمده بالسلام ليستأنف حياته ويواصل الدرس والكتابة كالعارفين الكبار، أين الحصّار والعبدري منه الآن وما جلس أيهما إلى إمبراطور ولا خليفة؟

فُتح الباب فأطبق فكيه كي لا يثب قلبه من بينهما. أشرف عليه دومينيك بابتسامته الراسخة، يلمح شيئاً من الرجاء فيها الآن. يومئ له ليلحقه. يأخذ ليوناردو بن گويلمو بوناتشي نفساً عميقاً ويدلف بخطوة واحدة واسعة، فإذا هو كالعابر من البرزخ إلى النعيم المقيم.

وأي نعيم هذا الذي يفوح برائحة زبل البهائم؟

ما كاد يستوعب قسمات الجالس على العرش في آخر القاعة حتى راعته الأنياب التي بزغت من حنك شبل الأسد المسترخي على يسار المدخل. حملق في السبع الناشئ الذي لا يقيده قيد للحظة قبل أن تصليه أنظار الإنطاكي بنيران الوعيد. تمالك نفسه وعدّل رأسه مواصلاً التقدم محدقاً في الفراغ أمامه. تعمّد، كما علّموه، تجاهل كل من يغص بهم المكان من الحضرة والخاصة. بما فيهم ذكرُ الطاووس الذي يتمشى ساحباً ذيله الطويل خلفه غير عابئ به ولا بالأسد المتثائب، والرجال الذين اصطفوا وقوفاً عن يمين

وشمال يعرف بعضهم ويعرف أنهم جميعاً يرصدون رفة الجفن منه، والمهرّج الذي يسلي سيده بتقليد وقفاتهم وتعابير وجوههم. تعامل مع ذلك كله كأن الله لم يوجده وركّز حواسه على قدمي الجالس على العرش أمامه وبينهما خطوات راح يقطعها بتؤدة كالماشي على الماء. مهرج الإمبراطور اختاره فصار يمشي إلى جواره متصنعاً ذات الانحناءة وذات النظرة الجاحظة. أحقاً يبدو هكذا؟ ركّز أكثر في الحذائين الإمبراطوريين. أدهشه أنهما قديمان وصغيران. قدما فريدريك أصغر من قدمي إحدى بناته، هكذا فكّر وهو ينزل على ركبته أخيراً ويرخي رأسه منتظراً الإشارة الإمبراطورية كي يعود إنساناً منتصب القامة من جديد.

- انهض!

جاءه الصوت فعاودته القشعريرة. صوت الإمبراطور قوي وعميق، لا يناسب قدميه الدقيقتين حتماً. تزوّد بنفس مفعم بروائح البشر والحيوان ودفع ركبته العليلة واقفاً. عيونه مثبتة بالوجه الملكي لكنهما لا تبصران. صوته يخرج من حلقه بالكلمات التي تدرب عليها طويلاً لكنه لا يسمعه:

- جلالتكم خادمكم ليوناردو البيزاوي رهن أمركم النافذ.

شعرُ الإمبراطور أحمر أجعد. النمش يكسو أنفه وشفته السفلى مشقوقة وكأن أحدهم ضربه عليها. إنه شاب. لكن عينيه مرهقتان ومترعتان بالملل. وبالقسوة كذلك. هذا رجل استمرأ سفك الدم. رأي مثل ذلك في وجوه قطّاع الطرق والقراصنة قبلاً وقد نجّاه الله منهم

مراراً. لكن هذا السفّاح طلبه بالاسم ليناقشه في الجذور والمتتاليات. الإمبراطور قرصان متنوّر والقراصنة ملوك غير متوّجون.

تلاطمت الأفكار في عقله حتى كاد يغشى عليه. لحظة مجده فاضت بثقلها عن حيّز استيعابه فلم يحس بيوحنا الصقلي يتقدم ليعرّف به. أبان الصقلي عن أصله وفصله، ورحلاته وكتاباته وقيمة العلم الذي حصّله. نسي ليوناردو نفسه في اللحظة المتمادية ونسي أن ينزل ناظريه عن وجه الإمبراطور. لا شك في أن دومينيك يوشك أن يقفز عليه ليخنقه أو يقلع عينيه بأصابعه. لا أحد يحدّ النظر إلى الوجه الإمبراطوري مالم يكن البابا أو ملكاً ابن ملك، وها هو ابن الكاتب البيزاوي لا يطرف في مواجهة جلالته. ليوناردو يحدق في البؤبؤين الزرقاوين المخيفين، وفريدريك الثاني المتكئ على مرفقه يبادله النظرات بمثلها، ودِي باليرمو يواصل الكلام الفارغ الذي لا يلقي له أحد بالاً. الأسد عند المدخل يتمطى كهّر عملاق. الطاووس يرفرف ليثب على غصن ممدود فوق كرسي العرش. يوحنا يشرع في تلاوة السؤال السحري الذي لأجله يحصل ما يحصل:

- جِد لنا قيمة عدد مربع لو أضيف له العدد 5، أو طرح منه العدد 5، يكون الناتج..

يضرب فريدريك الثاني على مسند عرشه بقبضته فيسكت الجميع.

يشير بإصبعه الملكية إلى ليوناردو:

- ابنك الأكبر اسمه لوكا. هذا اسم جنوبي وأنت شمالي. كيف ذلك؟

لم ينذر أحد ليوناردو بأن الإمبراطور سيسأل سؤالاً خارج الترتيب. لم يذكر له أحد أن الإمبراطور غير ملزم بأي ترتيب. أي سؤال هذا؟ صبر خمسين عاماً ليصير في عداد العارفين الموقرين، ويأتي الإمبراطور ليسأله عن اسم ابنه؟ أي هراء؟ بم يرد؟ ما قولك يا ثيودور ويا يوحنا وما نص الأدب الملكي والناموس السلطاني في الجواب على هكذا سؤال؟

تكبر دوامة الذعر في معدته وتتصاعد إلى حلقه وأبخرتها الحارقة تؤلم أذنيه.

سخطُ الإله عليكم جميعاً! لم أتحضر لمثل هذا.

العينان الزرقاوان القاسيتان ترصدانه وهو يتخبط ساكناً. يود لو يقتنص التفاتة إلى يوحنا لكنه لا يقوى. وما يصح في حق سؤال غبي كهذا؟ يغلبه عجزه وسخطه ويندلق الرد من بين أسنانه بالقوة التي أودعها الله في لسانه:

- وأنت ألبسكَ بابا روما التاج وفي عسكرك سراسنة يؤذّنون للصلاة. الذي قدر على هذه أقدر على تلك يا صاحب الجلالة.

يكاد يسمع قلوب أفراد الحاشية تنفجر في صدورهم وحلوقهم تنشق بالشهقات المحبوسة. يخيّل إليه أن الأسد من خلفه يتهيأ

للانقضاض عليه بإشارة من سيده الإمبراطور. غير أن العينين الزرقاوين تتسعان أمامه ببطء، والأنف المنمش يتكور. تظهر من تحته أسنان منضدة تنبئ عن صحة جيدة.

ينفجر الإمبراطور فريدريك هوهنشتاوفن في ضحكة مدوية. يضحك كل من في القاعة خضوعاً وحمداً؛ يوحنا ودومينيك وثيودور والمهرّج. ويفرش ذكر الطاووس ذيله في نصف دائرة قطرها الأفق كله، فكأن الكون يحتفل بليوناردو البيزاوي.

***

يستقيم ليوناردو في وقفته أكثر ضاماً كفيه بأدب وقد استقرت الأمور على أصولها أخيراً. قامر برأسه وكسب. ودومينيك لو طالت يده قوساً ونشاباً لرماه. لكن رحمة الرب أدركتهم جميعاً بالرغم من حماقته. الإمبراطور فرغ من نوبة ضحكه وخصّه بخالص اهتمامه، وخادم أتى بقلم فحم ولوح قماش مشدود أقامه خلف ظهر العالم البيزاوي الذي غالب رعشة أطرافه والعيون المتوجسة الناقمة، ملأ رئتيه ثم انطلق:

- يسأل المعلم الموقر يوحنا عن قيمة مربعة لو أضيف لها العدد 5، أو طرح منها العدد 5، يكون الناتج قيمة مربعة. والخوض في أصل السؤال يا مولاي، يستتبع التفكّر في أصل جميع الأعداد المربعة. وقد فكّرتُ، أنا خادمك وتابعك، واكتشفت أنها كلها تنشأ من التوالي التصاعدي للأعداد الفردية؛ لأن مبتدأ العدد، أي الواحد، مربّع بطبعه وهو

كذلك جذر المربع الأول أي 1. ولو جمعنا على هذا الواحد الفردي العدد الفردي الذي يليه، وهو 3، فسنحصل على القيمة المربعة التالية، أي 4، وجذرها كما هو معروف 2. وإذا تمت إضافة العدد الفردي الثالث إلى مجموع سابقيه، وهو 5، ينشأ لنا المربع الثالث وهو 9 وجذره 3؛ وبالتالي ينشأ مجموع أعداد فردية متتابعة، وتسلسلٌ من مربعاتها معاً بترتيب لطيف وتوافق بديع، عكفتُ على دراسته وأفنيت عمري في فهمه فوجدته مفتاح أسرار عددية شتى.

يعرف ليوناردو أنه يستطرد ويتشعب في غير ما لُقنه واتفق عليه، لكنه يندفع بحرارة اليقين، وشراع مركبه تدفعه هبة من خفة يحسها في روحه ومنطقه:

- وبالتالي نقول؛ إن ناتجيّ المجاميع 1 زائداً 3 زائداً 5 زائداً 7 ويساوي 16، و 1 زائداً 3 زائداً 5 زائداً 7 زائداً 9 ويساوي 25، كلاهما ناتجان مربعان. وأذكّر جلالتكم بكل الخضوع، بأننا قد أضفنا المربع 9 إلى المجموع الأول للحصول على المجموع الثاني، أي أن 16 زائداً 9 يساوي 25 كمجموع مربعين يعطيان مربعاً ثالثاً. وفي الواقع، يمكننا استخدام أي مربع فردي بدلاً من 9 لفعل الشيء نفسه. فعلى سبيل المثال، باستخدام 49، لدينا 1 زائداً 3 زائداً كل الأعداد الفردية إلى 47 يساوي 576، و 1 زائداً 3 زائداً كل الأعداد الفردية التالية زائداً 47 زائداً 49 يساوي 625، أو بكلام آخر

576 زائداً 49 يساوي الناتج 625 هو عدد مربع ليس إلا مجموع متواليات فردية من نفس النمط.

يسكت ليلتقط نفسه، وليتأكد من أنه لا يهذي وحده. يتجرأ ويرسل نظرة مستفسرة إلى العينين الإمبراطوريتين فيأتيه الرد الواثق:

- واصِل.

يبتلع ريقه:

- ومن نافلة القول، جلالتكم، أن مجموع القيمتين النهائيتين أو أكثر من هذه الأرقام الفردية يساوي أيضًا مربعًا. فعلى سبيل المثال، يمكن تقسيم عددٍ مربع زوجي إلى أرقام فردية متتالية. فنحوّل المربع 36 مثلاً إلى 17 زائداً 19. وحيث أن المجموع الأعداد الفردية 1 زائداً 3 إلى 15 يعطينا 64 وهي قيمة مربعة، و 1 زائداً 3 وهكذا إلى 19 يعطينا 100، فنقول أن 64 زائداً 36 يساوي 100 وهي قيمة مربعة كذلك. أي أننا أبدلنا القيمتين المربعتين الزوجيتين مكان مجاميع المتسلسلات الفردية لنحصل على ذات القيمة النهائية، ألا وهي 100، وهي بطبيعة الحال قيمة مربعة.

- واضح.

يرقص قلب ليوناردو مع إيغاله في حل المسألة، منتشياً بثقته بنفسه في حضرة فريدريك، ومندهشاً من قدرة العاهل الشاب على مجاراته في فهمه. ولأن كان هذا الجالس قبالته على العرش

العالي متلقباً بالأعجوبة، فإن ما يجري الساعة بينهما هو أعجوبة الأعاجيب. لا يكاد يصدق أنه طرف في ذلك. يحرف العُجب فكره عن مساق الحل لبرهة، لكن الرمحين الأزرقين في الوجه الملكي يستحثانه.

- وهكذا يا سيدي، ففي مسعاي لإيجاد ثلاثة مربعات بحيث يكون مجموع الأول والثاني وكذلك جميع الأرقام الثلاثة أرقامًا مربعة، فإني سآخذ قيمتين مربعتين ولتكونا 9 و 16، وما اخترتهما عبثاً حاشا فهمك فحاصل جمعهما هو 25 وهو مربع الـ 5 التي هي في أصل المسألة. وسآخذ المربع الذي هو مجموع جميع الأرقام الفردية التي تسبق 25، أي المربع 144، حيث يكون الجذر هو المتوسط بين الطرفين من سلسال الأرقام الفردية، وهما 1 و23. ومن جمع 144 و25 نتحصل على الرقم المربع 169. وهكذا تم لنا العثور على ثلاثة أرقام مربعة يكون مجموع الأولين والثلاثة معا أرقامًا مربعة.

يعتدل فريدريك في جلسته، يرجو ليوناردو ألا تكون هذه بادرة تململ. لكنه يواصل برباطة جأش. تنهمر الأفكار من عقله ويجهد لسانه ليدركها ويترجمها إلى ألفاظ. يحس بعضلات ذراعه ترتجف وأصابعه تتشنج وهي تقبض على قطعة الفحم لتكتب على اللوح فتلحق بمنطقه وتترجم ما يتجلى لبصيرته رموزاً تبصرها أعين الإمبراطور وحاشيته.

يكتب ويكتب ويسهب في شرحه إلى أن يجد نفسه يصيح بظفر:

- فيكون ناتج الكسر 41 على 12 إذا ربعناه وزدنا عليه خمسة قيمة مربعة. وناتج الكسر 41 على 12 إذا ربعناه وأنقصنا منه خمسة قيمة مربعة كذلك.. يا مولاي.

يسكَت ليوناردو أخيراً ويحبس أنفاسه ترقباً. لا تنبئ القسمات الإمبراطورية عمّا يعتمل وراءها. ما سيقال تالياً سيكون خاتمة عمره أو مستفتح عمر جديد. يراوح يوحنا مكانه ويكاد دومينيك يلحق به. كان عليه أن ينطق بكلمتين في مديح ليوناردو ويهنئه ليفسح المجال لصاحب الجلالة الإمبراطورية كي يكافئه ويكافئهما. لكن فريدريك لا يخضع لأي مُفترض، بل يشكّل حظوظ رعيته كما يحلو له. وجهه كأنه قُدّ من رخام وبصره لا يحيد عن الرياضي البيزاوي. الرجفة في أوصال ليوناردو تزيد وقطرات العرق تتكور على أنفه وتنساب من جسده إلى ثيابه الفاخرة.

ليعرّينه فريدريك ويصلبنه في ساحة بيزا لو لم يرُق له ما جاء به.

بعد صمت كأنه دام دهراً يمد الإمبراطور الشاب إصبعاً ويشير في اتكاءته إلى اللوح المسوّد:

- ما هذا الذي كتبت؟

يستدير ليوناردو ليعاين حلّه بعينين متقلبتين. صحيح لا تشوبه شائبة. لكن من يقنع الإمبراطور؟ يبتلع ريقه ويأتي الصوت من حلقه الجاف خشناً مبحوحاً:

- هذا الحل الذي قدمتّ لكم يا صاحب الجلالة.

- أسألك عن هذه الرموز والرسوم.

تضرب عاصفة من جليد ظهره. لا تفتأ هذه الرموز العشرة ترتد عليه بالشك والهزء ولا فكاك له منها فهي أساس مبنى علمه ولا يجيد شيئاً بدونها. قساوسة الكنيسة فسّقوه لأجلها وأنصاف العارفين الذين ابتلي بهم أنكروا عليه تبنيها. والآن يجد نفسه واقعاً في الشرك الإمبراطوري بسببها.

- هذه يا سيدي، أرقام إنما على المذهب العربي أخذوها عن الهنود وأنا طبقتها في حساباتي.

يقترب فريدريك بجذعه ويحد البصر إلى المكتوب أكثر. يتملى في اللوح طويلاً ولا يجرؤ أحد على قطع تركيزه.

- قد حدثني مايكل سكوت عنها. وكذلك فعل دومينيك. الرموز التسعة ورمز اللاشيء المفرغ، الذي أسميته «زيفِر». يبدو الحساب هكذا أيسر.

يتفاجأ ليوناردو بصوت الأسقف أورسيني من بين الجمع:

- ما الذي تقول يا صاحب الجلالة؟

لا يعيره الإمبراطور اهتماماً. بل يتوجه بالأمر إلى ليوناردو:

- اكتب على اللوح، بالطريق القديمة: ثلاثة آلاف وثمانمئة وعشرون.

يتناول الفحمة بأصابع خائرة ويخط:

MMMDCCCXX

- والآن اكتبها برموزك.

يخط ليوناردو:

3820

تنفرش ابتسامة على شفتي فريدريك:

- ترون؟ تفكّروا في صعوبة الجمع والطرح والضرب على النسق القديم. البيزاوي أبان في كتابه كيف يصير ذلك أسهل وأيسر بالطريقة العربية. وهو أوفر لحبرك وورقك يا أورسيني.

يصفق فريدريك الثاني بكفيه مهنئاً ويتبعه كل الحضور في حاشيته. الرعدة في ظهر ليوناردو تعصف بكامل جسده. يلتفت ليقابل استحسانهم بسحنة أليق بالموتى. يلمح وجه أورسيني محتقناً منتفخاً كالعجينة المتخمرة.

يرفع فريدريك يد القدر التي في نهاية ذراعه ليسكتهم ويعلن بعربية صريحة:

- أحسنت يا بيزاوي. تستحق منا غاية الإكرام. نجتمع بك من الغد إن كان لنا ولك عمر.

*

(٨)

لم يدرِ إن كان أذان فجرٍ أم عشاء الذي أيقظه. لكن ليوناردو اعتدل جالساً على فراشه. سعل فدخل عليه حارسه وأضاء السراج. أزعجه الوهج للحظة فأغلق جفنيه وأحس بجلد وجهه المتغضن يستيقظ ببطء، وبدماغه كذلك.

الحارس ذو السيماء العربية لا يكلمه ولا يرد عليه. طلب أن يقضي حاجته فرافقه إلى بيت الخلاء. الجدران والأرضيات الخشبية تتمسك بالروائح والرطوبة. شيء لا يليق بزريبة أبقار فضلاً عن قصر إمبراطور. لكن ذلك كان أهون همومه. عاد إلى حجرته والفتى الأسمر يتبعه كظله الممتد على الممرات الخاوية. لا صوت إلا صوت خطواتهما التي يضخمها صرير الألواح الخشبية والدبيب عبر كامل الهيكل الشجري للمبنى.

طلب طعاماً فانصرف الحارس لينفذ. جلس على الحشية محاولاً تمالك خوفه. مرّت ليلتان واليوم الثالث سيحلّ متى ما طلعت الشمس. ظن في البدء أنه ضيف الإمبراطور فإذا هو أسيره! قال

فريدريك أنه سيقابله من الغد لكنه أهمله. أتراه نسيه؟ أو أن أورسيني نفث في صدره عليه فبدّل رأيه؟ وبأية تهمة يعاقبه؟ لقد أضحكه مرتين وحل له مسألته. ونظرات دومينيك وثيودور أكدت له أنه حاز كامل الرضى. حسب أنه سيعود إلى داره ليحتفل مع صوفيا والأولاد فإذا بجنديين يصطحبانه، رغماً عنه، وإن لم يبد أية مقاومة، إلى هذه الحجرة الضيقة.

أعاد تأملها للمرة الألف. تكفي بالكاد للفراش الذي بات مستقره ومرقده. الملابس التي عليه انتنت حتى تصالح أنفه مع خبثها. لكن الملل يمزق روحه. لا شيء لديه البتة. والنافذة الصغيرة لا تطل على مشهد جدير بالفرجة. حاول استجواب الحارس الفتيّ لكنه لقي منه الإعراض ففهم. كاد يدق الباب والحوائط بقبضته محدثاً جلبة ومهدداً. بأي شيء؟ لا شك أن في الأمر خطأ. لكنه يُعامل باحترام ويُطعم جيداً. أهذه هي خاتمة مصاحبة الملوك؟

تعب من التفكير في الأمر بلا طائل. قرر أن ينام وقد استيقظ تواً. لكنه ما كاد يتمدد حتى فُتح باب الحجرة. ظن سجّانه الصامت عاد بالأكل، إلا أن ضوء السراج وقع على وجه أحمر حفره الجدري وتبعثر حوله شعر أبيض كالقطن. انتصب ليوناردو واقفاً والفرحة بالقادم الجديد تفوق خوفه منه، أما الرجل فما كاد يخطو داخلاً حتى تراجع وغطى أنفه بكمّه. ذاب ليوناردو حرجاً فيما زائره المجهول يعبر عن انزعاجه بصريح القول والإشارة:

- ليحفظنا الله! هل تخبئ جثة عندك يا رجل؟

لم يعرف بم يجيب. غلبه الامتهان وأراد ان يحتج ويلوم من أمر بحبسه لكنه آثر الصمت مؤملاً في أن يأتيه الفرج والإيضاح من ذي الوجه الأحمر الذي صاح:

- محمود! نظف هذا المكان فوراً. وأحضر للسيد ثياباً جديدة من خزانتي.

- اسمه محمود إذن؟

التفت إليه منقذه بتعبير دهشة جديد ثم ابتسم مواسياً:

- تقبل شديد أسفي. يبدو أنهم أساؤوا الفهم. ما كان ينبغي أن تحجر هكذا. اعذر محموداً فإن هو إلا مكلّف مأمور.

ثم مدّ يداً مصافحة:

- أنا مايكل سكوت؛ منجّم الإمبراطور وفيلسوف البلاط.

- حدثني عنك ثيودور.

- لا عليك منه فهو مجرد أفّاق نسطوري!

قرّب فانوسه من وجه ليوناردو حتى غمره بحرارة الشعلة وبرائحة أنفاس حاملها. كلام الاسكتلندي كهذيان المخابيل أو تهويمات المتصوفة:

- ملامحك أقرب للماعز. ما يعني أنك رخو في أصل طباعك. لكنك عنيد وقنوع كذلك.

مقاوماً حيرته والسطوع الذي غشي عينيه، تبعه خارج حجرته

أخيراً بدون رفقة الحارس الكئيبة، ونزولاً عبر السلالم التي صعدها أول مرة قبل يومين. الاسكتلندي يغذ السير فاراً من وخمه أو أنه سريع الخطوة بطبعه. قابلهما مزيد حرس أفسحوا المجال لهما باحترام ظاهر. صارا خارج القصر أخيراً وعبّ ليوناردو هواء الغابة بسعادة. تمطى فطقطقت عظام جسده الخمسيني. استدار وتأمل المدينة الغافية خلف أسوارها العالية التي تنعكس عليها نيران المشاعل. تبخر همه دفعة واحدة فكأن الليالي الفائتة كابوس عابر. التفت الآن إلى منقذه؛ مايكل سكوت. سمع عنه وها هو يقابله أخيراً في أغرب ظرف ممكن. حريته المستردّة جددت دماءه وأبدلت تردده جرأة. أراد أن يسأل أو يلوم على مرافقه إلا أن بوابة القصر تمخضت عن مزيد خدم. فرشوا سماطاً على الأرض العشبية وجاؤوا لهما بالزاد.

جلس مايكل وأشار له:

- تفضل. تدرك أن غرفة واحدة لا يمكن أن تجمعني بك وحالك هكذا. لكن لا تقلق فغداً يعود الإمبراطور ونشاركه الحمّام.

بهت للحظة للجملة المبهمة:

- يعود؟

- جلالته خرج للصيد من يومين.

- صيد؟

حدق فيه مايكل:

- يقولون أنك ذكي ومتعلم لكن يظهر أنك شديد البلادة.

تقلص وجهه ولاحظ محدثه ذلك فاستدرك:

- جلالته أمهر صقّار. ولعلك رأيت اهتمامه بجمع النادر من الوحوش.

- رأيت أسوداً وفيلة وزرافات في موكبه.

- وتعرف الناقة المرقطة؟ متى شاهدتها قبلاً؟

- سمعت عنها حين أقمت بمصر فترة لكن لم أرها قبلاً.

- الزرافتان هدية لجلالته من سلطان مصر.

- هدية؟

- عدنا إلى التغابي ثانية؟

- لا أسمح لك بإهانتي أكثر من ذلك!

سكت مايكل. انشغلا بالأكل وتأمل ظلمة الغابة حولهما. فرغا فصب له قدحاً من شراب رمان مثلج وناوله مستأنفاً:

- أنا أثرثر لأسليك. سمعت عنك أشياء طيبة.

- كلهم يقولون ذلك في البدء. لكن ما أرى غير ما أسمع.

- كيف ذلك؟ فريدريك سعيد بك جداً.

- لم حبسني إذن؟

يتنهد مايكل سكوت ويوضح بعد أن يجرع نصف قدحه:

- اسمع يا ليوناردو بيزانو. في حضرة الملوك الكل عبيد ولا حرية لك إلا في نفَس الهواء الذي تسحبه. يجب أن تعتاد على ذلك وقد كُتب عليك أن تصير في بطانته. جلالته أمر بلقائك ثم عنّ له أن ينطلق في رحلة صيد ففعل. أتراهم يتركونك تمضي حيثما شئت ثم إذا طلبك لم يجدك؟ ذلك لا يصح.

- ويصح أن أترك لمخاوفي ووحدتي ليومين.

- ويصح ما هو أفدح من ذلك. من دنا من الشمس صبر على الإحراق. والبعض دفع حياته ثمناً لجاه الصحبة الملكية. الآن عرفت لم ترفّع عنها النسّاك والكلبيون. تعرف قصة ديوجينيس والإسكندر؟

- أعرف الثاني فقط.

- لديّ الكثير لأعلمك إذن. ألك في الفلسفة والحكمة؟

- عشتُ ما يكفي لأعرف أن الحكمة هي النظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان.

- هذا كلام ابن رشد. لك في حكمة أرسطو؟ هو خصمك اليوم.

- أنت ترهقني وتربكني. ما عرّفك بابن رشد وما شأني بأرسطو؟

يضحك مايكل سكوت:

- أرى أن دومينيك والإنطاكي لم يعدّاك لما سيستقبلك جيداً. لكن لا عليك. مايكل الاسكتلندي في خدمتك.

- ولا أعرف أين اسكتلندا هذه.

- لا أصدق! قالوا لي أنك طفت العالم حتى لقبوك ببيگولو.

- هذا لقب متعدد الوجوه. لم أزر اسكتلنداك.

- إنها في طرف جزيرة في آخر الشمال. بعيدة بُعد الشمس عن الأرض وشمسها باردة وأرضها عالية حتى أن غيومها تمر عند رجليك. الأقدمون عدّوها خارج العالم المعروف وبنوا بينهم وبينها سوراً.

- مدهش. وما الذي أتي بك من الطرف المتوحش للعالم؟

- إن كنت تقصد إهانتي فعليك بذل جهد أكبر. هذا الاسكتلندي الذي لا يعجبك هو مؤتمن موثوق عند جلالة الإمبراطور. وإن ظننت أنك نسيج وحدك ففكر مرتين.

- قالها لي دومينيك.

- نعم الإسباني. هو الآخر مغرور معتد بنفسه بلا سبب واضح. كل الإسبان كذلك وماهم إلا فضلة علم الأندلسيين.

- وتعرف الأندلسيين؟

تمطت شفتا الاسكتلندي في ابتسامة واسعة. تضاعفت دهشة ليوناردو منه لما تحوّل إلى العربية:

- أخوك تعلم في طليطلة. درستُ كتابات البطروجي ونقلت بعضها إلى اللاتينية.

- أبو إسحق! أعرفه وقد جمعتني به المجالس في إشبيلية. كان ذلك من سنين طوال.

- أرأيت أن ما يجمعنا أكثر مما تحسب؟ أنت اشتغلت في الحسابيات وأنا في علم الكلام. وكلها من علم الله.

- ما أحسن كلامك! ذكرتني بيهودي قابلته إذّاك كان لي نعم الناصح.

- اذكر ذلك عند الإنبرور فهو مطلع على ما دوّنه موسى بن ميمون وحقيق بذلك أن يرفع من قدرك عنده.

يغلق ليوناردو عينيه وقد تكاثرت عليه الفجآت. لكأن حياته بمجملها صفحتان ما بينهما بياض وافر. ما أشبه لياليه الأندلسية الغابرة بهذه الأمسية عند أسوار بيزا. ذات الأسماء والحوارات وإن اختلفت الوجوه وتقلصت فسحة العمر. وهذا الآتي من حيث لا يعلم إلا الله، يحدثه عن ابن رشد وقد كان يتحاشى ذكره في حلق بجاية قبل أربعين عاماً. أحقاً مرّت أربعون عاماً على تلك الذكرى؟!

- أين صرت؟

- أفكر في هذه الدنيا وتقلبها. قبل أشهر ظننتني استنفدت حظي من الدنيا، واليوم تكرّ عليّ بما عرفتُ وما جهلت فكأني صبي يتلقى كل شيء لأول مرة.

- لا تنس أنك في حمى أعجوبة الدنيا.

- صدق من أسماه كذلك. ولو حلفوا لي بأني أسمع بالبطروجي في بيزا وقد شِخت ووهن العظم مني لما صدّقت.

- لعله مات. انقطعت عني أخبار تلك الرفقة. ولعل شمسهم غابت لتبزغ شمسنا.

- ما أكثر ما يلتبس علي من حديثك.

يبصق مايكل بذر البطيخ بين كلامه:

- فريدريك يطمح أن يكون له شأن كشأن جده روجر، ومجلس كمجالس الخلفاء ببغداد من قبل، وكمجلس المنصور في مراكش وقد اجتمع يوماً بين يديه ابن الطفيل وابن عربي وابن رشد.

- ويصير مثل ذلك هنا؟ لا يرضى الناس بمثل ذلك. ولا ترضى به القساوسة والرهبان.

- اذكر ذلك عني. واعرف أن فريدريك يمقت من ذكرت ويكرههم كما يكره الثعلب كلب الصياد. حتى عرّضوا به عند هونريوس فجعلوه الدجّال الذي يظهر في آخر الزمان وأسموه «السلطان المعمّد» لعظم تعلقه بالمسلمين وأدبهم.

ابتلع ليوناردو ريقه. لا يعرف ما يخيفه أكثر؛ هذا الرجل الذي يصرح بأفكاره جهراً ويذكر الإمبراطور والبابا باسميهما مجردين، أم فحوى الكلام الذي يقوله. تلفت حوله رغماً عنه:

- ويلك ما تقول؟ لو سمعك أحد لصلبك في موضعك.

- لترين في صحبة فريدريك ما يحيّر حلمك. ألم يجمعني وإياك تحت جناحه؟ وفينا النسطوري والمسلم واليهودي كغلام يجمع فراشات ملونة. وتشدقه بلسان العرب وجعلهم في خاصة جنده. أتظن البابا غافلاً عنه، أو أن فريدريك يعبأ به وقد استقوى وتمكن في ملكه؟ ما حفاوته بك إلا كيدٌ لهم.

- يكيدهم بي أنا؟

- سترى وستعرف فتهيأ.

- أخفتني يا ميكائيل. كنت فرحت بما أنا مقدم عليه وظننت الدنيا أقبلت عليّ عقب إعراض والآن ندمت. لعلي كنت في نعمة خفيت عني حتى الساعة؟

يعبث مايكل الاسكتلندي بالعشب الندي تحت يده ثم يقول:

- مما سمعت في طليطلة أن خليفة من الخلفاء سأل وزيره يوماً أي الناس أسعد؟ الوزير المنافق قال: السعيد من رضيت عنه يا أمير المؤمنين. قال الخليفة: بل السعيد من لم يدرِ عنّا ولا درينا عنه.

***

ودّ ليوناردو لو تنشق الأرض وتبتلعه. لكن ما باليد حيلة ولا مفر من إطاعة صاحب الأمر والنهي. وكيف يتمرد وفريدريك

بذاته متجرد من ثيابه يتقلب في الماء عارياً كما ولدته أمه، ومعه حرسه ورجال بلاطه على ذات الحال. تبع جلالته كل من مايكل سكوت ودومنيك وانكبا على طقس الاغتسال العجيب. نحو من مئة رجل خاضوا كقطيع بُهم في نهر الآرنو ليتنظفوا من وعثاء الصيد بأمر من فريدريك الذي هتف منتصباً بوقفته المريعة متخصّراً فيما العبيد يفركون جسده المنمش بالصابون الشامي:

- تنظفوا من أدرانكم فهذا أصح لأبدانكم وأطول لأعماركم. أحدكم يخجل من إظهار ما لا يُجهل فيه، ولا يخجل من نتن ريحه والقمل الذي يرعى في جسده، ثم تعجبون إن اجتاحكم الطاعون وتفسخت جلودكم؟

تعمّق ليوناردو ليستر نصفه السفلي بالماء. تذكّر حمامات القسطنطينية والقاهرة. وتذكّر أنه لم يستحم بحق منذ عام. لكن ذلك عُرف القوم هنا وما كانوا يتجردون عياناً كالدواب هناك. خذلته عيناه اللتان مسحتا المشهد رغماً عنه لتتأكدا من الواقعة وتوثقا عموم الفضيحة. الكل يتشاغل بالفرك والدعك منصرفاً عن سواه وكأنه في خلوة داره. أيغشاهم العار مثلما يغشاه؟ مايكل ابتسم له وقذف إليه بمكعب صابون تفلت من بين أصابعه إلى قاع النهر. سبّ في سرّه وأدار ظهره له. أكان يعرف بأمر هذا الحمّام العلني وهو ينصحه بتهيئة قلبه؟ وإصراره على خروجهما لاستقبال موكب الصيد الإمبراطوري هذا الصباح، أكان مقصوداً ليرغمه على هذا التطهر الفاضح؟

أوغل في أفكاره وحرجه ولم يفق لنفسه إلا محملقاً في قفا فريدريك الذي يتوهج تحت شمس الظهيرة. انتابه الهلع فرمى بجسده في النهر غائصاً عن كل شيء. أما الإمبراطور الشاب فواصل الاستمتاع بالرغوة الصابونية مبتسماً لجمع فلاحات جئن لغسل أرديتهن على الضفة المقابلة، قبل أن يهرعن منسحبات حين لوّح لهن مرحّباً.

سرعان ما تجفف جلالته وتستّر فتبعته رعيته وفي جملتهم ليوناردو. قرر أن ينسى ما حصل مغتماً لاحتمال تكراره. اسود وجهه وثيودور الذي شاركه الموقف المخزي قبل برهة يقترب منه محيياً. لكن الإنطاكي همس في أذنه:

- كن بقربي واتبع قيادي.

أدار له ظهره وانصرف قبل أن يتسنى لليوناردو أن يستفسر مستوضحاً. لكنه انصاع للأمر مهرولاً خلفه فيما الاسكتلندي يشيعهما متشككاً.

هكذا وجد نفسه ضمن الحاشية الإمبراطورية مجدداً في قاعة العرش. الشبل والطاووس اختفيا. لكن أورسيني وكامل الطاقم الكنسي كانوا حاضرين وفي وجوههم الشر.

بملامح مشعة بالشباب وجسد فائح بالعطر. اعتدل فريدريك على عرشه وأشار لأورسيني، ثم لليوناردو ليقف جوار الأسقف الذي غالب مفاجأته وترفع عن الالتفات إلى خصمه والإمبراطور يسأل:

- يقولون أن لديك ما يهمنا يا أورسيني، بشأن ما عرضه ليوناردو بين يدينا قبل أيام.

يشهق الأسقف عميقاً قبل أن يزفر بالكلام:

- صحيح جلالتكم. لكن قبل ذلك، فإني أبدي رفضي لما وقع هذا النهار منكم ومن حاشيتكم من مشهد لا يليق. لا يليق ولا يصح من أي مسيحي ورع. هذا لا يرضي الرب!

سكت الكل وفريدريك يُصلي أورسيني بنظرات صامتة. فكّر ليوناردو وهو يقاوم رجفته أن هذه حال لا تطاق ولا يمكن أن تستمر حياته على هذا المنوال. رفقة هذا الإمبراطور مقصرة للعمر فكل ما يصدر عنه عجيب مخيف منذر بانتقام وشيك. كيف وجد أورسيني الجرأة لمعاتبته هكذا؟ أشفق على الأسقف متخيلاً إياه يعاني ولا شك خوفاً يفوق خوفه.

أطرق فريدريك وعبث بشعيرات ذقنه قبل أن يتكلم:

- هل حملت السيف في سبيل الرب قبلاً، يا نيافة الأسقف؟

- مولاي؟

- الحرب!

صاح فريدريك بالكلمة فانتفض أورسيني وليوناردو رغماً عنهما بينما واصل فريدريك وعيناه تبرزان مع كل كلمة:

- هل حاربت قبلاً؟ حملت سيفاً وشققت به صدر عدوك، في سبيل الله أو في سبيل الشيطان؟

ازدرد أورسيني ريقه قبل أن يجاوب بكلمة مخنوقة:

- لا.

ضرب فريدريك على كرسيه:

- أنا جلست على هذا الكرسي بأمر من قداسة البابا، وتُوجت إمبراطوراً بيديه وحاربت نصف أوروبا في سبيل ذلك، وتعهدت له بالمقابل بمناجزة أعداء الصليب والسير بحملة لاستعادة أرض مملكة الرب، ولعلي آخذك معي لترى بعنيك هوائل الحرب وما يفعله المسيحي الورع لينال رضى الرب باسم الصليب وبأمر البابا الذي نصبني ونصّبك.

نقل ليوناردو نظره بين الوجهين الكظيمين. تمالك أورسيني نفسه سريعاً وردّ:

- أتطلع لذلك جلالتكم. وأدعو الرب لأن يبارك مسعاكم، وإن كان ما يجري في بلاطكم مخالفاً في بعضه للنهج المسيحي القويم.

لفظ عبارته الأخيرة وهو يستدير بجسده جهة ليوناردو الذي انخطف لونه:

- أسلوب الجواب الذي قدمه بوناتشي لكم قبل أيام، فيه مخالفة صريحة لروح الكتاب المقدس ونصه. ومخالفة لتعريف العالم كما أقرته الكنيسة وكما استقر عليه العقل المؤمن. إن ما جاء به ليوناردو بوناتشي، من خرافات السراسنة وهرطقاتهم،

فيه تجديف يوازي الكفر.

هبط قلب ليوناردو وفريدريك يسأل:

- تقصد الأرقام العربية؟

هز الأسقف رأسه موافقاً ثم أضاف بغلّ خالص:

- ورسم الخواء المزعوم.

- تقصد الزيفر.

- نعم جلالتكم. زندقة حقيقية.

ارتسمت ابتسامة متهكمة على شفتي فريدريك. ظن ليوناردو أنه سيُسكت أورسيني وينتصر له. لكنه أحس بشعر رأسه يزيد شيباً والإمبراطور الشاب يقول:

- اشرح أكثر يا صاحب النيافة. نوّر افهامنا.

انتفش أورسيني بالثقة، وسمح لنفسه بأن يولي ظهره للإمبراطور محدثاً الجمع:

- ما حاجتنا لرموز وأساليب مستجلبة من أعدائنا، الموغلة قلوبهم في سواد الكفر؟ ألا يكفينا ما نحن فيه من ذل الهزيمة وقد حِدنا عن درب الراعي المقدس؟ خسرنا أورشليم، ما استردها ريكاردو الإنكليزي ولا جدّكم فريدريك الأول. ثم يأتي بوناتشي بما يناقض أزلية وجود الرب. إننا نستحق نقمته والحال كذلك.

عينا ليوناردو تتقافزان بين الوجوه بحثاً عن نجدة. ورقبة فريدريك تشرئب في اهتمام. بينما صوت أورسيني يعلو أكثر:

- الله أزلي أبدي سرمدي. دائم الوجود لا أول له ولا آخر. هكذا الفهم المسيحي. وهكذا الفهم القديم للعالم كما جاء به أرسطو الذي رفض مبدأ الفراغ. العالم إما موجود أو معدوم. قائم بأمر الله أو زائل. لا يجتمع الحالان.

قاطعه فريدريك:

- لكن أرسطو لم يكن مسيحياً. ولا يجب على المرء أن ينقاد لرأي أرسطو كالأعمى بل عليه أن يتأكد منه بالعلم والبرهان.

يرفع أورسيني ذراعيه وكأنه يتقي غضبة السماء:

- البرهان هو الله! وجود الله منافٍ للعدم. فإن سلمنا بكينونة العدم. بأن الكون كان «صفراً» ولو للحظة واحدة من لحظات الوجود، فأين كان الله؟ غير موجود؟ غائب؟ ترك العالم لسلطة الشيطان؟ إنه زعم يفوح بكبريت جهنم. إما ذات الإله أو العدم، إما عناية الرب أو ظهور الدجّال، لا يجتمعان.

- كلامٌ كله حكمة. ما ردّك يا بوناتشي؟

كان شحوب ليوناردو كافياً كجواب. عيناه الزائغتان وحلقه الجاف منعاه من الإتيان بأي رد نافع. لقد أجاد أورسيني لفّ

الأنشوطة حول عنقه. قلبه يختلج لكن أطرافه باردة والدم انحبس عن عقله فشُلّ تفكيره. صدق مايكل سكوت؛ من قارب الشمس احترق. لكن أين البقية من الملأ؟ ألم يضمن له دومينيك بأنهم لن يسمحوا له بالفشل؟ أي شيء يكون هذا العار الذي يُغمر فيه غمراً؟ طلب التمكين عند إمبراطور العرش الروماني وها هو يواجه الحرق بتهمة الكفر الصراح. وما شأن الحساب والأرثماطيقي بوجود الله؟ تذكر كلام خاله القديم: أليس الرب هو المهندس الأعظم، والمختارون من خلقه وحدهم يبصرون ذلك؟ أيكون أورسيني من المختارين فيما هو من الراسفين في الضلال؟ ضاع سعي عمره بكلمتين من اللعين أرسطو؟

طال عجزه عن الكلام فكشّر الأسقف منتصراً. لمَ يكرهه إلى هذا الحد؟ ألأنه خالط المسلمين وما وجدهم غارقين في ظلمة ولا أرباب شعوذة؟ لسعته حرارة السؤال. ذلك بالذات ما ينقده عليه أورسيني. الفسطاطان منفصلان ولا سبيل إلى ضمهما. إما هؤلاء أو أولئك. الله أو الشيطان. وجماعته استأثروا بجانب الله. أما هو فمسيحي ملوّث؟

يستعجل أورسيني الإجهاز عليه:

- أرى أن سفير جهنم قد أسقط في يده.

ما كاد يوقن بهلاكه حتى بلغ سمعه حفيفُ ثياب خشنة. رفع رأسه فإذا بثيودور يتقدم ليقف إلى جواره:

- أتسمحون لي جلالتكم؟

حرك فريدريك إصبعه موافقاً فتكلم فيلسوفه الإنطاكي:

- ما تفضل به نيافة أسقف بيزا صحيح في ظاهره، لكنه يحمل في نواته معضلة لو فككناها لتبدت لنا هرطقة من نوع مغاير.

تدورت عينا أورسيني:

- كيف تجرؤ؟

لكن فريدريك أوقفه بغمزة ليتابع ثيودور:

- الصفر، كعدد وقيمة موجود شئنا أم أبينا. ولو تفضّلتم جلالتكم وصادرتم كامل أموال نيافة الأسقف، لاقتنع بلا شك بأن الصفر الحسابي حقيقي لا شك فيه.

يضحك فريدريك. رأس أورسيني صار كأنه ثمرة شمندر أرجوانية. يفحّ بغضبه:

- هذه الضلالات أهلكت أمماً ممن تمادوا فيها حتى استحوذ عليهم الشيطان بالكلية.

هدأه فريدريك:

- مهلاً يا أورسيني. لا ينجس النهر بالبولة العابرة. وقد كنا في مثل ذلك من كلام المتفلسفين قبل أيام يا ثيودور.

يحني الإنطاكي عنقه مهنئاً سيده على حُسن الاستدلال:

- هو ما قلتم جلالتكم. ولعلكم تشيرون إلى قول ابن رشد في

تشبيهه من منع النظر في كتب الحكمة بزعم أن قوماً ضلّوا بنظرهم فيها، بمثل من منع العطشان من شرب الماء حتى مات لأن قوماً شرقوا به فماتوا.

اصطفق خدا أورسيني ذهولاً. إمبراطوره يستشهد بالكفرة في خضم الجدال. أحس ليوناردو بالروح تعود إليه رويداً قبل أن تنسحب مجدداً وثيودور يواصل:

- لكن كيف يجتمع تحقق الصفر العدمي مع سرمدية الذات العلية على ما ذكر نيافة الأسقف؟ هذه معضلة قديمة تكلم فيها المتكلمون وينافي منطقها الإقرار بوجود القيمة الصفرية في الحساب. وأتفق مع نيافته على ذلك.

صاح أورسيني مستعجلاً:

- لا بد من استتابة بوناتشي ومعاقبته.

بالرغم من أن مصيره كان في تلك اللحظة على المحك، إلا أن ليوناردو تعجب من الإثارة التي تلمع في عيني فريدريك. العرض كله يسلّيه ويمتعه، وكأنها مناقرة ديكة لا يهم أيها ينفق.

استطرد ثيودور:

- صبراً يا صاحب النيافة. الصفر موجود، والله موجود. ولا يستعصي إيجاد العدم عليه وهو قد أوجد الشيطان من أصل النار وأوجد الكون من أصل النور.

تململ أورسيني في وقفته وعارض:

- ما الذي تقوله؟ أرى أن فكرك قد التاث بكلام السراسنة وقد نشأت بينهم وجئتنا من أرض ظلماتهم.

- إنما جاء المسيح من تلك الديار وبها صُلب، فلا تتهور في اتهامك يا صاحب النيافة.

علت ضحكة فريدريك مرة ثانية.

- أيعجز الرب عن خلق صخرة لا يقدر على حملها؟

رمى ثيودور بسؤاله فبهت أورسيني. أما فريدريك فبانت أسنانه جذلاً. لُغد أورسيني ترجرج وهو يتلفت حوله محتجاً:

- ما هذا السؤال الكفري؟ ما الذي يخرف به فيلسوف بلاطكم يا صاحب الجلالة؟

وكأن تغلب ثيودور استفز مايكل سكوت، فتقدم بلا استئذان مقحماً نفسه في الجدل:

- بل السؤال في صميم منطقك يا أورسيني. جاوب لكن حاذر وإلا انقلبت حجتك عليك.

- يا جلالة الإمبراطور قد تفلّت عليّ أتباعكم!

- إن أنت إلا تابع مثلهم فانتبه.

خرس أورسيني وقد جمدت عقله كلمات فريدريك ونبرته. استغل مايكل اللحظة وقال مخاطباً كل من بالمجلس:

- لو قلتَ أن الرب القدير يعجز عن خلق مثل تلك الصخرة

فقد نفيتَ قدرته المطلقة. وإن أقررت بإمكانية ذلك فخالقها حقيق بأن يخلق كل شيء سواها.

*

(٩)

باليرمو، صقلية. ٦٢٣هـ، ١٢٢٧م

- يتشارك ثلاثة رجال في صرّة دنانير، أسهم أحدهم في نصفها، والثاني في ثلثها، وأسهم الرجل الثالث في سدسها. كل رجل منهم تقدم وأخذ بعضاً من مجمل المال حتى لم يبق منه شيء. ثم أرجع أولهم نصف ما أخذ، وأرجع الثاني ثلث ما أخذ، وأرجع الثالث سدس ما أخذ. فإذا قسمنا ما تم إرجاعه من مال عليهم بالتساوي، نجد أن كلاً منهم بات يملك أصل مساهمته في المال. والسؤال: كم من المال كان في الصرّة وكم أخذ كل رجل منها؟

فرغ الطالب المقدّم من قراءة نص المسألة فتعلقت الأعين بالمعلم المبجل؛ ليوناردو البيزاوي، المتربع على تخت أستاذيته في حجرة درسه محفوفاً بمريديه وطلبته.

تطلع إليهم ليوناردو بحب وسعادة، محيطين بعرشه المصغر إحاطة الأفراخ بأمها. والحق أنه لم يكن ليبالي لو هلك أي منهم من ساعته أو خسفت به الأرض. بل فرحته كانت لنفسه. ها قد انقضى

عام منذ حلّ بصقلية ومازال بين مصدق ومكذب لما آل إليه الحال. معلمٌ ومريدون وحلقة درس، وكتبٌ تترى في ألوان الفن الحسابي تفتقت عنها قريحته وتتناولها الأقلام بالنسخ حتى طبقت شهرته آفاق الإمبراطورية. من كان يصدق؟

حجرة درسه هذه لا ترتقي إلى هيبة حِلق بجاية وإشبيلية، إن هي إلا موضع خرب في قلعة فريدريك، تساقطت حجارة جدرانه فأبانت عن البحر البعيد والجبال الأبعد. الهواء يهب عليهم حاراً رطباً والشمس تؤذيهم والنوارس تحط بينهم فيهشونها. لكن ذلك كان جنة دنياه وبستان روحه. وما فرح بشيء قدر فرحه بساعة درسه بين قاصديه وقد تعاظموا عدداً وصيتاً مع الأيام.

يستحق ذلك بلا شك. لقد صبر حتى قارب الستين. لكنه يستحق! وسواء انسلت تلك الخاطرة من عقله المحض أو من نفسه الإمارة بالسوء، إلا أنه رحب بها وتركها تزدهر وتترعرع في قلبه الذي انتعش بشباب متأخر، وعاود التراقص بحرارة افتقدها طويلاً محدقاً إلى الحلقة القسيمة لزينب، التي هرشت ذقنها الأملس وتمتمت:

- هذه مسألة سهلة.

دارت إليها وجوه الدارسين في خليط من الإعجاب والحسد. اتسعت ابتسامة المعلم ليوناردو صادقة هذه المرة وهو يتابع معركة طالبته الأثيرة مع نفسها. في حين عاتبها تلميذه المقدّم:

- أظهري الاحترام يا زينب وإلا طردك سيدنا من الدرس.

بأي حق تجرؤين على قول ما قلت وقد علمت أن هذه

واحدة من مسائل كبرى ثلاث حلّها المعلم بين يدي جلالة الإمبراطور فجعله شيخ العدديّين في زمانه؟

لم تكترث له زينب وهي تشمر عن ساعديها واضعة اللوح والمحبرة على حجرها لتشرع في الحل:

- لو أعطينا لكل رجل، بسهمه من الدنانير، رمزاً.. وليكن الأول «أ» والثاني «ب» والثالث «جـ». فيكون ما أرجعه الأول $\frac{أ}{2}$ وما استبقاه لنفسه كذلك $\frac{أ}{2}$. أما الثاني فأرجع $\frac{ب}{3}$ واستبقى $\frac{2ب}{3}$، أما الثالث فأرجع السدس مما أخذ؛ أي $\frac{جـ}{6}$ واستبقى $\frac{5جـ}{6}$ من الدنانير.

رفعت عينيها وكأنها تستوثق لسلامة منطقها من معلمها الذي أومأ مطمئناً. أخرجت لسانها لتلعق قطرات العرق التي لم تفلح نسائم البحر في تجفيفها وأكملت:

- عليه يكون مجموع ما أُرجع من دنانير هو $\frac{أ}{2}$ زائداً $\frac{ب}{3}$ زائداً $\frac{جـ}{6}$ ويساوي $\frac{3أ+2ب+جـ}{6}$ ديناراً. وقد قُسمت بعد ذلك بالتساوي على الرجال الثلاثة فيكون نصيب ما ناله أحدهم منها $\frac{3أ+2ب+جـ}{18}$. وهكذا يصير مجمل ما مع الرجل الأول $\frac{أ}{2} + \frac{3أ+2ب+جـ}{18}$، وهو مساوٍ بالمنطق وبنص المسألة لنصف كامل المال، أو $\frac{أ+ب+جـ}{2}$ ويمكن تبسيط ذلك وفقاً للمذهب الخوارزمي إلى 3أ - 7ب - 8جـ = 0. ومجمل ما عند الثاني هو: $\frac{2ب}{3} + \frac{3أ+2ب+جـ}{18}$، مساوياً بنص المسألة لسهمه الأصلي وهو: $\frac{أ+ب+جـ}{3}$ ويمكن تبسيطها إلى:

3أ – 8ب + 5جـ = 0. ومجموع ما لدى الرجل الثالث: $\frac{5جـ}{6}$ + $\frac{3أ+2ب+جـ}{18}$، أو سدس مجمل المال $\frac{أ+ب+جـ}{6}$ وتبسط إلى = 0 ب – 13جـ.

لمعت عينا المعلم ليوناردو بالإعجاب وهو يرقب انهماك زينب في الحل، فيما بقية الطلبة بين متهامس ناقم ومقلد متابع. علا صوت زينب بتتمة الحل:

– المعادلة الجبرية الأخيرة تحيلنا إلى أن نصيب الرجل الثاني يساوي ثلاثة عشر ضعف نصيب الثالث، أو 13جـ = ب. وبالإحلال في المعادلة التي قبلها نصل إلى: 33 جـ = أ.

بلغت زينب مبلغها ثم ارتج عليها. ظلت تحملق في اللوح بلا حيلة وقد استغلق التالي على إدراكها وانسد طريق فهمها. لم تلبث أن رفعت عينين كسيرتين إلى معلمها الذي قاوم ضحكته وإن أنارت ملامحه بالفرحة. تعالت همهمات الساخرين والمدافعين فأسكتها بتلويحة من يده:

– حسبك ما بلغت يا زينب وقد أجدتِ. واعلمي أن ما تقدم من حلّك كله صواب وهو الجزء الأيسر. والبقية سردتها بتفصيل في فصل من كتابي (الازدهار) Flos فأثبتُ أن الحل غير نهائي ولا كامل.

رفع أحدهم يده بالسؤال:

– كيف يكون الحل غير كامل يا معلم؟

- المعلومات يا بني كلها أسرار ربانية مصونة لا تتفتح إلا بالنور الكوني وإعمال الأدوات المعرفية. وما بين أيدينا من أدوات لا يفي هذه المسألة وأخواتها حقها بعد. ولعل أحدكم يحوز ثمرة ذلك قريباً بالتوفيق والاجتهاد، إن لم أسبقكم أنا إليه فما توقفت يوماً عن مراجعة ما دوّنت بالتنقيح والتصحيح.

- وقد تسبقك إليه الجارية المحمدية وقد نافست الرجال في مجالسهم.

هبت زينب واقفة وقد اسود وجهها بالغضب لتواجه من رماها:

- الجارية هي من أنجبتك. وما أرى أمامي إلا نصف رجل فإن كان فيك خير فأرناه.

قام لها الفتى وقد أظهر الشراسة وضج المجلس بالهرج. صفق ليوناردو بيديه حتى آلمته كفّاه وساد الهدوء من جديد. أشار إلى الشقي:

- قم ولا تعد إلى مجلسنا ثانية وإلا أمرت بك فجلدوك.

حط الوجوم على البقية. تنقل ليوناردو ببصره فيهم قبل أن يحذرهم:

- من لم يهذبه ضعف عقله وقلة حيلته إزاء مستغلقات العلم فلا حيلة معه ولا أمل منه. بين أياديكم قراطيس العلوم والمعارف ناطقة بشرف عقول من دونوها وما شفع لهم نسب ولا جاه من قبل. وفيهم اليهودي والمحمدي والأفريقي والإغريقي وكلهم تحت سلطان العلم سواء.

وهذا مولانا الإنبرور استظل بظل سلطانه أبناء الملوك ومن لا أصل لهم، فما تقدم إلا من بذل وعرف. فاعتبروا.

لا يبدو عليهم الاقتناع. في هذه الجزيرة حيث يجتمع شتات الأجناس والأديان لا شيء أجدى من العُصبة. نور الفهم الذي يبثه في عقولهم يضمحل في حفرة النزاع السحيقة. لكن لا بأس من المحاولة:

- ومن انغمس في علمنا هذا فعليه أن يعمّق التفكّر في الأعداد وسماتها وخصائصها وأمزجتها، فإن لكل منها طبعاً وسراً ونغمة. كالأحرف تتباين في مخارج أصواتها. غير أنه ليس للأرقام صوت مسموع لكنها إن تراصّت معاً كوّنت جملاً أبلغ من الكلام، وعلوم الحساب مثل علوم النحوّ تفسرها وتجلو مبهمها. وعليكم بفهم خصائص الصفر فإنه المبتدأ والمنتهى. وميزته عن باقي الأرقام أنه رمز اللاشيء الموجود؛ ومستقره في العقل لا العالم الحسّي. فإن نظر أحدكم إليه لا يرى شيئاً، لكن إن نظر من خلاله رأى العالم كله كأنه يكشف الأفق.

***

دخل ليوناردو داره آخر النهار فتلقاه خادمه محمود. الفتى ترك سلك الجندية وتفرغ لحاجة المعلم البيزاوي بأمر فريدريك وما زال على عادته من قلة الكلام وجمود الطبع. غير أنه مخلص مؤتمن. كثيراً ما مازحه ليوناردو بالقول أنه أمضى عمره في دراسة الصفر

وخصائصه فامتحنه الله بتابعٍ صفر الحديث. حتى هذه لم يضحك لها محمود أبداً ولا بدا أنه فهمها، ولا فهمتها أمه مريمة؛ راعية شأن ليوناردو ومدبرة داره. استقبلته هي الأخرى باشّة مبشّرة بكتف خروف مطبوخ مع القرع والمشمش. تلك باتت أسرته في غربته الصقلية التي لم يخترها ولم يكن ليأمل بخير منها. أمره فريدريك بأن يلتحق ببلاط عاصمته فاستجاب راضياً. صوفيا والأولاد آثروا البقاء في الديار فلم يعارض. ذاك كان التدبير الأوفق وما عاد بينهم وبينه رباط يعتد بمتانته. هم بيزاويون أقحاح وهو هائم في العوالم العددية خصّه الإمبراطور بشرف الصحبة فنال المجد ونالوه. وما سوى ذلك فهامش لا طائل من مكابدته ولا يعتل القلب لمفارقته.

اغتسل ليوناردو وتخفف. جلب له محمود بريد يومه وباشرته مريمة بعشائه. عزم عليهم ليأكلوا معه فتحججوا ككل مرة. يعرف أنهم لا يطعمون إلا من الحلال المذكّى ومريمة تراعي وحدته فتبقى واقفة حتى يلتقم أول لقماته ثم تسلّيه بالحديث عن أحوال الناس. غير أنه بادرها العشية بالسؤال:

- أين ابنتك؟

- زينب؟ منذ رجعت من الدرس وهي ملتزمة حجرتها طاوية. والآن تسأل عنها أقلقتني يا سيدي ما الخطب؟

- كل خير. ادعيها لأحدثها.

تجلب الأم له أولاً منقوع النارنج الساخن بالنعناع والعسل ليعالج انتفاخ بطنه كما وصفه له الطبيب ثيودور. ثم تنصرف لتعود

بابنتها التي تجلس على الحشية قبالة سيدها ومعلمها بلا دعوة ولا استئذان ووالدتها واقفة على رأسها. لا يتمالك ليوناردو السرور الذي ينهمر كماء النبع من قلبه كلما رآها. البنت الصقلية تعصف بصخبها وفطنتها بحواسه ولا يعرف ما يشده إليها؛ ذكائها وسرعة بديهتها، أو فورة دمها الناضحة على جسدها البكر؟ يدرك أنها في سن بناته أو بنات بناته، وأن أمها أليق به لو شاء اتخاذ صاحبة، ويحس بنظرات محمود تسوطه سوطاً كلما قارب اخته التي لا تكتفي بما حُصرت فيه ربيباتها من شؤون النساء، بل تركب الخيل وتقرأ مخطوطات المعلم بحضوره وفي غيابه وتحضر درسه، ويصله عنها رذاذ كلام في شأن فريدريك ودولته كفيل بأن يطيّر أعناق الرجال. لكنه يحبها ويحب رفقتها ويحز في قلبه ما هي فيه الليلة من همّ.

- ما زلت على غضبك من ذلك الأحمق؟

- بل غضبي منك أنت!

تهوي أمها على كتفها بضربة يحس هو ألمها.

- تأدبي يا بنت وإلا قلعت شعرك بيدي!

تنفلت زينب بكل الكلام المحبوس في صدرها وعيناها تلمعان بدمع القهر:

- تأدبت وسكت وما نالني إلا المذلة وتطاول الدون من عيال الإفرنج. أُهان على مرأى ومسمع من المعلم ولا يفعل شيئاً

يدفع به عني الأذى وقد أثبتُ أني خير وأحسن من كل البهم الذي اجتمعوا في حلقته.

تلطم أمها وتعض على شفتها وتكاد تتوسل للشيخ البيزاوي كي يغفر لابنتها المبتلاة في عقلها. لكن ليوناردو يتبسم مهوناً:

- لا عليك يا مريمة فما جانبت زينب الصواب فيهم. لكن ألم أطرد ذاك الشقي وأحرمه من مجلسي؟ ألم أدافع عنك بالقول الصريح أمام طلابي؟

- دافعت عن العموم وتركت المخصوص. ساويتني بهم وتعرف أنهم استقصدوني لنسبي وملّتي ولو شئت لأفردتني بالذب عني بدل أن تساويني باليهود والأعاجم.

ما أن أتمت عبارتها حتى امتقع وجهها وقد أدركت أي غلط غلطته على معلمها وقد خاتلها بفصاحته وأنساها أصله بإيغاله في لسان قومها وعاداتهم. مريمة شبكت أصابعها حتى ابيضت أطرافها. وزينب أرخت عينيها وقد أخرسها الندم.

تأمل ليوناردو في الهلال المطلّ عبر الشباك. مصباح المدخل ينعكس على جسدي محمود والحصان الذي يمشطه متظاهراً بالانشغال عن العاديّات وهو معهم بما وسعه من جوارح. أذناه مشرعتان لما قيل وسيقال وللحيطان آذان كذلك. لا يأمن ألا يصل ما سيقوله إلى أسماع فريدريك من مريمة بالذات أو من ابنها أو من الحصان الذي يمشطه. أقام في بلاط فريدريك وخالط بطانته بما يكفي ليعرف ويتعظ ويتقي.

وهل يلوم على زينب سخطها؟ قد أمعن فريدريك في تشريد قومها وامتهانهم، فهجّرهم إلى لوتشيرا في البر الرئيسي واستخدمهم غصباً في حرسه. صحيح أنه كفل لهم حريات التقاضي والشعائر. لكنه استعبدهم بعدما سادوا. ولما ثاروا عليه في أول ملكه، ركل زعيم تمردهم ابن عبّاد بمهماز حذائه حتى شق جنبه وسحل أبناءه حتى هلكوا. يدرك ليوناردو اعتداد القوم بأنفسهم ويكاد يشعر بالنار التي تضطرم في صدر زينب بالذات.

- ما كنتِ تصنعين لو أنك مكاني يا زينب؟

فوجئت بالسؤال وراوغتها إجابته للحظة:

- كنت سأبين مزيتي عليهم بسعة العلم وعلو الهمة. وأذكرهم بما للعرب من فضل وسبق في هذه الجزيرة حتى جاء الفرنجة فأذلونا بعد عز.

كادت مريمة تسقط مغشياً عليها لهول ما نطقت به ابنتها. حتى محمود تحفز وجمدت يده بالفرشاة على ظهر جواده.

- لله در ذكائك وفطنتك! أقول هذا الكلام وأنا في رعاية الإنبرور بل تحت ظل سيفه؟ أين عقلك يا زينب؟ لأن لم يشِ بي عنده أي من مريدي الحلقة، فإن الملأ والرهبان لا يسكتون. وهم متغافلون عمّا أنا فيه لأن فريدريك يحبسهم عني ويعجبه ما يجد من علمي.

- قد قلتها أنت. وفريدريك لا يكترث للقسس وهذا كبيرهم قد ألقى عليه حرمانه وكفّره وفق ملّتكم فما عاد يجد من

يحرسه ويقوي جيشه إلا بني جلدتي ممن لا يأتمرون بأمر كاهن ولا يبالون بوعيد كنيسة.

- لا تأخذك الحمية فتنطقي بالترهات. ففريدريك وإن وقع الشقاق بينه وبين البابا الجديد گريگوري، يظل إنبروراً ابن إنبرور. وبينه وبين ملوك أوروبا وساداتها من المصالح والسياسات ما يغنيه عن عصمة البابا إلى حين. وأتباعه المخلصون من الجنويين والسوابيين وسواهم أضعاف جند لوتشيرا المسلمين. ثم ها هو يجدّ في حملته الصليبية ضارباً بگريگوري ولعناته عُرض الحائط. أتحسبين رجلاً مثله يقيم لي حساباً أو يسكت عني إن شككت في حكمه أو عارضت رأيه جهراً أو سراً.

- طلاب علمك استقلّوني لأني امرأة.

- هذا مما جرت به حال الدنيا منذ أمنا حواء فلا تخصّيني بحمل وزره يا زينب! ولا تنكري أني مكّنت لك في حلقتي وساويتك بالباقين لتثبتي علو كعبك ففعلتِ، وذلك عين العدل ولا شك.

تململت زينب في مكانها وكأنه لم يعجبها أن حججها دحضت الواحدة تلو الأخرى. أضاف ليوناردو ممازحاً ومعاتباً في آن:

- وتعرفين أن قومي من الأعاجم قلّ فيهم المتعلمون من العوام ولا يرون للنساء شأناً في ذلك. وهم على غير ما أنتم فيه من التنوّر وشيوع التفقه، وهو ما يجلّه فريدريك فيكم

ويسره أن يفشو بين سائر رعيته.

رفعت زينب رأسها عالياً وقد أخذتها العزة بالنفس:

- أما رأيي في قومك وسوء طينتهم فلا يتغير والله. وما أنت بينهم إلا كالوردة في الشوك ولعل الله يهديك فتلتحق بملتنا لكن الكامل وجه الله.

ضحك ليوناردو أما مريمة فسقط فكّها ولو كان في يدها عمود لهوت به على رأس ابنتها لتخرسها. لكن الفتاة تواصل:

- وأما امتهانكم لشأن النساء فتعرف أن إحدانا برجلين. وهذه إحدى بناتنا تصدرت ثورتنا في الغرب قبل سنين فلم تُعرف ولم تُؤخذ حتى لقبتموها بعفريتة إنتيلا وخوّفتم بها عيالكم.

لم ينتبه ليوناردو إلا ومحمود واقف بينهم منهياً الحوار بكلمات نادرة:

- دخل وقت صلاة العشاء.

سحبت مريمة ابنتها من ذراعها سحباً. غادر الثلاثة على عجل تاركين ليوناردو لأفكاره وهواجسه. صفو حياته هنا ظاهري، يوشك أن يتكسر كما يكسر الحوت سكون صفحة البحر. لا يأمن أحد أحداً والخوف كامن في النفوس لا يلجمه إلا بطش فريدريك.

ضحك من نفسه. لو حلفوا له أنه يتكلم يوماً في شأن المُلك وتصاريف الدول لما صدّق. لكن ها هو اليوم أحد ملأ الإمبراطور الروماني، وشيخ مدرسته في صقلية. قوي مكين إلى حين. دانٍ من

شمس عز الملك الشاب. تذكر تحذير مايكل سكوت؛ «من قارب الشمس احترق». لم يختر الاقتراب لكنه لم يرفضه. وهل نملك أن نحيد عما قُدّر وكُتب في اللوح المحفوظ؟ تأمل فيما انغمس فيه من علم الحساب واسترسل في إمكانية تطبيق أسسه على قراءة خط الزمن والقادم من الأيام. ما أحسن ذلك لو أمكن. ثم تنبه إلى أن ذاك بعينه هو ما يشتغل فيه صاحباه المنجمان؛ ثيودور ومايكل، وقد كان في سره يستنكر ذلك منهما ويستنقصه. أتراه، وقد كرّت مسبحة أيامه ودنا أجله خف عزمه عن مجابهة الدهر، ومال إلى ضمان عاقبته وتقليل خسارة تجارته مع الدنيا؟

ابتلعته أفكاره إلى أن انخلع قلبه لما سمع صوت مايكل سكوت من عند عتبة بابه:

- أتحدث نفسك يا رجل؟ قد جننت وحق الرب!

- زلزلك الله أفزعتني! وإن كنت أفكر فيك الساعة.

- قد ساقني القدر إليك إذن. وليتك تفكرت في حسناء مليحة أو كنز مخبوء فنلته بدلاً من سحنتي الكريهة.

- حسنٌ أنك تعي ذلك. تعال. لك شيء عندي.

غاب ليوناردو داخل حجراته ثم رجع وفي يده قنينة شراب، وتحت ابطه مجلد فاخر التجليد. هتف مايكل:

- ها أنت جئت بما تحسن به الصحبة وتهون معه الوحشة.

- أما القنينة فأتصبر بها على صحبتك المقيتة. وأما المجلد

فنسخة منقحة من كتابي الأول Liber Abaci، وقد أهديته لك في مقدمته.

يقرأ مايكل بصوت عال:

«وقد فضّلتني، يا سيدي الفيلسوف الأجلّ، بالذكر لدى مولانا الإمبراطور، فأضع بين يديكم هذا الكتاب فما وجدتم فيه من كمال فبتوفيق الربّ، وما كان من خَطَل أو نقص فمن نفسي ولكم الدالة عليّ بتعديله وتقويمه وإصلاحه بما أوتيتم من واسع العلم وجليل الفهم».

ثنى مايكل ما بين حاجبيه تأثراً وعرفاناً. لكنه أردف بالنصيحة:

- كان الأجدر بك أن تهديه إلى فريدريك.

- قد فكرت بذلك. لكني لم أستحسن إهدائه نسخة من قديم معدّل فيقال أهداه ثوباً مرقعاً. وقد خصصته قبلاً بنسخة من كتابي الثالث (الجذور) وفيه حلول مسائل يوحنا رحمه الله.

- وتحسب أن إهداء كتاب واحد يفي ملكاً حقه؟ أما رأيتني خططتُ اسمه على مقدم كل كتبي في الفراسة والعرافة، وأهديته ترجمتي لرسالة ابن سينا في جوهر النفس ومغايرتها للبدن الفاني ومراتب السعادة، وقبل ذلك كتابي (الخصوصيات) Liber Particularis خصصته به بكليّته.

- أمّا زعمك العلم في الفراسة فليس بشيء! ولا أنسى أنك

شبهتني بالماعز فأحسن الله عزاءك في عقلك. وأما كتابك في الخصوصيات فأرجو أن يكون أنفع من ذلك.

- أنت اليوم في عيني أشبه بالبغل.

- فحاذر أن أرفسك!

- وأمّا مخطوط الخصوصيات ففي بعض خزائن فريدريك في البرّ الإيطالي. وإن لأرجو أن يحترق ولا يبقى منه شيء.

- ويحك لم تقول ذلك؟

- قد سعيتُ فيه لأجيب عن أسئلة راكمها عليّ فريدريك، عن أصل الأرض وطبيعة خلقها، وعن طبقات السماء وسُمكها، وعمّا يلي السماء السابعة، وموضع عرش الإله منها. وسألني عن موضع جهنم وكيف لا تحرق الأرض وهي تحتها؟ وسألني عن جوهر الروح، وعن كلام منسوب لمحمد، نصّه أن القلوب بين أصابع الرب يقلبها كيف يشاء كيف يكون ذلك؟ ولا أحسب أني أجدتُ الجواب على أي من تلكم المسائل إذ بلغني أنه أمر ثيودور النسطوري فكتب المكاتيب إلى سلاطين المسلمين يستفتي علمائهم.

- ما أعجب ذلك! ومتى يجد فريدريك الوقت للتفكر في تراث المحمديين؟ وهو الواقع تحت سخط البابا والمطالب بشن الحرب على المسلمين عاجلاً غير آجل ليبرئ نفسه ويبيض صفحته.

- وستزيد دهشتك لو عرفت أن بين فريدريك وسلطان مصر؛ الملك الكامل الأيوبي، ودّاً ومراسلات وهدايا من قديم. وفدُ الكامل كان هنا من سنتين. قدّموا لفريدريك جوهرة بعشرة آلاف دينار وسرجاً مرصعاً! وكأن الملكين صاحبان لا يوشك أحدهما أن ينقض على مُلك الآخر فيمزقه.

- شيء يجعل الحليم حيراناً! لكني أراك الليلة تغدق عليّ بالكلام وكأنك تمهد لشيء.

يصب مايكل لنفسه ولصاحبه. ينشغل بالقدح بين أصابعه لبرهة ثم يفاتحه:

- لعلك لست البغل الذي ظننتُ. اسمع يا ليوناردو؛ قد علمتَ صدقاً مكانتك عندي. وعلمت غور مستنقع الفتن الذي نخوض فيه. وقد تبدت لك أمور وأخفيتُ عنك غيرها. لا شكّاً فيك ولا بسوء نية مني. لكن قلة العلم أحياناً تكون نعيماً ومنجاة، وسعة الدراية تستجلب النقمة وتستوجب التقية.

- كلامك ارتاع منه قلبي وإن استقر بعقلي وكان ما يشغل فكري الساعة. فأفصح.

- إنك يا أخي منذ التف قيد الصحبة الملكية على رقبتك، وكُتبت عليك ملازمة فريدريك في هذه الجزيرة، وأنت مشغول في شاغلك. تكتب وتدوّن وتدرّس ولا تلقي لغير ذلك بالاً. وقد اهتممت أنا ومن قاموا على رعايتك وصيانتك في البلاط

بإبعادك عن دسائس المُلك ومكائد الحكم. فالماشي في هذا الدرب كالماشي على حد السيف.

- بحق الرب، لا أبغي غير ما أنا فيه من الانصراف لعلمي وطلابي. فما الذي استجد؟

- هذا ما أنا فيه. اعلم أولاً أن فريدريك داهية في السياسة مثلما هو باطش في الحرب شغوف بالحكمة. ومن دهائه أنه يخطط لاسترجاع مملكة أورشليم بلا حرب ولا قتال.

- عجيب! وكيف يكون ذلك وهو ملك أورشليم المسمى بزواجه من إيزابيلا وريثة العرش الضائع؟ يحق له أن يحشد جيوش أوروبا كلها خلفه ليسترد حقه.

- فريدريك لا يريد من اللقب إلا مجده وسطوته. أما الحرب في سبيل أورشليم عنده فمَهلكة للمال والرجال. وما مراوغته البابا هونريوس حتى وافته المنية، وتجاهله لأمر البابا گريگوري حتى أوقع عليه حرمانه، إلا دليل على ذلك. فإن لم يكن لاسترداده القدس من بد، فيكون ذلك بالدهاء والتدبير.

- كيد الملوك بينهم. لكن ما لي أنا وذلك؟

- لك أنك ارتحلت في شبابك إلى مصر والشام. ولك بالناس هناك معرفة وبطباعهم خبرة وبلسانهم إجادة. وأحسب فريدريك يرسلك في سفارة إلى الملك الكامل أو أخيه

المعظّم بدمشق قريباً فتجد نفسك في قلب عاصفة هوجاء.

شحب ليوناردو مصرحاً بمخاوفه المريرة:

- سحقاً يا مايكل! أوَ كلما أقبلت عليّ الدنيا ببشاشتها تعجّفت؟ مالي أنا ومال السياسات والسفارات ومكائد الملوك؟

ألقى بقدح شرابه واحتضن رأسه بكفيه وقد بلغ به الاغتمام مداه. أراد مايكل أن يهون عليه لكنه فاجأه بوقوفه مفزوعاً ومعاينته لخارج الباب وعبر النوافذ.

- أحسنت بحذرك. وهو ما عليك أن تلزمه أقصى الالتزام. لعلي أكثرت عليك وبالغت في تقديري وتشاؤمي يا ليوناردو. وأصدقك أن ما ذكرته لك محض تخرصات وتوقعات طافت ببالي مع توالي الحوادث، فأردت أن تكون منها علي بينة لألا تأخذك البغتة فتأتي بما لا يحسن الإتيان به.

- وما باليد من حيلة فآتي بها؟

- لست أدري. لكن لا بد من التهيؤ قلباً أما الفعل فنستعين عليه بالعارفين.

- ومن يعرف؟

- صاحبك ثيودور.

- وما شأن ثيودور؟

- هو الآن في سفارة فريدريك لدى الملك الكامل. يسأله

في مسائل الفلسفة وتفسير القرآن، ويفاوضه على تسليم أورشليم صلحاً.

- وما شأن الطبيب المتفلسف المنجم بذلك كله؟

- ثيودور الإنطاكي اشتغل بخدمة سلاطين المشرق قبل أن يلتحق ببلاط فريدريك ويلازمه. بل إني أجزم أن الكامل هو الذي بعثه إلى فريدريك ليكون عيناً له، مثلما بعث إليه فيلة وزرافات وجوارٍ.

*

(١٠)

أحس ليوناردو بالألم بين إليتيه لكنه تماسك. مضت سنوات منذ ركب نهاراً بأكمله، ولا يبدو أن لهذا اليوم آخر. كما أن الشمس حارة وقربته تكاد تجف والحصان من تحته يكاد يحرد.

لكن فريدريك يواصل الانطلاق مع رفاقه كالسهام عبر الغابة وقد ألصق العرق ثيابهم بأجسادهم مهللين كالصِبية. لا يملك ليوناردو إلا أن يلحق بهم محاذراً الوقوع عن صهوة جواده. لتكونن هذه نهاية معتبرة للمعلم البيزاوي اللامع!

الصقر الضخم يجثم على الغزال البائس. لم ير يوماً صقراً بهذا الحجم ولم يعرف أنهم يصيدون الغزلان بالصقور. فريدريك يسبق عبيده ورفقته إلى الكاسر اللاهث بحرارة الجو والمعركة ويمسد على رأسه محيياً ثم يكافئه بمضغة لحم من جرابه. ولم لا يأكل الطير الأحمق من قنصه؟ تبخر السؤال في فضاء عقله وهو يكافح ليسيطر على حصانه وقد وتّره نباح الكلاب التي تنازع قيودها والنقع الذي يثيره الفرسان مالئين الجو صخباً وهتافاً.

يقنّع فريدريك شاهينه الضخم ويرفع ذراعه التي تحمله فيفرد الطير المهيب جناحيه. مشهد يليق بالأباطرة العظام. فارس تيوتوني أشار إلى جثة الغزال وصاح بجرمانية صميمة لم يدرك ليوناردو إلا بعضها:

- هذا عشاؤنا الليلة!

رد عليه فريدريك:

- عشاء يليق بالنساء. أشتهي خنزيراً برياً. أما أنت فتكفيك السناجب والسحالي.

ضج الموكب بالضحك للطرفة الملكية التي لم يجدها ليوناردو طريفة. قدّر أن هؤلاء الرجال يستهويهم سفك الدم مهما كانت الضحايا. فإن لم يجدوا بشراً ليذبحوهم فتكوا بالحيوانات بداعي الرياضة. حذره مايكل سكوت منذ البدء بأن اليوم سيكون عصيباً على شيخ مترهل مثله. لكن البيزرة هي رياضة الملوك وجلالته أمر بخروج البلاط بأكمله اليوم معه فلا بد من الامتثال.

- الفهود!

صاح فريدريك بالكلمة فرد عليه أتباعه بالزعيق والولولات.

- أطلقوا الفهود ولنرَ بأي شيء تعود.

- لعلها تصيد خنازير ولعلها تقنص عيال السراسنة.

جذب الإمبراطور عنان جواده وطار به مجدداً ليلحقه الموكب الهادر. جزّ ليوناردو مكابداً عذابه ورمح بدابته خلف الجمع المبتعد

لاعناً الساعة التي عرفه فيها هذا الإمبراطور المخبول. تشكلت المسألة في رأسه بين وخزات ألم ظهره:

كلب صيدٍ يطارد أرنباً. كلاهما تزيد سرعته بقدر حسابي ثابت. كم يقطعان من مسافة قبل أن يلحق الكلب بالأرنب؟

انقضت حفلة القنص قبيل المغيب. عادوا إلى مضاربهم ورائحة الشواء خففت ألمه وتعبه. منّى نفسه بعشاء دسم تعقبه نومة طويلة يريح فيها جسده المتضعضع. أما فريدريك فتصدر المجلس في خيمته ينهل من شرابه ويتمايل مع راقصاته. العازفون أتعبهم النفخ والضرب على الأوتار وموسيقاهم ضاعت في فوضى الأصوات وقرع الكؤوس. شاعران قررا أن يتباريا بالقصائد في قلب الخيمة الإمبراطورية الأشبه بالماخور. أما رفاق فريدريك من المقاتلين المعتقين وأتباعه الجرمان واللاتين فتفلتوا بين اللحم المتاح من مشاوٍ ونساء لم يعرف ليوناردو من أين ظهرن.

فاقداً الإحساس بمؤخرته، أُجلس ليوناردو إلى جوار مايكل سكوت غير بعيد عن سرير فريدريك. موقع متقدّم عرف أنه لم يُخصص لهما سدى. لعل مايكل يدنيه من الإمبراطور عن قصد؟ لم يتأخر العاهل المنتشي في توجيه الحديث إليهما:

- وجهك سعدٌ علينا يا بيزاوي فالصيد اليوم وفير.

يمد مايكل عنقه متزلفاً:

- أما أكدتُ لجلالتكم موافقة الطالع لصيد اليوم؟

- اشكر ربك إذ أنجاك حسابك للزيج يا مايكل وإلا أفلتُّ عليك كلابي.

موجة ضحك أخرى تُلم ببحر الخيمة المتلاطم. يسأل فريدريك:

- أخبرني مايكل أنك لم تخرج للصيد من قبل. ما رأيته سرك؟

يرخي ليوناردو رأسه ويتنفس مرتين قبل أن يرد:

- كل لحظة في ظلكم هي لحظة سرور يا مولاي.

يقهقه فريدريك ويغمز له مريحاً كفه على ردف الراقصة التي تهتز إلى جواره:

- كم تغيرت يا ليوناردو! صار لك لسان وأرجو أن ينبت عضوك الضامر الآخر قريباً.

يبهت ليوناردو ويضيع منطقه. ينقذه انتفاض أحد صقور الصيد المقنّعة المستقرة على مرابضها خلف كتف الإمبراطور. يلتفت فريدريك إلى كنوزه الكاسرة بفخر. يرفع صوته الملكي:

- الوحوش كالناس فيها النبيل والوضيع والسيد والتابع. ولها أخلاق تحكمها وطباعها يكسرها التطبّع.

يهز ليوناردو رأسه بالموافقة مهما قال فريدريك. لكن ما يقوله يشد انتباهه حقاً:

- وقد راقبتُ سلوك السباع والكواسر، فوجدت أنها تتميز عن بعضها بفضائل طبيعية وأخرى مكتسبة. وهي في ذلك

مثل البشر، ويسري عليها كلام أرسطو لما قرر أن الفضائل ليست فينا بفعل الطبع وحده، ولكن الطبع قد جعلنا قابلين لها، والمداومة عليها تنميها.

ينزلق مايكل إلى مجرى الحوار:

- لكن ثمة فرقاً شاسعاً يا مولاي. فأرسطو اعتبر أن السعادة هي الغاية المحركة لأفعال الإنسان. فالاقتصار على اللذة يجعل الإنسان في مرتبة البهائم، ذلك أن الإنسان يتميز عن سائر الكائنات بالعقل وكمال وجوده مرهون بتوظيفه، وإلا فإنه يشارك النبات في النمو والحيوان في الحسّ.

!
رفع فريدريك حاجباً وإصبعاً وهو يصوّب لمعلمه الفيلسوف:

- وما السعادة يا ميخائيل؟ حتى أرسطو حار في معناها وجعلها مراتب. فالعامة ترى السعادة في اللذة المحضة كما البهائم. أما القلة من أصحاب العقول والهمم فتتحقق سعادتها بنيل المجد والمجاهدات. وتبقى المرتبة الثالثة وهي مرتبة حياة الحكمة والتأمل وهي السعادة الحقة عند أرسطو. لذا تحصنت وتحزمت بكم معشر المشايخ المتأملين.

- بل نحن الذين نشرف بظل صحبتكم يا مولاي.

أشار فريدريك إلى خادم ليسقيه ولوّح بكفه:

- اترك عنك تدبيج المنافقين واصغِ يا ليوناردو إن كان في فهمك متسع. أرسطو قال أن الفضائل نوعان؛ عقلي وأخلاقي.

والفضيلة العقلية وليدة التعلّم وبه تنمو. أي أنها تحتاج إلى الممارسة والوقت.

التفت مجدداً إلى أحد صقوره وحمله. شهق ليوناردو لما أنشب الجارح مخالبه في رسغ الإمبراطور العاري بلا قفاز أو حماية. إلا أن فريدريك لم يُبد اكتراثاً وهو يكمل متأملاً طيره الجميل:

- وبالنسبة لهذه الوحوش، فأنا قناة تجربتها ومزولة وقتها. أنتخب أجودها وأحسن تدريبها وأعرّضها للامتحان لأبرز أفضل ما فيها من طبع وخُلق. فإن نجت ورّثته لسلالتها فلا يسود منها إلا الأجود.

مال بخصره عليهما محدقاً بعينين محمرتين بفعل الشراب:

- وذلك يسري على الرعية من الناس كذلك. عرفتما الآن لم كان القنص رياضة الملوك؟

تأرجح رأساهما كبندولين مقلوبين. أما فريدريك فواصل مداعبة ريش الطائر الجاثم على يده:

- هذا السنقور الكبير، هو أشرف أنواع الصقور وأسماها. لا يأكل الجيفة ولا يهجر زوجه. وأحسن ما يتم تدريبه عليه من الطرائد هو الكركي. فإن أجاد ذلك تم تلقينه قنص الطرائد الأكبر. وقد سمعت أن الأولين صادوا به الثعالب وبنات آوى وجندوه في حروبهم.

- هذه جديدة يا مولاي!

- وما يدريك أنت يا بوناتشي؟ عجباً لك تنادم مايكل كل ليلة ولا تبتلّ ببحر علمه. قد ترجم لنا صاحبك كتاب (الروح) لأرسطو بجملته مع شرح ابن رشد. وسوّد لنا ملاحظاتنا عن أصول الصقارة والبيطرة. وإني لأرجو أن أتم كتاباً في هذا الفن إن صفت لي الأيام.

- تكتبون كتاباً يا مولاي؟

- ألا تصدقنا يا بيزاوي؟

تيقظ ليوناردو واستجمع حواسه. سبقَ نطقه تفكيره مجدداً. غير أنه أجاب:

- معاذ الله جلالتكم. وقد وقر في قلبي من قبل أن ألقاكم أنكم أعجوبة العالم ونسيج وحدكم. بل إني أتطلع إلى أن أشهد إنجازكم مع ما أنتم فيه من مشاغل الملك. وإن كان لنا أن نقرّب الثرى من الثريا فما كانت حالي بعيدة عن ذلك إبان مُقامي بإشبيلية في أول عهدي بطلب العلم. إذ استكثر القوم عليّ تطلعي للتأليف واستعدادي للتصنيف واستقلوا مني القدرة عليه. وها أنا ذا بفضل إنعامكم قد دوّنت المدونات وتعددت مصنفاتي في فنون علمي.

- نعم نعم! وبتّ تهدي النسخ لخلّانك وأحبابك وما نالنا من ذلك إلا أيسره.

اضطرب ليوناردو والتفت رغماً عنه إلى مايكل الذي هزّ كتفيه مستسلماً. أما فريدريك فانفجر في ضحكته المجلجلة:

- لا عليك يا بيگوللو. فلا خير فيمن لم يحفظ جمائل الناس ويرد عليها بآيات العرفان.

- لكم من ذلك أجلّه وأعظمه يا صاحب الجلالة.

- لنا ما حصلناه بسعينا وانتزعناه من مخلب القدر. ولا أخفيكم أني أتطلع لما يلي ما عندي وقد حيزت لي أرض جدودي بخيراتها ورجالها.

تردد ليوناردو قبل أن يلفظ ما خشي أن يندم عليه:

- لعلكم تشيرون إلى خيرات الشرق يا مولاي؟

مط فريدريك شفتيه معجباً:

- وصرت تدرك مرامي السياسة كذلك؟ هو ذاك. الشرق يا ليوناردو. الشرق! أجود الخيل. أنبل الصقور. أحسن الطعام. أجمل النساء. وأنت نشأت هناك ولبثت من عمرك سنين ثم رجعت باختيارك وطوعك؟

- رجعت لأنعم بفيء خيركم يا مولاي.

- ما أحمقك.

ثم إنه قبض على معصم إحدى الجواري وجذبها إليه حتى أجلسها في حجره. ضج المجلس بالتصفيق للإمبراطور الفحل الذي رفع كفه مسكتاً الجميع. لف ذراعه حول خصر الجارية وسألها:

- من أين جاؤوا بك؟

- من مصر يا سيدي.

- وقبل ذلك؟

- من حيث شئت يا سيدي.

يزأر فريدريك بضحكته المخمورة وقد أعجبه الرد.

- لكِ في الغناء؟

- لي فيه وفي غيره إن شاء مليكي.

- بل نقتصر على الغناء الآن. مايكل؛ ما البيت الذي رددته عندي آخر مرة؟

- من شعر ابن زيدون؟ لعلكم تقصدون:

لا سـكّنَ اللهُ قلباً عقّ ذكرَكُمُ فلم يطرْ بجناحِ الشّوقِ خفّاقَا

- نعم هو ذاك. حفظتيه يا جارية؟ العب به يا عازف. ويحكم قلبي في المشرق وما حللت به ولا أبصرته عيناي بعد!

***

بعد أيام ثلاثة من الصيد، كان ليوناردو يصعد بحصانه التلة المؤدية إلى منزله. فارس متهالك على جواد منهك. لكنه نسي إرهاقه للحظة وهو يلوح لزينب التي انحدرت راكضة بحرارة ترحاب لم يذكر متى تلقاها آخر مرة. ألقت بنفسها على عنق الحصان الذي صهل محتجاً بآخر ما فيه من رمق. لكنها داعبت عرفه وهمست في أذنه مهدئة ثم انتقلت بابتسامتها المشعة إلى راكبه قبل أن تهتف:

- ويلك ما بك؟ وجهك اسوّد والذي يراك يظنك شِخت عشر سنين في بضعة أيام!

- ما رأيته في الأيام الفائتة يعدل ما مر بي في عشر سنوات.

- وعساك اصطدت لنا شيئاً؟ أم عدت لنا بالخيبة المحضة؟

- بل فعلت.

قاله وهو ينحني متأوهاً على الجراب المعلق بالسرج، مستخرجاً جثة ممزقة:

- هاكِ.

تأملت في الكائن الشائه بارتياع:

- ما هذا؟

- أرنب.

- ولم هو مفكك الأوصال هكذا؟ أرميته بسهم أم بمنجنيق؟

- لا هذا ولا ذاك. وقع المسكين تحت حوافر حصاني.

حدجته مستنكرة قبل أن تصدح بضحكة طويلة أجبرته على مجاراتها.

- أرنب؟! أهذا ما أقدرك الله عليه في غزوتك المظفرة؟

- بيني وبين جنس الأرانب سر خفي من زمن بعيد. هي قصة طويلة أحكيها لك إن سنحت سانحة، أو لعلك تقرأينها

في الفصل الثاني عشر من كتابي في الحساب. والآن هلمي فاسلخيه وألقي به في قدر قبل أن يفسد لحمه.

- لا لحم فيه. وفراؤه تمزق لا يصلح حتى لجورب واحد.

هبط من جواده ومفاصله تئن. ما إن استوت قدماه على الأرض حتى ألّمت به دوخة ولم يدر إلا وزينب تحشر كتفها تحت إبطه لتسنده.

نام ليوناردو ليومين كاملين. فتح عينيه على وجه زينب لصق وجهه. أراد أن يعتدل فضغطت على صدره:

- لا تتحرك. جسدك لم يتعافَ بعد والحمى لم تخف.

- أنا محموم؟

- الشمس أحرقت دماغك. مالك وصنائع الفرسان؟

- أصبت. ما للشيخ الفاني إلا كتبه ومتكأه.

- بل أنت زين الشباب لكن كلاً ميّسر لما خُلق له.

لهما طوق الصمت برهة. تلاقت أعينهما في عتمة الليل التي لا تشتتها إلا شعلة سراج واهية ولمعُ بؤبؤيها الأسودين. أحس ليوناردو بحرارة الدم تنبض في وجنتيه فأغمض متناعساً.

أعاد فتح عينيه ثانية وهو يكافح كلاماً وفعالاً تضطرم في صدره. كادت يده تمتد لتدفع وجهها المشع بالحياة بعيداً عنه كمن يتقي جمرة. لكنها سبقته بالكلام:

- سأل عنك المعلم الإسباني. أرسل يطلبك اليوم والبارحة.

- دومينيكوس؟ ما شأنه هو الآخر؟

- قد صرفت رسوله وإن كدت أفقأ عينيه الشاردتين.

حرك جفنيه بالكاد معتذراً ودوار رأسه يغالبه. لكنها لا تسكت:

- ما قصتك مع الأعداد؟

- أي سؤال هذا؟ هي كتاب عملي السالف والتالي.

- ليس ذاك. بل أسألك عن أرقام كنت تهذي بها في حمّاك.

- أو كنت أهذي؟ أية أرقام؟

- ثلاثة، خمسة، ثمانية، ثلاثة عشر.

سقط فكه ارتياعاً. أحس الهواء ينسل من صدره وبأضلاعه تنطبق على قلبه. عاد العرق يتفصد من جبينه فمالت زينب إلى طست ماء تناولت منه خرقة جعلتها على وجهه.

- هكذا حالك من أيام.

- لا أحسب أن بي حمى أو عرضاً بدنياً. بل هو وجع القلب. طيف الماضي وشقاء قديم.

- أنت عرفت الشقاء في الماضي من أيامك؟

مد يده ليزيح الخرقة ويتفرس في تعابيرها بدهشة. فسّرت نفسها:

- ما عنيت قوله.. أنك رجل منعّم ميسور. تصاحب الملوك

وصيتك بلغ الآفاق. فأي شقاء يصيبك وأي خوف يحل بك؟

تنهد عميقاً واعتدل في جلسته رغماً عنها:

- لا بأس يا زينب فقد ملّ جسدي الاستلقاء. وسؤالك جلب عليّ ذكريات وخواطر لا يجدر أن أجابهها إلا كما يجابه المرء الضبع اللئيم.

- ما هذا بكلام رجل منعّم ولا سليل أكابر.

- أما التنعم فقد ولدتُ محاطاً بشآبيبه. ولو أني استكنت لما أريد لي ومشيت في الدرب التي خطها لي والدي لما عرفت إلا السعادة التي يطلبها العوام من الناس. لكني تركت نعيم الديباج والإستبرق ردحاً من عمري قصداً، وعاينت صنوف الشقاوة والعازة مختاراً.

- ولم ذاك؟ كلامك لا يستقيم مع ما أنت فيه اليوم؟ ومن الذي يدبر عن حياة التنعم ويقبل على مسالك الشقاوة؟

- يفعل ذلك الباحث عن وجوه أنضر للسعادة ومقاصد أعرض للنعيم.

تملى في ملامحها فوق المباح. العتمة زادت على كلّ بصره واضطراب قلبه والحبسة التي في حلقه. تأتأ وتردد قبل أن يهمس:

- ولعل ما نحن فيه الساعة وجه من وجوه ذلك.

تيبست قسماتها. انحبس نفَسه خلال لحظات صمتها. غاصت

في عينيه طويلاً قبل أن ترجع بجسدها وتحتبي بدون أن ترفع بصرها عنه. عرف أن عليه أن يواصل الكلام. جمع ثنايا لحافه على حجره وتابع متجاوزاً عبارته الأخيرة:

- سمعت أن السعادة على ثلاث صور. وأحسب أني شقيت وأفنيت جل عمري باحثاً عن الصورة الثانية منها؛ أعني السعادة المرتهنة بالمجد. لذا تغربت وتشردت ثم استكنت ويئست. وما عرفت لذة الرضى إلا آنفاً. لعله لاعج عشقٍ حل بي فلم أجد منه فكاكاً.

- عشق؟

- نعم يا زينب. والعشق مراتب وصنوف هو الآخر. قد عاينتُ المتصوفة الممسوسين بعشق الإله. وأنا عشقت فنّي فطفت الأرض أنقب عن صوره، كالمهجوس بحبيب لا يدرك له داراً ولا مستقراً.

- ووجدت محبوبك في آخر المطاف؟

يعلم أن مضمون سؤالها غير منطوقه. لكنه لا يقوى على النبش في المضمون فيلتف حول المراد:

- هذه الدنيا ما هي إلا معبر. سمّوها دار الفناء وكل لحظة لنا فيها مكتوب عليها الفناء من قبل أن تكون.

- أي جواب هذا؟

يصله الغضب المكتوم في صوتها ويرى لمعة نفاد الصبر في

عينيها. يعرف أنه يهذي بلا حمى ويعاود الكرة علّه يحسن التعبير هذه المرة:

- نيل المراد لا يعني انقضاء التيه. وماذا لو كان المراد أثقل من أن تحمله ظهورنا أو أثمن من تسعه مخازن قدرتنا.

- وماذا لو سعى المراد إليك بقدميه فلم يلق منك إلا الصد أو التعامي؟

اختنقت الكلمات في حلقه. لم يبق ما يقال في مقام التأويل ولا طاقة له على التصريح. شيخوخته وحال ضعفه أبلغ جواب وماله إلا أن يتمسك بسيماها. عاد إلى اضطجاعته وأرخى خرقة مرضه على جبينه. صوت خشاش الليل يدوي في سكون حجرته كصليل السيوف. وأنفاسها تصله كحسيس النار المضطرمة.

بعد طول سكوت سألها:

- أين أمك؟

مكتبة
t.me/t_pdf

قدّر أنها تطعنه بعينيها لكنه آثر التغابي. ردّت بصوت مبحوح:

- تزف محموداً إلى عروسه.

هب رافعاً جذعه الذي صرّ عليه كالباب العتيق:

- زفاف محمود الليلة؟ لم أعلم بذلك ولا خبرني أحد!

أعطته ابتسامة ميتة:

- هون عليك. إنما هو أمر دبّر بليل. ومثلنا لا يتزوج ليفرح بل

نتكاثر لنتقوى ببعضنا على خطوب الدهر.

خار مستلقياً ثانية. أحس بالحمى تزحف في أوصاله كأن خواء قلبه يستدعيها.

- وأنت لمَ لست معهم. تفوتين عرس أخيك؟

- فمن يعنى بك؟

- زينب!

لم ترد عليه هذه المرة. جلد ذقنها تجعد وجفناها احتقنتا. دعا الله أن يربط على فؤادها وفؤاده.

هدأت وتكلمت أخيراً:

- أسأل الله أن تحل عروسه عقدة لسانه.

نظر لها مندهشاً. تشاركا ضحكة متهالكة.

- لمَ محمود صموت على الدوام؟

- أمي تقول أن لسانه انربط لما شهد مقتل أبينا.

- رحمه الله. من قتله؟

- الإفرنج.

عض على شفته متأسياً. رجفة جسده زادت. تحامل على نفسه وقام إليها. تقدم منها بخطوات مترنحة حتى ارتمى إلى جوارها مستنداً إلى حائطها. أخذ برأسها ودفنه في صدره. أستشعر سخونة

دموعها. شم شعرها وربت عليه. أطبق شفتيه على العبارة التي كاد يلفظها لكن قلبه خذله..

لا عليك يا زينب. أنا سأكون أباك.

***

قبّل دومينيك ليوناردو على وجنتيه وصرف الجندي الذي رافقه. غمره بسيل من عبارات الترحيب وسار به مربتاً على ظهره حتى أجلسه على أليَن مقاعده. غاب وعاد بقدحين يتصاعد منهما البخار ثم جلس قبالته وجميع ما بين أذنيه ابتسامة:

- حضّرته لك بيدي فالخادم ما يزال نائماً في بيته.

لم يخفّ توجس ليوناردو. لمَ يرسل له دومينيك من يستدعيه خفية قبل طلوع الشمس؟ نقل ناظريه في الحجرة التي اختص بها الإسباني نفسه في أقبية القصر الإمبراطوري. شموع كثيرة وكتب أكثر وبضع حيوانات محنطة. خيّل إليه أنه لمح جمجمة بشرية خلف كومة قراطيس على الأرفف التي ارتفعت إلى السقف. لم يعرف بم يرد لكنه جامل مضيفه:

- ما أنشط بدنك. من يراك لا يظن أنك أفقت من نومك الساعة.

- إني لم أنم منذ الأمس!

دهشة ليوناردو جعلته يضيف:

- هي عادة جُبلت عليها. قلة النوم أصح للبدن وأنشط للعقل. ومن يملك ترف النوم في خدمة جلالته؟

يرشف ليوناردو من شرابه ويستطيبه. يرى دومينيك ذلك:

- مغلي الزهور بالزنجبيل. يناسبك ويرد عافيتك. لو علمت بمرضك لعدتك.

- ليس بيننا مثل ذلك يا صاحبي.

يمد الإسباني كفاً كثيفة الشعر ليربت على فخذه:

- هذا هو باب العتب بيننا.

- لا قدّر الله. حسبت أن ليس بيننا إلا الود الصافي.

- والذين ليس بينهم إلا الود لا يتزاورون؟ أسألك بالرب العليم؛ كم مضى منذ استفردنا ببعضنا في حديث وئام آخر مرة؟

ينبش ليوناردو في ذاكرته المشوشة. الرجل صادق. ربما مر عام؟ عامان؟ لم يجالسه إلا لماماً منذ جاء به فريدريك إلى صقلية. ولم يدخل خبأه هذا من قبل. لكن لديه عذره. فما عاد يرتاح لرفقته وصار يتحسس من تغيره عليه. يستمر دومينيك:

- لكن لا بأس فأنت معذور ولا شك. قد تفرقت بنا الدروب في خدمة جلالته منذ عرّفته بك وسعيت لأن أضمك إلى خاصته. وهو ما أفخر به وأرجو أن يجعله الرب في صحيفة حسناتي. والآن انظر إليك. صرت ذا شأن وما عادت لك بنا حاجة وقد ارتقيت المراقي. وإن كانوا يقولون عندنا في الديار أن الألم على قدر السقوط.

يتغصب ليوناردو التبسم. هذا حديث كله تعريض. توجسه صار خوفاً وحيرته صارت ترقباً ينغزه في صدره. بادر بالسؤال:

- كيف هي مهمتك في نابولي؟ ظني أن أمور المدرسة التي عهد بها جلالته إليك تسير على خير ما يرام.

- أرى أنك تتابع خبري وإن جفوت عني.

- ليس بيننا إلا حُسن الوصال. وتردني أخبارٌ من هنا وهناك.

- مثل ماذا؟

يحس بالسؤال كالفخ تحت قدميه. يتمتم بحثاً عما يقال:

- كل الخير. المدرسة تضم ألمع الدراسين. وأنت بموهبتك استقدمت معلمين كباراً في الفلك والمنطق، فللرب المحامد.

- ولم تسأل نفسك لم لست ضمن معلمي تلك الجامعة الإمبراطورية الوليدة؟

يعيد ليوناردو ترتيب الأفكار في رأسه وقد تبدت له آفاق جديدة للحديث. يقدم من الإجابات آمنها:

- أنا؟ أنا رهن توجيه مولانا إن شاء استبقاني وإن شاء بعث بي حيثما أراد.

- بالضبط!

يقولها دومينيك وهو يحطّ بيده على كتف ليوناردو موافقاً:

- لا شيء يتم إلا بأمر الإمبراطور ووفق مشيئة جلالته.

تلك الحقيقة على بساطتها تغافل عنها الكثيرون. والإرادة الإمبراطورية ليست محض هوى ولا خبط عشواء. جلالته لديه مرادات كبرى تليق بإمبراطوريته الشاسعة وبفكره النيّر.

- ومدرسة نابولي جزء من ذلك؟

- ليست كأي مدرسة. يسمونها جامعة. شيء أشبه بدار الحكمة التي كانت في بغداد ولعلها تفوقها يوماً. لا يخفاك أن البعض، في البلاط البابوي بالذات، بل أحدهم قداسة البابا حفظه الرب، لديهم تحفظات حيال هذه الأمور. لكن الله سينصف جلالة الإمبراطور وسيعرف الكل يوماً سمو مقصده.

- إذا كان البابا غير راضٍ فإن الناس راضون، على ما أسمع.

إعجاب دومينك لا يبث إلا مزيداً من الخوف في روعه. يفرك الإسباني كفيه:

- ليوناردو أيها الثعلب! كأنك تقرأ أفكاري. حب الرعية هبة ربانية لا غنى عنها لأي راعٍ. ها أنت ترى أن الخلاف اشتد بين جلالته والبابا گريگوري. لكن إمبراطورنا التقيّ لم ييأس واستمر في الترتيب لمعركته المقدسة بالرغم من حرمان گريگوري بل وحثّه باقي ملوك أوروبا على عصيان أوامر إمبراطورهم بالحشد والبذل. والنتيجة؟ بلغك ما حصل في القداس الأخير في روما؟

- هذه لم تبلغني.

- ما إن بدأ البابا في إلقاء موعظته، حتى شرع الرعاع في التشويش عليه وبث الهمهمات في حرم القديس بولس. فعل مشين وزندقة مرفوضة بلا شك. لكن ذلك دليل واضح على أن الناس تحب جلالته فعلاً. نرجو أن يعي قداسته ويعدل قناعاته.

- والمدرسة.. جامعة نابولي، تلقى رفض البابا كذلك؟

- بطبيعة الحال. فهي تسحب البساط من تحت المجّمع الكنسي، وتضع المفتاح المعرفي في يد الإمبراطور بعدما استأثر به المحراب الرسولي. وأنت خير من يدرك معنى ذلك.

يقتنع ليوناردو. ولو أرسله فريدريك ليدرّس في نابولي وفق مذهبه الهرطقي لكانت نهايته بلا شك. لا يصونه عن الأذى إلا الحمى الإمبراطوري.

- أتفق معك تماماً يا صديقي.

- لكن المسألة ليست باليسر الذي تظن. مهمتي محفوفة بالمخاطر. فليس من المستغرب والحال كذلك، أن جلالته أمرني بأن أكون في غاية الحرص فيما أقرّ من دروس الطب والفلك بالذات، خاصة وأن كثيراً من علومها مستجلب من عند السراسنة. بل إنه يشرف بنفسه على مناهجها وأرفع له بأسماء كل من يلتحق بها. أقل انحراف عن المرسوم كفيل

بهدم الترتيب من أساسه.

- أعي هذا الهم جيداً.

- وتعرف أن الإمبراطور لا يقبل بأقل مخالفة لأمره.

- هذا شيء مفروغ منه.

- فإذا قلت لك بأن تلك الخطيئة الكبرى تمارس تحت ذقن فريدريك هنا في عرين ملكه.

بحث ليوناردو عن ريقه الجاف مثبتاً عينيه بهيئة دومينيك المنذرة بالوعيد. استحضر لحظة انقضاضه على ابنه لوكا في عقر داره قبل سنتين.

- لا أفهم ما تقول.

- تعرف أن جلالته من أعظم أنصار التجريب العلمي.

- أعرف.

- وتعرف أن له آراء متقدمة، في دراسة الحيوان والنبات، والسلوك وخصائص المخلوقات.

- قد حدثني جلالته عن ذلك بنفسه وتلقيته بكل إعجاب وإجلال.

- سمعت عن البحار المسكين نيقولا؟

- لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

يقوم دومينيك من مقعده ليتناول شمعة. يفتح باب خبئه

ويتلفت في الممر المظلم يميناً ويساراً ثم يعود لجلسته قبالة ليوناردو:

- نيقولا هذا كان شاباً ذا موهبة فريدة. حتى زعم العوام أن أمه سمكة أو حورية. كان بمقدوره أن يغوص تحت الماء حابساً أنفاسه أطول من أي رجل آخر.

- لا شك بأنه أمر مدهش.

لا يكترث دومينيك للتعليق:

- مولانا سمع به فأحب أن يختبر موهبته. وضعه على مركب وأمرهم بأن يأخذوه لأعمق نقطة في البحر. غاص مرة ومرتين وثلاثاً. وفي كل مرة كان يظل تحت الماء مدة أطول. مولانا أراد أن يعرف حد مقدرة الإنسان فأمر تابعه نيقولا بأن يستمر.

- إلى أن غرق.

- حادثة مؤسفة بحق.

- بالتأكيد.

- أمر مولانا العطوف بجنازة لائقة لتابعه الفقير.

- لا يستغرب ذلك من جلالته.

- لماذا إذن وجدوا القبر منبوشاً وجثة نيقولا مختفية؟

اقشعر جسد ليوناردو للمنظر المرتسم في مخيلته. أيكون الرجل موهوباً بموهبة التنفس تحت التراب كذلك؟

- لا جواب لدي. مسألة محيرة بالفعل.

- ليست محيرة والجواب يعرفه كل من مارس الطب أو درس مبادئه.

- أنت تخاطب الشخص الخطأ إذن.

- لكنك ربما تعرف الشخص المراد.

- لو كنت أفتي في الطبابة لما عانيت الحمى في فراشي لأيام. لا أعرف خبيراً في الطب إلا ثيودور وهو مرتحل في سفارته من أسابيع.

- ومن أخبرك بأمر هذ التكليف الإمبراطوري؟

ود ليوناردو لو ابتلع لسانه أو امتلك القدرة على الاختفاء بسحر ساحر. لكن نظرات دومينيك المسلطة عليه أجبرته على أن يقهر خيبته بنفسه ويبوح:

- مايكل.

- مايكل! الاسكتلندي!

هواء القبو صار أثقل في رئتي ليوناردو. عينا دومينيك تخترقانه حتى أحسهما تجوسان داخل دماغه. تردد لبرهة قبل أن يهتف:

- لا أظنك تقصد أن مايكل هو من فعلها؟

- وما يدريني؟ أليس صاحبك ونديمك وعينك على أسرار الإمبراطور؟

أطراف ليوناردو ترتجف كمن أصابه الفالج. قلبه يضرب في صدغيه وحلقه أجف من النعل القديم. هذه تهمة كفيلة بأبشع ميتة وبتشريد كامل عائلته.

- اسمع يا دومينيك. أقسم لك..

قاطعه الإسباني وملامحه تتحور بالشؤم:

- هل سمعت بالنيغرومانشيا من قبل يا ليوناردو؟

العبارة جديدة على أذنيه لكن لها وقعاً مريعاً. يميز أصلها اللاتيني ويربطها بسياق الكلام فيزيد ذعره:

- ما معناها؟ العِرَافة السوداء؟ أتتكلم عن السحر؟

- سحر أسود من ألعن الأنواع. قائم على أبشع الممارسات. مضاجعة الموتى، أكل لحومهم، فتح أجسادهم وانتهاك أعضائهم تحت طلاسم وشعوذات شيطانية بحثاً عن سر الموت ومفتاح الخلود.

عينا الإسباني برزتا وسحنته صارت تشبه الشيطان حقاً. صوت ليوناردو علا وهو يكاد يقوم من مكانه:

- ماذا دهاك يا دومينيك؟ تعرف حق المعرفة ألا شأن لي بهذه الهرطقات!

- وماذا عن صاحبك؟

- مايكل سكوت؟ لا أصدق ذلك ولو أقسموا لي.

- أنت في صفه إذن.

الدوار في رأسه يسكته والجدران من حوله تنطبق عليه. هذه واقعة لم ترد على البال. نجا من أحابيل رهبان بيزا وها هو يتخبط في شراك ملأ فريدريك. أي مستنقع لزج علق به؟

المعلم الإسباني يقف ويحدجه من علو:

- يسعك أن تنصرف الآن. اعتبر ما خبرتك به تحذيراً لكن أياك أن تبوح به لمخلوق. أنبهك لمصلحة نفسك فافتح عينيك وأذنيك.

يقوم ليوناردو متخبطاً لا تكاد قدماه تحملانه. يسحبهما سحباً إلى باب القبو اللعين. يقع نظره ثانية على الجمجمة بين الدفاتر، ترمقه بمحاجر فارغة وابتسامة أبدية. وضع يده على مقبض الباب الثقيل كأنه صخرة فجاءه صوت دومينيك:

- بوناتشي.

التفت إليه بوجه لا دم فيه. تعابير الإسباني مخيفة أكثر من جماجم الأموات:

- افتح عينيك وأذنيك. أنا سأنتظر منك ما تنقذ به رأسك.

*

(١١)

- الكامل يعبث بي.

سكت الرجال وملكهم يحدث نفسه. من يراهم لا يخطر بباله أنهم المقدّمون من الجند والحكماء في البلاط الإمبراطوري. بضع رجال في حوض ماء ساخن. فوق رأسهم سحابة من بخار زيت القرنفل. ليوناردو يكاد يختنق وقد اختلطت الأدخنة بالأبخرة في صدره. لكن فريدريك قرر أن هذه خير وصفة لإخراج رطوبة الشتاء من أجسادهم. ثيودور، الواصل لتوه من سفرته البعيدة، تجرد وغطس معهم بقذاه وغباره. الراهب الإنطاكي المعتق في خدمة الملوك يعرف ما يراد منه بدون سابق أمر ولا توجيه. ما كان ليخاطر بمخالفة حال مليكه وقد أسمعه لتوه خبراً يكدر الخاطر ويفسد المزاج.

سأله الإمبراطور وهو يلصق جسد راقصته المفضلة به:

- تقول إنه تحجج بموت أخيه؟

- الملك الكامل أكّد أنه لا يحمل لكم إلا أعمق الود يا سيدي وقد حمّلني بعطايا نفيسة. كان ينوي أن يفتح لكم الطريق إلى أورشليم. لكنه يخشى ملامة أتباعه وخروجهم عن طاعته. ولا يمانع أن يدفع لكم سنوية توازي خراج بيت المقدس إن كان ذلك يرضيكم.

- هذا كلام جديد يخالف الترتيب القديم. ولم بدّل رأيه؟ والمواثيق والهدايا بيني وبينه؟ وسابق كلام سفيره الأمير فخر الدين؟

يكافح ثيودور السوائل المنهمرة من عينيه وأنفه بفعل البخار الحارق. يغرف من الماء الحار ويشطف وجهه. يفكر ليوناردو أنهم يسبحون في حساء من الوسخ ويقاوم اشمئزازه. يتمالك ثيودور نفسه ليجيب:

- سألت عن ذلك يا سيدي بالسر والخفية. لي صحبة قائمة مع الأمراء الأيوبيين في القاهرة. ويظهر أن الكامل أراد أن يجعل بينه وبين مُلك أخيه الأشرف في الجزيرة حائلاً، فيمكنكم من مُلك أخيه الآخر؛ الملك المعظّم، في أورشليم.

- فيضرب عصفورين بي. يزيح المعظّم من عرش أورشليم ويتقوى بي على الأشرف. فلما مات المعظّم ورثه هو، وما عادت له بي حاجة.

يسود الصمت مجدداً. وجه فريدريك احمرّ غضباً أو من حرارة الحمام. لكنه يغطس بكامل جسده في الحوض ثم يبرز وشعره

النحاسي ملتصق بوجهه. يزيحه عن عينيه الساطعتين بالحنق غائباً في أفكاره. يصرف الجارية فتترجرج أعضاؤها وهي تخطو مبتعدة. يدهمهم زعيق ڤون سيلزا:

- ملك السراسنة تجرأ عليك وقد أمهلته وأفسحت له والآن جعلك أضحوكة. ولا ملامة إلا عليك.

يرميه فريدريك بنظرة منذرة. لكن كبير الفرسان التيوتونيين لا يعبأ لتهديد سيده وقد استمد نصف قوته من إخلاصه للصليب:

- گريگوري ضربك بمطرقة الحرمان فرددت عليه بحشد حملة لن يباركها. وملوك أوروبا يتقاعسون عن إجابة ندائك أيها الإمبراطور المحروم، وما معك من مال لا يجهز أكثر من مئة فارس. والآن يدير لك ملك مصر ظهره وقد تضاعف نفوذه ورجاله. ولا يلبث البابا أن يشهّر بانخذالك من قبل أن تضع قدماً في الميدان.

تخرج الكلمات الجرمانية من بين أسنان فريدريك ثقيلة بطيئة:

- اسكت وإلا أغرقتك في مكانك.

تزيد حرارة خليط الحساء بغليان دماء الرجال فيه. فريدريك يفكر بصوت عال والعرق يصب من جسده ليضيف إلى الحوض:

- لا يسعنا أن نرجع الآن وقد بلغ أمر حملتنا المسامع واستقبلها الناس بالقبول. والإسبتارية وفرسان الهيكل في الساحل الشامي يتوقعون ترددنا ليشيعوا بين الخلق أننا

تخاذلنا عن نداء الرب وأن التاج لا يليق برأسنا. والكونتات والبارونات العصاة ستقوى شوكتهم بذلك ويتمردون ولا يتوانى اللقيط گريگوري عن مباركتهم ليستبدلنا بألعوبة يحركه كيف يشاء.

حاجبا ليوناردو كادا يطيران لكنه يكبح نفسه وقد صعقه هذا التجديف في حق قداسة البابا. يدور بعينيه خلسة بين الوجوه فإذا هي جامدة كأنها تماثيل. يد فريدريك تعبث بسطح الماء:

- المراكب جاهزة والميرة وافرة والجند على أهبة الاستعداد وإن كان العدد قليلاً فالهمّة عالية. ومن يدري فقد يثير تحركنا الأطماع فيلحق بنا جيش جِنِوة أو أمالفي، والتيوتونيون لن يتأخروا عنا.

يهب ڤون سيلزا بجسده الهائل واقفاً وقد أخذته الحماسة. سوأته قبالة وجوههم وهو ينتفض بصياحه:

- نحن معكم يا صاحب الجلالة إلى آخر الدنيا، نخوض في دماء السراسنة ونستنزف دماءنا إلى آخر قطرة في سبيل مجد الرب!

يهز فريدريك رأسه موافقاً ويشير له ليجلس. يلتفت إلى مايكل:

- اضبط حسابات نجومك واستعن بالشياطين وبالسحر إن لزم الأمر. أريد أن أعرف أوفق وقت للانطلاق بالجيش إلى أورشليم. شاور عفاريتك الكبار بعل زبول وتلك الأخرى المتكفلة بالعلم الغيبي.

- تقصدون السلطانة عشتاروث.

- لا تعنينا استعانتك بملكة الجن أو بشبح مريم العذراء. أريد منك جواباً حاسماً ولو تعثرت الحملة لوباء أو عاصفة فسيتدحرج رأسك أنت أولاً. وأنت يا ثيودور تقرأ زيجك وتكشف طوالع بروجك أيضاً وتوافوننا بما تستقرون عليه.

يخرج الإمبراطور من حوض اغتساله ويتبعونه. ليوناردو آخر من يتحرك فيهم. الصدمة يبست أطرافه ونظرات دومينيك الإسباني هزّت قلبه وقلبت أفكاره.

***

مريمة تولول والجندي الإمبراطوري يجرجرها من ذراعها حتى يكاد يخلعها. زينب حاولت المقاومة فلطمها جندي آخر ثم حملها إلى عربته. العسكر تفلتوا في الدار يلقون بالأغراض وينهبون الدجاج والبيض. حتى الحصان ساقوه معهم. تم ذلك كله في لمح البصر وليوناردو يهرول بينهم كالمدوغ. صيحاته التي أرادها آمرة ناهية صارت توسلات مبحوحة والجند لا يقيمون له قيمة. تمسك بذراع أحدهم المغطاة بالحديد وقبل أن يصفعه هتف به:

- أقول لك أنا مستشار جلالته. بأي حق تنتهكون حرمة بيتي؟

الجندي تراجع خطوة وراز الشيخ المفجوع بعينين ضيقتين. حرر ذراعه بخشونة ومضى بحجته:

- جاءتنا الأوامر من القصر. إن شئت اسأل آمرنا وإن شئت اسأل منجم القصر.

تجمده الدهشة ولا يكاد يصدق أذنيه. ينطلق ماشياً وليست عنده دابة يركبها حافياً بثياب نومه التي عليه ويصل بعد ساعة وقد أدميت قدماه. يدق الباب بكفين خائرتين فيتلقاه وجه مايكل سكوت المربد.

- الجنود نهبوا بيتي وأخذوا مريمة وزينب!

عينا مايكل ميتتان وفمه مطبق. يتشبث ليوناردو برداءه والكلام يتسلل من بين أنفاسه المتقطعة:

- أدركني يا مايكل!

- لا تصدق أن نارك أحرقتك؟

يتصنم جسده ولا يعرف هذا الواقف أمامه ولا صوته الجديد. يحار فيما يقول لكن كلمات الاسكتلندي الغاضب تجهز على باقي تماسكه:

- أنت الذي أرسلت تابعك الأخرس ليتجسس علي؟

يخور على ركبتيه وقد انهارت مقاومته. ما خشيه وتجاهل احتماله وقع. كفان شيطانيان يدفعان كتفيه دفعاً نحو الأرض ولسانه ثقيل كالفولاذ بين فكيه. يتركه مايكل في مكانه. يظل مُلقاً على الأرض حتى تعاوده نفحة من العافية فيقوم ليدلف إلى الدار ويلقي بنفسه على مقعد بالمجلس الذي جمعهما في ليالي الأنس التي ولّت بلا رجعة.

مايكل جالس قبالته ونظراته تؤلم كأنها رؤوس النبال. أهل الدار واقفون خلف سيدهم وقسماتهم هي الأخرى محملة بالضغينة. أي هاوية انفتحت تحت رجليه؟ جزعه تحول إلى خجل وخوفه على زينب وأمها تبدل بخوف غريزي على حياته هو. أيكون وقّع صك إعدامه بيده في لحظة غباء؟

بعينين لا ترمشان يواجهه مايكل سكوت:

- عثر الخدم على محمود في حجرة كتابتي يعبث في المجلدات. الأحمق حاول الفرار فعرفت أن لديه ما يخفيه. ولِمَ يهتم خادم جاهل بقراطيس الفلك والطب؟ أردت أن تسرقها لتنسب ما فيها إلى نفسك؟ أم أن ثيودور الملعون حرضك عليّ؟

ثم انقلبت سحنته كأنه تذكّر القيامة وغرس أصابعه في عضد ليوناردو حتى آلمه:

- ويلك! اشترى ذمتك ملوك الأيوبيين؟

- بل دومينيك.

عينا مايكل تجحظان والمفاجأة تتملكه. أما ليوناردو فيحس عظامه رخوة كالخبز في الماء. لا يذكر ألماً حاق به أشد من الذل الذي يسحقه الآن أمام صاحبه. ما دفعه إلى فعل ما فعل إلا الخوف الذي استولى على روحه.

- دومينيك قال إنك تتعاطى السحر وتستنطق الموتى. لم أصدقه لكني أردت أن أستوثق. الشك اللعين أزهر شوكاً

في قلبي ولم أقدر على مواجهتك. خجلت فأرسلت محموداً ليأتي لي بكراريسك لأطلع وأعرف.

ردد مايكل:

- سحر وموتي؟

رفع ليوناردو عينين مطفأتين ووجهاً غار منه الدم:

- بعل زبول، ونيقولا الصياد. تعرف هؤلاء؟

- من أخبرك عن الصياد؟

- لا أراك تنكره.

يحتقن وجه مايكل. يفتح فمه لينبح بعبارة مدوية لكنه يتراجع. يلتفت إلى خدمه وعياله ويصرخ فيهم:

- انصرفوا!

صارا وحدهما. ليوناردو متكوم على نفسه كالخرقة البالية ومايكل دافناً وجهه في راحتيه.

صوت مايكل يقطر مرارة:

- إيكاروس ألصق جناحين بالشمع في ظهره وطار. حذره أبوه من الاقتراب من الشمس لكنه لم يسمع. أذابت الشمس الشمع فهوى. حذرتك مراراً من الشمس يا ليوناردو. قلت لك أن تهيئ قلبك وتتجلد.

- أي شمس؟ هذا قاع سحيق مظلم.

وقف مايكل وهز قبضته بثورة مكتومة. حمى ليوناردو وجهه.

- لا تفتِ فيما ليس لك به علم!

لا يضع ليوناردو ذراعيه عن رأسه. أو أنه يحجب نفسه عن العينين المتأججتين بكل حجاب ممكن. وجه مايكل تمعر وتداخل. الخيبة تعصر قلبه وحزنه على صاحبه الذي كان يفوق نقمته منه:

- أنت غرّ جاهل يا ليوناردو. لا يغرنك الشيب الذي في صدرك. إن أنت إلا متعالم تحسب الدنيا وأسرارها تابعة لأعدادك وحساباتك. وما ذاك إلا العالم المحسوس. الدنيا كهف ومغاراته لا آخر لها وأنت تائه وشمعتك قصيرة. ماذا تفيد أعدادك مع أسرار العوالم الخفية والحجب المستورة؟ ما نفع المتتاليات والأرثماطيقي مع بواطن الروح، واليوم الآخر، والسماويات والغيبيات؟

- وما شأننا بها؟

تدوي صيحة مايكل:

- مثلك لا يعرف من الديك إلا منقاره! ومن أقامك حكماً؟ لأن لم تهتم أنت فاعلم أن غيرك يخوض في بحارها التي لا أواخر لها. تزعم أنك مهجوس بهاجس الكشف؟ أراك حجّرت الواسع يا بيزاوي فحصرت أنوار المعارف فيما برعت به واستكثرت على سواك الانطلاق لما وراء حدّه وخارج حظيرته. ألم تتعلم من مخالطة الملوك؟ ألم

يزدك تواضعاً ما وجدتنا عليه من ضروب العلم؛ الطب، والكواكب، والخيمياء والتفلسف واللاهوت والكهنوت وحال الوحش والطير. وكل ذلك قطرة في البحر وباب إلى الإيوان الأرحب.

- إيوان السحر والشعوذة؟

- ما أجهلك وما أصغر عقلك!

لا يجد ليوناردو في نفسه قوة ليغضب أو ينافح. يتابع مايكل إهاناته:

- قلت يوم رأيتك أنك أقرب للدابة في رخاوتك وخنوعك. تفرست فيك فلم أرَ أسداً ولا صقراً. لكن فريدريك! ذاك جارحٌ لا تسعه سماوات الدنيا ليحلّق. سبعٌ لا يحدّه عرين. وما التحقت به ولا أويتُ إليه إلا لاتفاق المرام واتساق الهوى.

- فريدريك؟

- أتحسب، أنت والإسباني الحقود، أني أبحر عكس شراع فريدريك، أو أغزو تحت غير رايته؟ هيهات. أنا مايكل الاسكتلندي. درست في أوكسفورد وغالة حتى استنفدت حقير علومها فارتحلت إلى طليطلة وبززت أقراني. البابا بذاته بلغه أمري وأراد أن يقلدني تاج الأسقفية فأبيت. ومن يرضى بتاج الشوك؟ أردت أن أتحرر من القيد الأرضي

لأجول فيما وراء السماء وما تحت الأرض. وفريدريك ليس بأدنى مني همة. كلانا تحرقه شعلة السؤال وتأتي أنت بفمك الضيق لتنفخها؟

- فريدريك أمرك أن تنبش قبر الصياد المسكين؟

ينازع مايكل ابتسامة رأفة. لا يدري أيضحك من سذاجة صاحبه أم يحزن لها؟ يدور حول نفسه منهمراً:

- قدّرت أن فهمك لن يحيط بما نحن فيه فخبأته عنك. عقلك محدود مربوط بفنّك ونهمُنا للسؤال كنهَم جهنم للحطب. نريد أن نعرف أين الله وأين جنته، وما سر روحه المنفوخة فينا؟ وأين هو موضعها من الجسد الفاني؟ وما حقيقة الألم والفرح وسائر العوارض؟ ومن يقطن الآفاق السريّة التي لا تدركها الأبصار؟ ما هيئات الملائكة والشياطين؟ ولم اختُص الأنبياء بالرسالات وكيف هو شكل الوحي الذي تنزل عليهم؟ ولم يحصل النسيان وما النفع من مخ العظام وكيف يصدر البول والمني من قناة واحدة؟ وما أصل منطق البشر وتعدد ألسنتهم وما منطق الطير والوحوش؟ ما حقيقة بنيان العالم ومن أين تولدت ملوحة البحر وزرقة السماء وسعير الشمس؟ أفي أي مما انشغلت به جواب على أي من ذلك؟ أفكّر به عقلك المجدود وتناوله حسابك العاجز؟ ما أبأسك يا بوناتشي!

تعلقت أنظار ليوناردو الذاهلة بملامحه المجنونة وقد ظهر له

ما لم يلمح طوال سنين. هان عليه بعض ندمه. ليس هذا مايكل سكوت الذي يعرف! لكن ما عاقبة هذه المكاشفة المريعة؟

يعاود مايكل الاندفاع:

- رجل يغوص تحت الماء فوق ما يتحمل سواه. ما سره؟ مثلك يسأل ويهز رأسه متعجباً ثم ينصرف لخبز يومه، أما نحن فنُقدم ونفتش. مات فشققتُ عن صدره وقد شققت عن صدور غيره من قبل. درست رئاتها وأحشاءها وقارنت بينها لأدرك أسرارها. ذلك منهج التجريب والقياس الذي أعمل الفقهاء عقولهم في نظرياته. أنا تجاوزت النظر وأعملت يديّ. تلوم عليّ؟

لا يرد ليوناردو على المنطق المخبول. ولا يأبه له مايكل:

- أنت! لا تملك إلا أن تبكي محبوبتك كالمأبون، وقد أينعت بزهرة شبابها أما نارك فخبت. أما كنت ستقبّل رجليّ متوسلاً سر الفتوة والشباب وقد شغلتُ به. انظر إلينا وقد وهنت عظامنا. أعضاؤنا شاخت والأكلة ترهق أمعاءنا فلا تجد لها مخرجاً. أما من رجعة عن هذا الطريق؟ ولم الاستكانة للأفول؟ أمرَ فريدريك رجلين فأكلا الطعام ذاته. جعل لأحدهما فراشاً لينام هانئاً وأمر الآخر فاشتغل في حقله. وفي آخر اليوم شققت عن جوفيهما ودرست أثر ذلك على أمعائهما. أليس ذلك باباً من أبواب العلم؟

- مايكل!

- وأكثر من ذلك تباً لك. قد جعل فريدريك في أحد قلاعه عيالاً صغاراً محجورين في حجرات منذ ولدتهم أمهاتهم. لم ير أحدهم الشمس ولا قابل كائناً منذ وعى. نصبر عليهم حتى يكبروا لنعرف أي لسان فُطروا عليه؛ الرومي أم العربي أم الإغريقي؟ أليس ذلك سبيلاً من سبل العلم؟

- لو كنت أعلم شئياً من ذلك ما صاحبتك يوماً واحداً.

- وحقيق بك أن ترسف في الجهالة. أنت ضعيف. عالة على الفاهمين. غرّتك فوانيس الفهم فعميت عن الشموس التي فوق رأسك.

- لا أريد شمسك.

- مثل الرعاع تكتفي بالمتاع.

- أنا بذلك راضٍ.

- كالبهم ترعى وهي تساق إلى الذبح أو تهلك حتف أنوفها.

- تهددني؟

- لو أردت بك سوءاً لما كنتَ قائماً أمامي الساعة.

لا يدري ليوناردو إن كان ما يعاينه حلماً أم واقعاً. وجد نفسه يسأل:

- ما حل بزينب وأهلها؟

يتبسم ليوناردو مشفقاً:

- قد أدركتهم رحمتي. وتابعك محمود كان جديراً به أن يسجن أو يصلب. لكني رأفت بحالهم فألحقتهم ببقية قومهم في لوتشيرا.

- تعاقبني بهم؟

- اشكر ربك أن نجّاك مني. ولو علم فريدريك بخيانتك لأذاقك الويل.

- تخبئ خبري عنه إذن؟

- اسمع يا ليوناردو. ما عادت بيننا مودة. ولا أعاملك إلا بما يلزم من تكليف في حضرة فريدريك وما سوى ذلك فإني وإياك كالماء والنار. فالزم شأنك وإياك عني. وإن شئت كلمتُ فريدريك فردّك إلى بيزا أو ألحقك بخليلتك. والآن اغرب عني فلا أراك إلا مرغماً مكرهاً.

*

(١٢)

عكّا، الساحل الشامي. ٦٢٥هـ، ١٢٢٨م

زخة مطر استقبلت الأسطول الإمبراطوري. الجند ملأوا أسطح المراكب حراكاً وضجيجاً في استعدادهم للرسو. تفاءلوا بالغيث فترنموا بالصلوات وأنشدوا أناشيد النصر.

ثيودور الإنطاكي وجدها بشارة سعد توافق قراءته للزيج. الرحلة من أوترانتو على الكعب الإيطالي إلى قبرص إلى هذه البقعة جرت على أتم ما يكون، ولا شك في أن فريدريك راضٍ عنه في خضم الهموم التي تشغله. دفن زوجه الصغيرة التي قتلها النفاس وبث غارات تأديبية ليرسخ سلطته على البر الأوروبي، أرسل سفارة فاشلة إلى البابا يسترجيه أن يبارك حملته قبل أن يبحر بجيشه وفي نيته أن يتفادى المعركة مع الكامل. وهل تصح تسمية هذه البضع مئات من الفرسان والمرتزقة بالجيش؟ إن هي إلا جوقة حرس. لم يغزُ ملك صليبي بعسكر أقل من هؤلاء.

الهمّ الإمبراطوري بات الآن همه، وقد اصطفاه فريدريك واصطحبه معه دوناً عن البقية ليكون سفيره وترجمانه عند الكامل.

دومينيكوس وميكائيل أُبقيا في صقلية. لكن فريدريك قرر أن يجلب معه الرياضي البيزاوي أيضاً. الكل ألّمت به الدهشة لهذا القرار الغريب. ومتى كانت قرارات «أعجوبة الدنيا» تابعة للفهم المباشر؟

أخذ نفساً عميقاً اختلط فيه طعم المطر بالبحر بهواء البر الشامي الذي يلوح أمامه. احتضن الساحل بعينيه وقلبه خفق لعودته إلى مسقط رأسه ثانية، إنما ضمن جيش غازٍ هذه المرة. لكنه تعلّم. لقنه أبوه وجده أن الأرض باقية أما الولاءات فتتبدل كما القلنسوات. خدموا فرنجة الرها والأتابكة الزنكيين، واليوم يتقدم سليل عرش هوهنشتاوفن ليأخذ مكانهم. ولو مُدّ في عمره وتقلّبت صفحة كتابه فلعله يخدم ملوك الخوارزمية أو حتى خان المغول الذين تتقدم جحافلهم كالنار في الهشيم.

رفعت مركبهم موجة مباغتة فاختل توازنه لكنه وجد ما يستند إليه. فوجئ بمن يشاركه وقفته الصامتة على جؤجؤ السفينة. كان وجه ليوناردو مبتلاً بما ظنه في البدء ماء المطر، لكن الكهل البيزاوي كان يذرف الدمع! الرجل نفسه كسيرة ومغتم على الدوام كأنه أرملة. لأسابيع حاول ثيودور أن يسري عنه بلا جدوى حتى ملّ منه. مهما يكن الأمر فقد كانت مسؤوليته أن يصلح المعطوب وإلا لامه فريدريك. الصحبة الملكية لا تحتمل الضعف ولا الانشغال بغير ما في الرأس الذي عليه التاج. وإن كان الإمبراطور قد ألحق البيزاوي بحملته لمهمة يدخرها له، فمن الخير لهما أن يكون على أتم جهوزية وإلا تخلص منه كالفرس العرجاء.

- حالك لا تعجبني يا أبا لوكا. كأنك تلجّ في الكآبة مع الأيام، ومثلك حقيق به أن يسرّ وقد اختصّك سيدنا بالرفقة. أهي الوحشة بعد طول تغرّب عن الديار؟ أم بقية مما وقع بينك وبين الاسكتلندي؟ أو أن الشيخوخة هدّتك يا رجل!

لا يبدل ليوناردو قسماته الساهية. عيناه هائمتان على خط اليابس البادي وراء الغمام. يتركه ثيودور لأفكاره ويسلم وقفته هو الآخر للمركب المتهادية فوق صفحة البحر. أول المرحبين نورس يحوم حول رأسيهما. لو أسقط شيئاً من ذرقه عليهما فسيعدّها ثيودور علامة سعد أخرى.

لا يميّز إن كان ليوناردو يكلمه أو يحادث نفسه. لكن صوته يصله مختلطاً بالموج المتكسر:

- خرجت منها قبل ثلاثين سنة. كانت عكّا محطتي الأخيرة في رحلة امتدت سنين، ما أبقيت مدينة عامرة بالعالمين إلا زرتها. تركت بيزا صبياً ورجعت إليها رجلاً، خائفاً وجِلاً في الحالين وما بينهما. خوفي من غائلة الأيام وداهِم الخيبة. وها أنا ذا؛ شيخٌ قد استدبر الدنيا واستقبل الآخرة، أعود إلى عين المكان بعين الخوف في صدري. خبرني يا ثيودور؛ أما من أمان لهذه الدنيا وتقلبها وتخطفها لمن نحب؟ متى نرتاح ونستكين؟ وإلى متى رجاء النجاة من الرزايا، كالسائر في الوادي لا يدري متى يدركه السيل؟

- هذا كلام المقبل على المصائب، أعاذنا الله جميعاً. ولا يليق بما

نحن فيه وللرب المحامد. إن كان هذا قولك وأنت فيما أنت من التمكين والعزّة، فما يقول من معنا من الجند والعبيد؟ وأحدهم لا يدري إن كان يحيا لساعته دون أن يغتاله سهم أو يهوي عليه حجر.

- أولئك انقطعت آمالهم عمّا في أيادي غيرهم وأيقنوا عاقبتهم فارتاحت نفوسهم. اليأس عصمة يا صاحبي.

- وأنت من أي شيء يأسُك الساعة؟ طب نفساً فلن يوليك الإنبرور على سرية ولا ينزلك الميدان لتبارز بسيفك.

- ليته يفعل.

- ويحك يا رجل كأنك ترجو الموت! أقلقتني فبُح. أيطلبك أحد قصاصاً؟ أم عليك دين لا ينقضي؟

ينقل إليه ليوناردو عينين مثقلتين بالحزن. أتكون الوقيعة بينه وبين مايكل أصابته بكآبة مزمنة؟ أو أنه فقد غالياً؟

- مللتُ يا ثيودور. مللتُ ركضنا بين المنازل ذاتها ولهاثنا إذ نستبق. انظر إليك وإلي. أنت تعود إلى الشام على غير تدبير منك. وأنا أفرّ منذ وعيت، من بجاية إلى مصر إلى عكّا، ثم بيزا إلى صقلية ومردّي الآن إلى عكّا. كأنها رقعة شطرنج نتدافع بين خاناتها نحسب أنها الدنيا برحابتها وما هي إلا ذراع في ذراع.

- أكان يرضيك لو لبثت حيث ولدت إلى أن ينقضي أجلك؟

يهز ليوناردو رأسه والمرارة تكبل أنفاسه:

- حتماً لا. وهو ما يزيد غمي. فلا تلك كانت لترضيني ولا ما أنا فيه يعزيني. أقول لك مللت!

- والعلم الذي بين جنبيك؟ وما أفضت في تصنيفه وكتابته حتى بيعت المخطوطة من كتبك بوزنها فضة؟

- لعل ذلك أكثر ما أشقيت به نفسي حتى كلّت. وما أدراني أن ما صنفته نافع حقاً؟ لعله فهم زائف، ولعلهم لا يرون فيه إلا عجائب أو نوادر مما يقتنيه المقتدرون تفاخراً، ثم يصير إلى النسيان.

- هون عليك. ما نابك إلا أثر طول السفر. عارض معروف يعانيه البحارة ويدفع بعضهم إلى الجنون فيلقون بأنفسهم في اليم. قد تكلم في ذلك الأطباء.

يلتفت إليه ليوناردو مستغرباً قبل أن يمد عنقه إلى الماء أسفل منهم. يلعن ثيودور نفسه ولسانه الذي نطق بالسوء وقرع باب الشر. يسارع متداركاً:

- لكن تلك عاقبة الموغل في الإبحار أشهراً ونحن ما مرت بنا إلا أيام. وأنت وكلك حظك إلي فأصنعُ لك دواء يعالج ما غلب من يبوسة بدنك على رطوبته، وسواده على صفاره. تفاءل فإن صاحبك وطبيبك هو طبيب الملوك.

يدوي نفير البوق من صاري سفينتهم، وترد عليه الأبواق من

قطع الأسطول كافة. الجند يتدرعون ويتجهزون للنزول تحت راية إمبراطورهم وقد تبدت لهم بيوت عكا وحصنها الشاهق. أوشكت الرحلة على نهايتها. بل يستفتحون مرحلتها الأهم الآن.

يتملى ثيودور الإنطاكي في المدينة المتربصة بهم:

- لو كُتب لنا أن نزور دمشق فسآخذك إلى طبيب أعجوبة. شاب استقدمه الملك الكامل. فلتة من فلتات الزمان يعرف كل عشبة ونفعها. اسمه عبد الله بن البيطار. نسبوه إلى صنعة أبيه وإلا فإنه مالقيّ درس في إشبيلية.

يردد ليوناردو:

- إشبيلية!

يتداخل حاجباه، ويسلم نفسه لكآبته مجدداً.

***

الجند يتدفقون من سفن فريدريك كصفوف النمل من جحورها. يحفرون بخطواتهم على الرمل الأبيض السائل باتجاه الأسوار التي انطبعت عليها آثار الغزاة قرناً بعد قرن. هذه المرة ستستقبلهم المدينة بأذرع مفتوحة وسينضمون إلى فلول رفاقهم ممن تشبثوا بحافة الأرض المقدسة رغماً عن الهزيمة المنكرة على يد صلاح الدين قبل أربعين عاماً.

المشهد في عيني ليوناردو أشبه بيوم سوق أو مهرجان. كل هذه الألوان والأنغام. تشكيلات العسكر والرايات التي لا تنافسها في

البهرجة إلا أزياء الرجال وزينة جيادهم المستثارة كأنها التنانين. لمعان النصال كأنها بوارق على الأرض في عز الظهيرة. كل ذلك أخذ بلبه وألهاه عمّا هو فيه. أهذه هي الحرب؟

فريدريك، المتشح بعباءة من فرو السمور والمتوج بتاج الإمبراطورية الذي وضعه البابا على رأسه قبل ثمان سنين، كان في عين المشهد العجائبي منتفشاً بالجلال. برّ بقسمه القديم أخيراً ولاح لعيني خياله اندحار نفوذ گريگوري. إن هي إلا مسألة وقت وتصير أورشليم بيده بدون بركة الكنيسة.

سرير مُلكه يحمله العبيد الضخام على أكتافهم الزلقة بالعرق. آخرون يسوقون أمامه أسوداً ثلاثة ربّاها في أقفاصه لأجل هذه اللحظة، تزأر مذكرة بشبيهاتها على راية آل هوهنشتاوفن. خلفه الغلمان بالنواقيس والطبول، وصفّ من الجياد الرشيقة تخبّ بفرسان لوتشيرا المسلمين ورماحهم طويلة كالمآذن، كأنه يمعن في أذية مستقبليه. من ورائهم الفرسان الجرمان على أحصنة مدرعة بالصفيح لم يظن ليوناردو أن الله خلق لها مثيلاً في العِظم. أحدها لا يضيره لو انقض عليه ثور أو نمر. على يمين فريدريك سار هيرمان فون سيلزا بجثمانه المبسوط ولحيته التي يخجل من وفرتها القساوسة والأئمة. لا يفرقه عنهم إلا السيف العريض الذي يتدلى من خصره ليخطّ الأرض وراءه. على يسار سرير الإمبراطور كان الإنطاكي مشرقاً بالفخر. أما الإمبراطور الشاب فشاخص على سريره على رأس الموكب المهيب بعرض الشاطئ، أوله يقارب الأسوار وآخره لم يزل على الماء.

دخول يليق بمجد الصليب، لولا أن صليباً خشبياً هائلاً سد الطريق وأجبر الموكب الإمبراطوري على التوقف في مكانه.

خارج أبواب المدينة الموصدة، تراصت صفوف فرسان الداوية والإسبتارية، بكامل عتاد حربهم، متلقين القادمين الجدد.

عينا ليوناردو لم تريا فيهم إلا صلباناً في إهاب رجال. صلبان حمر وبيض على الصدور والدروع والأكتاف، وعلى الأعلام وأغماد السيوف وأردية الخيل. وحول الأعناق وعلى الخوذات الفولاذية التي تستر الوجوه، وفي أيادي الرهبان الذين جاوروا الفرسان والرجّالة في الكتلة المواجهة لحاشية فريدريك المرتبكة بهذا الحاجز العجيب.

بإشارة من يد الإمبراطور، تقدم ڤون سيلزا مبعثراً ذرات الرمل حول رجليه، مكللاً بالصلبان السود هو الآخر، ليصيح:

- إخوتي فرسان الصليب، رفاق الجهاد المقدس، جئناكم بمعية خادم المسيح؛ ملك صقلية وسوابيا وبوهيميا ولومبارديا وتوسكانيا، وارث عرش مملكة أورشليم؛ جلالة الإمبراطور فريدريك هوهنشتاوفن، لنلبي النداء السماوي، ونضع أيادينا في أياديكم فنسترد هيكل سليمان ومولد ابن الإله، ونقيم مملكة الرب، ونحرر الأرض المقدسة من نجس السراسنة المحمديين.

لم يحرك حشد المستقبلين شعرة ولا صدر عنه نفَس. بدا لوهلة أن العالم بأسره وقع في صمت لا يعارضه إلا قصيف الموج. تململ

فريدريك في جلسته وحامية عكّا تمعن في تجاهله. نشوته العارمة تخبو سريعاً كدخان العود المحروق. التفت إليه ڤون سيلزا بوجه أشعله الغيظ والقيظ فلم تقابله إلا قسمات إمبراطورية ممتعضة يتلبسها القلق. عاود المقدّم الجرماني مواجهة الجيش الصغير الذي يحول بينهم ومدخل المدينة فلاقته سحنات موتورة هي الأخرى. نفخ بحنق وخطا خطوتين قبل أن يتراجع ضعفهما لما هدر عشرات الجند الصليبيين بهتاف الحرب وصوبوا إليه أسنة أسلحتهم في وضع القتال.

بالرغم من الارتعاش الذي يهز جسده، ود ليوناردو لو كان مقابلاً لفريدريك ليرى أي تعبير ذهول يرتسم على وجهه وهو يكاد يقاتل جيشاً صليبياً في أول ساعات حملته التي أعدّ لها لسنين. مد يداً مرتجفة ولمس كتف ثيودور الذي شوح له بكفه وقد أخذته الصدمة هو الآخر. طاف ليوناردو بعينيه في الجند الإمبراطوري من حوله فإذا الكل متحفز ويده على مقبض سلاحه. تملكه الذعر أخيراً وقد أحس بنهايته تدنو. وكأن السماء تعاقبه على ما تفوه به منذ ساعات. ملّ الحياة فإذا هي توشك أن تلفظه بأشد الأساليب وضاعة. جثته سيمزقها جند البابا على الساحل الشامي. خاتمة تليق بالمدعو بيگولو الرحّال.

أنزل العبيد السرير الملكي ليترجل فريدريك. خطا على الرمل الناعم ناصباً ظهره محاذراً التعثر ميبساً رقبته لألا يهتز التاج. وجهه مسوّد وأوداجه تنبض. كل خطوة يخطوها نحو النصال المشهرّة تضيف إلى ذله وتنزع ريشة من ذيل غروره. ليوناردو يكاد يسمع

صوت صرير أسنان ڤون سيلزا أما ثيودور فنسي أن يتنفس من شدة جزعه. أخيراً صار فريدريك أمام غرمائه. لا يفصله عن أقربهم إلا ذراع. نقل عينين معكرتين بالهياج في وجوههم المغطاة بأقنعة الحديد وملامح الازدراء. خرج صوته من صدره:

- أما لكم كبير أحادثه؟

تنشق الصفوف عن راكب هائل. جثمانه أكبر من جثمان أي إنسان وحصانه أكبر من أي حصان. سيفه معلق في ظهره ومقبضه المقلوب يضيف صليباً آخر إلى إهابه. لحيته الشقراء أضخم من لحية ڤون سيلزا وذراعه بسمك جذع ثيودور النحيل.

تقدم حتى لمس صدرُ جواده طرف تاج فريدريك وغطاه بظله. لم يهتز فريدريك في وقفته لكن داخله يغلي. لو كان بيده خنجر لوضعه في عنق هذا الخنزير. صوّب عينيه إلى ندّه الذي لم يتكلف الترجل عن حصانه، وقال بصوت ثابت:

- عرّف بنفسك.

لا تظهر شفتا الفارس الضخم من تحت شاربيه. لكن صوته واضح:

- پيدرو دي مونتيگ؛ كبير فرسان الهيكل.

يقاوم فريدريك جنونه واضطراب أحشائه ووهج الشمس من خلف الجرمين المغلفين بالظلال:

- ورياستك للداوية أنستك أدبك؟ وأن تنزل وتنحني للملك؟

لا يظهر إن كان دي مونتيگ يبتسم أم يكشر عن أسنانه. لكنه يدور حول الإمبراطور بحصانه وكأنه يعاين عبداً أو سبية، ثم ينزع البرنس الأحمر عن رأسه الحليق فتلمع جلدة جمجمته ويظهر جرح قديم غائر بعرضها. يحني رأسه ليُري فريدريك ثم يواصل حديثه من على صهوة الوحش الذي يمتطيه:

- نحن خدمنا الصليب بأرواحنا. جدودنا أخذوا القدس، ثم أفناهم صلاح الدين وما فادنا جدك ولا أبوك، ولا نرتاح في قبورنا حتى نستعيدها. إخلاصنا للبابا معروف. وأنت محروم مطرود، يدك بيد السراسنة توادهم وتحبهم. إن شئت ذبحتك في موضعك وتركتك كالفطيسة لا تحل عليك الرحمة ولا تجوز بحقك صلاة. ما أتى بك؟

يشعر فريدريك ببقايا الطعام تندفع من جوفه إلى حلقه فيطبق فمه، لكن دق قلبه يدوي في أذنيه كالطبل مؤذناً بقرب انفجاره. كبده تحترق ويحس دخانها في دماغه. الرؤى في عينيه مغبشة لا يدري بفعل العرق الذي ينهمر عليها أم أنه ينازع سكرات الموت قهراً. من هذا الكلب الذي يذلّه عياناً جهاراً؟ وبأي جرأة يواجهه وهو ملك ملوك أوروبا ووريث شارلمان والإسكندر؟ گريگوري الملعون وصل إليهم بمكاتيبه وجواسيسه وأقنعهم بأي شيء؟ مفتاح القدس بيده هو وتلك غاية مناهم، أم أنهم عيال حرام لا يفرقون عن القساوسة المتبذلين ويغريهم بريق الذهب وإن لبسوا المسوح وتعلقوا بركائب الشهداء.

يصدر صوته هذه المرة مخنوقاً كأن أصابع دي مونتيگ تعصر عنقه:

- أتى بي عهدي للبابا وواجبي المقدس.

- عهدك للبابا تأخذه منه بعدما تغسل رجليه وتستسمحه. وحتى ذاك فلا كلمة لك علينا. وترجع بجيشك والكفرة الذين معك لا يدخلون عكّا ولو عاندت أبدناهم وأبدناك معهم. هذه المدينة محرمة عليك ومن معك. هذا آخر الكلام بيننا.

يدور فريدريك حول نفسه ويرجع إلى حيث رجاله وعيناه لا تبصرانهم. وجهه بلون الدم كأن دي مونتيگ شجّ رأسه لكن الجرح في قلبه وروحه أعمق. ڤون سيلزا يلهث من فرط غضبه وينتظر إشارة سيده. إلا أن فريدريك يمر بمحاذاته كأنه لا يراه. يصعد إلى سريره ويسحب الستر على نفسه. يدفن وجهه في كفيه وتتلاحق شهقاته كأنه خروف منحور. يكاد ينشج بالبكاء ويعض على لسانه لألا ينسلّ الأمر الأرعن من بين شفتيه فتقع مجزرة لن ينجو منها. يحشر أصابعه في حلقه لألا يسمع معاناته أحد غارقاً في فجيعته. لا ينبهه إلا الدم الذي يقطر من أنامله ليلوث بياض ثوبه.

يدق على خشب سريره فينحني العبيد الأربعة على أركانه ليرفعوه. أحدهم تخذله ركبتاه والبلل على عاتقه فينزلق السرير من جهته. يقع فريدريك هوهنشتاوفن ويتمرغ أخيراً في الرمل العكاوي. يصلهم من البعيد ضحك مئة حنجرة معادية وصفير فرسان الصليب

الخلّص جند البابا الأوفياء. لا يحرك أي من أتباع فريدريك ساكناً. يصرفون أعينهم بعيداً عن أذل ما مر بآل هوهنشتاوفن منذ غرق فريدريك الأول داخل درعه في بركة ماء وقت حملته التي فشلت قبل أن تبدأ. يقوم فريدريك الثاني ويتناول قضيب حديد من حزام أحد حرسه ويهوي به على رأس العبد الذي جمّده الهلع. يواصل الضرب حتى تتحول الجمجمة إلى عجينة مخ وعظام ويغطي رذاذها وجهه.

يتطلع ناحية عكا لاهثاً بعينين لا تليقان بالبشر ويبصق. يقترب منه ڤون سيلزا ليواسيه أو يؤازره لكن فريدريك ينقض عليه، يسحبه من درعه ويحدق في عينيه باثاً الخوف في نفس الجزّار القديم:

- أوغلوا في البر بعيداً عن الأسوار وانصبوا خيامكم هناك.

يرمي ثيودور بنظرة عابرة ويضيف وهو يحث الخطى مبتعداً بغير وجهة:

- سنبدأ مراسلاتنا مع الكامل من الغد بعدما نرتاح.

تحرك الحشد الإمبراطوري أخيراً، ببطء وموات، كأفعى تستدير بجسدها المخدر باحثة عن جحر يؤويها. اختلط الفرسان بالعبيد ونافخو الأبواق أعطوا شارة الانسحاب. ليوناردو ظل مكانه واجماً مبهوتاً. جاءت عيناه في عيني ثيودور فتبادلا النذير ذاته بلا صريح عبارة؛ هذه بداية لا تمت لفأل الخير برابط. وإن كان الظفر ببيت المقدس من نصيب فريدريك فلا ينفعه تنجيم ولا تدبير، ولا أقل من يد الإله لتتدخل فتنجده، وتنجدهما معه.

***

جاء صوت الطبول من ناحية المشرق فخرج فريدريك من خيمته بنفسه ليستقبل ضيوفه. ولولا بقية من سمت الملوك لشهق إعجاباً بجمال الحصان الذي جاء عليه سفير الملك الكامل.

كل ما في وفد الكامل ناطق بالأبهة؛ الرايات الحريرية الصفر، والحرس المكللون بمغافر الزرد ودروع الحديد المضرّبة بالفضة، أحدها يعدل كل ما لدى فريدريك من آنية. أما الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ فكأنما نقش قسماته نقاشٌ جعل كل شعرة في خلقته في موضعها. وثب عن سرجه المطعم بالصدف شاباً رشيقاً نضراً ليست عليه ذرة غبار، عمامته على رأسه كأنها قبة ورداؤه كأنما خرج من نول النسّاج الساعة.

اعتنق الرجلان بعضهما. الفرحة على وجهيهما أصدق من أن تكون محض مسايرة أو نفاق مسايسة.

مكتبة
t.me/t_pdf

مال ليوناردو على ثيودور وهمس:

- صاحبان قديمان؟

لا تتحرك في الفيلسوف الإنطاكي إلا شفتاه، وابتسامته المهذبة لا تنحرف:

- بل أخوان. ولو كانت لفريدريك بنت أو أخت لأنكحه إياها. الأمير يوسف اشترى زراعة في صقلية فحلف فريدريك ألا يدفع فيها درهماً، وكلُ حصان في اسطبل الإمبراطور هدية من فخر الدين أو بوصية منه. قد زاره وأكرمه في قصره مراراً.

- لا أذكر أني رأيته.

- لم يكن ذلك من شأنك، وأنت الغارق في قراطيسك وتهيؤاتك!

في داخل الخيمة الإمبراطورية يصرّ فريدريك على ضيفه ويجلسه إلى جواره. يجيل الأمير فخر الدين النظر في الداخل المزين قدر ما تسمح به الظروف العصيبة. فريدريك معزول في شاطئ عكّا منذ أسابيع. والمؤن التي جلبها إليه ستحفظ كرامته وتكون فاتحة جيدة لمفاوضات معقدة.

يقدم الأمير مرافقه؛ شيخ متشح بالسواد ناصع اللحية لا يكاد ينزل عينيه عن سحنة فريدريك وكأنه لاقى عفريتاً. تقدم لينتصب واقفاً أمام مضيفه مطبقاً جفنيه ملقياً التحية التي جهد في تدبيجها وحفظها:

- السلام على الملك الكبير، الأجل الخطير، الأعز الأثير، قيصر المعظم، الإنبرور فردليك بن هونكه المقتدر بقدرة الله تعالى، المستعلي بعزته، مالك الألمانية، والإبيردية، وتسقانة، والامبردية، وصقلية، حافظ بيت المقدس، معز أيام رومية، مالك ملوك النصرانية، حامي الممالك الفرنجية، قائد الجيوش الصليبية.

يتمايل رأس فخر الدين طرباً مع كل كلمة. حتى إذا فرغ الشيخ التفت إلى فريدريك:

- هذا أبو المظفر، يوسف بن عبد الله شيخ الحنفية. له في الفقه والتأريخ. من سلالة علم وأدب. جدّه الإمام الأجلّ ابن الجوزي رحمه الله كان من أكابر علمائنا، وفضله قائم علينا حتى نُسب الشيخ إليه.

يومئ فريدريك مقدراً. يربت بكفه على فخذ الأمير الشاب مرحباً ويشير باليد الأخر إلى سبط ابن الجوزي ليجلس. يلتفت بكليته إلى صاحبه ويبادره:

- لكن فيما قاله الشيخ فلتة لا بد من تصويبها، وبشارة لا بد من تعظيمها. فأما قوله أني قائد الجيوش الصليبية فلا أرضاه. وما جئت معي بجيش ولا عسكر. وإنما هم رفقتي وعزوتي وحرسي جئت لأتقوى بهم على النصارى الذين بين ظهرانيكم ولا يرفع أحدهم إبرة في وجهكم ولا يكون في خاطركم أني أغزوكم بهم. وأما قول الشيخ أني حافظ بيت المقدس فهو ما أرجوه والله، ولا آخذ شيئاً كان بيد مولانا الكامل بغير رضاه، وما جئت إلا لأحفظ عهداً كان بيني وبينه وأجيب طلباً كان قد ابتداه هو من سنين وكنت أنت يا أبا يعقوب سفيره وواسطة خيره.

يطرق فخر الدين هاضماً الكلام في عقله. لا تفوته الهالات السود حول عيني فريدريك والسقم البادي عليه. يطوف ببصره بين الحضور ريثما يتشكل الرد على شفتيه. يتملى في قسمات حراس فريدريك ويتوقف عند ڤون سيلزا ملياً. يقذفه الجرماني الجاهل

بلغة الحوار بنظرات لا تحمل وداً فيتبسم فخر الدين ويواصل رحلته بين الوجوه والملامح. يرسل تحية صامتة إلى ثيودور ويتمهل عند ليوناردو، وكأن البيزاوي الكهل نشاز في معزوفة الحضرة الإمبراطورية. يرتشف من شراب المشمش باللوز الذي أتى هو به قبل أن يسترجع ابتسامته:

- يعرف الإنبرور أعزه الله، أنه ما نزل إلا بين أهله وإخوته. ومولانا أبو المعالي السلطان الكامل أيّده الله شدد في الوصية بكم وألا يكون في حقكم إلا كل موجب للراحة والدعة. وبيت المقدس شرفُها عند الملل قاطبة معروف وما منع السلطان وسلفه من أيام الفتوح الصلاحية نصرانياً ولا يهودياً من زيارتها والتبرك بمواضعها كلٌ على نحلته. فإن شئتم حملناكم على ظهورنا فتحجون وتزورون وتعقدون نواميسكم بمن معكم وتلبثون ما شئتم في حمى السلطان وتحت جناحه.

تتراقص عضلة وجنة فريدريك. أنفاسه المتلاحقة تنبئ عمّا يعتمل في صدره من أعاصير يحاول حبسها لألا تفسد عليه ترتيب سنين. يتشبث بخيطه الأخير:

- اسمع يا يوسف. قد خبرنا بعضنا ويعرف أحدنا موضع القملة في رأس أخيه. ولا أحدثك إلا بأصدق حديثي. تعرف أنك جئتني قبل سنين معدودة بكتاب من الكامل يمنيني فيه بالتمكين على بيت المقدس. وقد أظهرت القبول

وهي آخر مأمولي وتحتي رجلي من بلادي ما هو أوسع منها وأبرك عندي، وإهراق الدم والمال في مناجزة الكرام أمثالكم أبغض ما عليّ. لكني عهدتُ إلى البابا في طيش شبابي أن أنفذ العساكر لأسترجع ما أخذه جدكم. فلما سمعت كلامك آنذاك ارتاحت نفسي وطاب خاطري لاتفاق الغاية وسداد الخطة. ولست بالغر فيفوتني أن الكامل إنما أراد أن يضرب بي أخاه المعظّم وقد وقع بينهما الشقاق واستعان المعظم عليه بالخوارزمية. والآن مات المعظم وصار ملكه تحت الكامل وانشغل الخوارزميون بالتتار. أفلا تطيب نفس الكامل فيهبني بعض ما عنده وقد التأم له أمر مصر والحجاز والشام؟

- تلك هي عين العلة.

قالها فخر الدين بوجه جامد فغاص قلب فريدريك.

- لولا أن المعظّم مات لقلنا كسره النصارى وأخذوا منه القدس ولصارت في وجهه وما على الكامل ملامة. أما وقد صارت في ذمة السلطان الكامل ودخلت حظيرة ملكه فبأي حق ينزل عنها؟ وأين يذهب من مقت الخاصة أو العوام؟ ومالهم في السياسة وتصريفها فهمٌ أو إدراك فيعذرون. بل يثورون عليه وتضطرب أحواله. ولو رضيها الناس فلا يرضاها أمراء بني أيوب وفيهم الطامع لإقطاع أو إمارة بل يتطلعون إلى السرير الذي يجلس عليه. ولو رضيها الأمراء فلا يرضى الخليفة في بغداد وهو بمنزلة الإنبرور عندنا.

يميل فريدريك برأسه متعجباً:

- وهذا الخليفة، أمره فوق أمر السلطان؟

يثب سبط ابن الجوزي لينفس عن الهول المتراكم في روعه بعدما سمع:

- مولانا الخليفة العباسي، الهاشمي القرشي، فرع شجرة رسول الله ﷺ وأقرب قرابته وعترته الشريفة. وإليه أمر المسلمين قاطبة أخذها كابراً عن كابر ولا ينازعه فيها أحد إلا أهلكه الله.

يقلب فريدريك شفته:

- ما أحسن هذا. لو أن قومي صنعوا مثله فلم يأتوا بمجهول أصل من أسافل الناس فأقاموه إماماً وقمّصوه بقميص الرب لكان أفضل.

حمد ثيودور الرب في سره لأن ڤون سيلزا ورجاله لا يفهمون ما يقال، ولم يبدُ فخر الدين أقل منه تفاجؤاً.

انتهز فريدريك الفرصة ووضع كفه على كتف جليسه:

- لا تحسب أني جئت هنا باسم گريگوري أو كنيسته. بل هو وجماعته أهون عليّ من الذباب. وقد طردني من سرادق رحمته وحرّم عليّ الجنة بزعمه والناس تحسب أنه وكيل الله عليها. وما ألححتُ في الخروج إلا لأبين لقومي أن رضى الله ليس من رضاه وقد كسرت أمره وركبت البحر بالصليب في يدي فكيف إن أخذت القدس؟ ألا ترى كيف يزلزل ذلك

أفهام الناس ويصلح فساد عقيدتهم؟ وما أحدث أحد مثل ذلك في النصرانية قبلي. وهذه القدس أصل اعتقادهم. فإن توفقت ورددتها بغير رضاه عرفوا فشله وسقط من أعينهم فكفينا وكفيتم شره.

يهز سبط ابن الجوزي رأسه وكأن الكلام أعجبه. لكن الأمير يثبته بنظرة. يمضي فريدريك وقد انتعش أمله:

- تعطوني الأرض ولي ولكم المسالمة وحقن الدماء. ولا يستفزنكم ما أراسل به ملوك النصارى من طلب المدد فإنما أتألفهم عليه ويعلم الرب أني استنفدت كل مالي في أوبتي هذه. فإن فشلت لا تقوم لي قائمة ويأتيكم غيري من لا يراعي فيكم ذمة.

يمسك فخر الدين عن الكلام مدركاً حراجة موقف صاحبه. لكن الناس لا ترى في فريدريك ومن معه إلا جيشاً غازياً والدعوات للجهاد ضده تصدح من العراق إلى الشام، وما يُرى سكوت الكامل عنه إلا تخاذلاً فكيف لو أعطاه مراده؟ يدرك فخر الدين أن طول بقاء فريدريك في الساحل الشامي سيقيمه مقام البطل عند النصارى ويغريهم باتباعه فيكثر جمعه ويقوى موقفه. وسيده الكامل ما به طاقة لمواجهة الصليبين. صراعات البيت الأيوبي تستنزفه وأخوه الأشرف في الجزيرة لا يرضى بموالاة فريدريك. الخوارزميون يهددون جناحه الشرقي، والموحدون المتلقبون بالخلافة متربصون بتخوم مصر غرباً. ولو رضخ الكامل ومكّنه من القدس فما يضمن

له ألا يعيث الداوية الملاعين بمساجدها فساداً ويفجروا برجالها قبل نسائها وقد تراكم الحقد في قلوبهم سنين؟

يستخرجه الصوت الإمبراطوري من دوامة أفكاره:

- ربما تتفكر فيما سمعت وتشاور السلطان وملأه ثم ترجع إلينا بالبشارة؟

- أفعل إن شاء الله.

يمد فريدريك يده ويعصر كفّ فخر الدين. يحدق فيه بعينين دوّرهما اليأس ويهمس:

- قل له إني عتيقه وأسيره. ويعلم أني أكبر ملوك البحر. فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم.

لا يقوى الأمير على الرد. لولا أنه يعرفه لظنه رجلاً آخر. يتحامل فريدريك على نفسه ويرفع حسّه:

- وأحمّلك بما قدرت عليه من هدايا لأبي المعالي. ولا ينقطع مع ذلك ما أقمنا عليه سنين من التداول في المعارف والمناظرة في العلوم. وقد أتيتكم بأنبه العالمين عندي بمسائل في الفقه والكلام والحسابيات أوفدهم إليه عسى أن يصيبوا إجاباتها لديكم.

تحيّر ليوناردو متسائلاً عمّن يعنيهم فريدريك، قبل أن تصعقه المفاجأة بالتفات الإمبراطور إليه وإلى ثيودور.

*

(١٣)

دمشق، الممالك الأيوبية. ٦٢٥هـ، ١٢٢٨م

انحنى ثيودور حتى بانت البقعة الصلعاء في قمة رأسه. حرك كفيه كأنه يغرف البركات من الأرض وتوجه بالتحية إلى الملك الكامل:

- السلام على صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين الملك الكامل أبي المعالي ناصر الدين محمد أمير المؤمنين.

أسبغ عليه الملك نظرة قبول من عرشه العالي قبل أن يستدرك عليه:

- أما إمارة المؤمنين فمحفوظة لمولانا الخليفة المستنصر. وأما ما ذكرت غير ذلك فنقرّك عليه ونذكرك أنّا ملكنا القبلتين بحول الله وتمكينه فتدبر يا إنطاكي.

يبتلع ثيودور ريقه ويغترف من هالة البركات ثانية. هذا رجل

لا يضيع وقته في المناوشات بل ولج في صلب المسألة. يستدير بنصف وجهه إلى ليوناردو:

- قد بعثنا جلالة الإنبرور بالهدايا ومنتهى التعظيم والمودة إليكم. وقصدناكم أنا والمعلم أونارد الرومي بما جرت به العادة الملكية والمراسيم السلطانية بينكم من أسئلة في دقيق المعارف وعجيب المسائل، فنستزيد مما في واسع أفضالكم.

يولي الكامل أنظاره إلى ليوناردو الذي لا يغيّر وقفته إلى أن يومئ له. يتقدم خطوة وهو يغالب روعه ودهشته. ما ظن أن العمر يمهله ليقابل ملكاً واحداً وها هو يمثل بين يدي الثاني. وأي ملك؟ حفيد صلاح الدين ووريثه. أما دهشته فمن الشبه الذي بينه وبين فريدريك. وكأن الاثنان لم يجمعهما الشغف بالسياسة والعلوم فتشاركا السمات. اختلس ليوناردو لمحة إلى اللحية الحمراء للعاهل الذي سمع أنه من أصل تركي أو كردي. لكن تلك نهاية الشبه. هيبة إيوان الكامل تفوق أي شيء رآه في حياته. وليموتن فريدريك كمداً لو عاين ما يرفل فيه صنوُه من جاه وأبهة تكسوه من هامته إلى نعليه، ويفيض ليغمر الأرض والجدران والأسقف من حوله. لم يعرف أن الحيطان تُلبس بالسجاجيد والفرش الحرير الفارسية بل ظن ذلك مما يداس عليه بالأقدام. ولا رأى طنافس أنعم مما مشى عليه، أحدها محشو بريش نعامتين لفرط ليونته، ولا مشاعل نحاس أصفر كأنها مجامر الذهب. ولا أبصر قبلاً قناطر الحديد على السقوف مكللة بالشموع داخل البلور المعشّق كأنها نجوم السماء. أما إهاب

الحرس والوزراء والخاصة من حول الملك فلا يملك فريدريك قدر قميص مما يلبسه أحدهم. وكأن الحُجّاب أحسوا بدونتيهما عن فضاء السلطنة المتسامق فلم يدخلوهما حتى سكبا عليهما من مرشّات الورد وجعلا المباخر تحت ثيابهما.

يتكلم الملك الكامل فتلمع الياقوتة على عمامته وتصلد حبات اللؤلؤ على صدره:

- تقدّم يا رومي. لعلك تتقن من العربية أقلها.

يبث ليوناردو نظرة إلى ثيودور الذي يتجاهله. تكلما في الأمر مسبقاً والآن أوان التنفيذ. ماله إلا حسن تدبيره، وقد رماهما فريدريك في الحفرة بلا سابق ترتيب ولا إعداد وكل منهما موكل باستخراج نفسه بحيلته وطراوة كلامه والحافظ الرب.

يتنحنح ويجيب:

- أصلح الله مولانا الملك. قد حلّ بي من الإنعام الإلهي ما أنا له من الشاكرين الحامدين فجرى الأدب العربي على لساني وتشرب به قلبي من صغري.

تراجع الكامل وانبسطت ملامحه بالعجَب:

- كيف ذلك؟

- كانت نشأتي في بلاد المغرب. وزرت في الماضي من شبابي مصر والشام.

- فكيف وجدت دمشق اليوم؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- هي في أعزّ حال وقد أشرقت بشمس سلطنتكم. أدامكم الله.

يضيء وجه الكامل. يعرف ليوناردو أن ثيودور يكتم نفس الصعداء في صدره. هذه جولة مرت بسلام وبقيت جولات. يسأل الكامل:

- وما الذي جئتما به من مسائل؟

يتقدم ثيودور:

- مسائل حكمية وهندسية ورياضية مُشكلة. أحب الإنبرور أن يستنير في دياجيها بما تحت تصرفكم من ذوي الألباب والأفهام.

- هات ما عندك يا إنطاكي.

ينصب ثيودور ظهره:

- يسأل مولانا عن العالم؛ هل هو قديم أبدي أو محدث؟ وعن النفس؛ ما الدليل على بقائها وما طبيعتها؟ ويسأل عن سبب انكسار الرماح في الماء؟

يلتفت الملك إلى وزيره فخر الدين الذي يضيف:

- إن أمر السلطان، نبعث بهذه المسائل إلى من يجيب عنها. وبعضها جوابه معروف من قديم.

- هو ما قلت يا أبا يعقوب. وانكسار الصور في الماء تكلم فيه المتقدمون ومنهم الحسن بن الهيثم. سمعت عنه يا إنطاكي.

- بلغتني شذرات من علمه يا سيدي.

- فماذا عنك يا رومي، وأنت المشتغل بالهندسيات؟

- ما سمعت عنه يا سيدي.

- كان مقامه في مصر أيام الفاطميين. امتحنه الحاكم بأمر الله بأشغال ومراسيم صرفته عن علمه فادعى الجنون ليتخلص.

مال الكامل في جلسته وسأل ليوناردو:

- أكنت تفعل مثله يا رومي؟

- لا يُسأل المتنعمون في الجنة عن حال أهل النار يا سيدي.

يعمّ القبول في الإيوان الملكي. ينبسط محيا الكامل ويهبط صدر فخر الدين ابن شيح الشيوخ. ما كاد ليوناردو ينتشي بإجادته الرد حتى بادره الكامل:

- ففي أي شيء برعت يا رومي، حتى فضّلك فردليك على من عنده وبعثك إلينا؟

يلعق ليوناردو شفتيه لحظة مجمعاً أفكاره:

- إنما براعتي في بعض ما عندكم. وقد صنفت في فنون الحساب مما لم يعرفه قومي من قبل. وزدت على ما جاء به الأولون فربطته بما حصّل المتأخرون. واعتلت على مصري آخر من المتقدمين يقال له شجاع بن أسلم. وأمعنت فيما صنف ابن موسى الخوارزمي فجودته وأحسنت تطبيقه.

- أنت مقلد إذن.

يدوي التعليق في صدره كالرعد. يعرف ليوناردو أنه غير دقيق لكنه يصيب الوتر في نفسه ويشلّه. وأي معنى للتقليد والتجديد والعلم بحاره متقلبة قاعه وسطحه يتبدلان؟ يطول صمته بحرقة قلبه والكلمة تجدد شكّه القديم حتى يتجرأ ثيودور بالتبيين:

- الصنعة واحدة والطرائق متعددة حفظكم الله. وأونارد حباه الله موهبة في الاستنباط واستخراج القيم قلّ أن تكون لغيره أقرها له العالمون.

ثم التفت إلى ليوناردو وحدجه بين كلامه:

- وإن أذن لنا السلطان، يتحفكم أونارد بحل مسألة شائكة شرحها في بعض كتبه، كانت في مراسلات قديمة بيننا، تبيّن لكم عظيم فطنته وقوة تمكنه في الحسابيات.

ران الصمت على الديوان السلطاني في انتظار ما يأتي به الرومي. تفكّر ليوناردو للحظة قبل أن يمضي في مسألته:

- ينفق رجل 30 ديناراً على 30 طيرٍ، بين عصفور دُوريّ وقُمري وحمامة. فإذا كانت ثلاثة من عصافير الدُوري بدينار واحد، والقمريتان بدينار، والحمامة بدينارين. فكم طيراً من كل نوع اشترى؟

يشخص الملك إليه ويهتم لاهتمامه ملأُه وجلساؤه. أما ليوناردو فيشرع في سرد الحل:

- سأفترض أولاً أن الرجل اشترى ثلاثين عصفورًا دورياً مقابل عشرة دنانير، واحتفظ في كيسه بالعشرين دينارٍ الباقية. ولنفترض الآن أنه بدّل أحد عصافير الدوري بقمريّة مما سيزيد ما أنفق بقدر سُدس دينار، لأن الدُوري يساوي ثلث دينار بينما ثمن القمرية الواحدة نصف دينار، أي أن قيمتيهما هي سُدس أكثر من قيمة العصفور الدُوري. والآن يا سيدي الملك أعزّك الله، لنفترض أن الرجل استبدل أحد العصافير بحمامة، وبذلك زاد ما أنفق بمقدار دينار وثلثي الدينار، وهذا هو الفرق بين الدينارين سعر الحمامة وثلث الدينار سعر الدُوري. فإذا أجريتُ ستة من هذه التبديلات فسيكون مجمل ما أنفقتُ زيادة عشرة دنانير. والعاقل الفطن يستدرك مما سبق أن المفتاح هو في هذين المعاملين؛ أي السُدس والستة.

لاحظ ليوناردو أن بعض الكتَبة شرع يدوّن خلفه متحققاً من حساباته. ودّ لو أن عنده لوحاً كبيراً ليستعرض درايته بأرقامهم العربية بينهم. لكنه تابع بغبطة غير منقوصة:

- والآن يا سيدي حفظك الله، كل ما علي أن استبدل العصافير بحمائم وقماريّ إلى أن أنفق عليها جملة العشرين ديناراً التي ادخرتها في أول الأمر. لذلك قمت بضرب العشرين في ستة وحصلت على العدد 120، ثم قسمت هذه القيمة إلى جزئين، لنجعل الأولى منهما 110، والثانية 10. فلو قسّمت الجزء الأول، وهو 110 على 10، والثاني على 1، لأعطاني

11 حمامة و10 قمريات. ويبقى من الثلاثين طيراً التي في نصّ المسألة 9 هو عدد عصافير الدُوري. إذن، اشترى الرجل 9 عصافير دُوري بثلاثة دنانير، و10 قمريّات بخمسة دنانير، و11 حمامة باثنتين وعشرين دينار. ثلاثون ديناراً مقابل ثلاثين طيرٍ كما المطلوب.

يفرغ ليوناردو من الكلام فلا يجاوبه إلا السكون. الملك الكامل لا يرفع عينيه عنه إلا ليلتفت إلى ابن شيخ الشيوخ. لا يُعرف فيم يفكران حتى يتكلم الكامل أخيراً:

- صدقت يا إنطاكي؛ الصنعة واحدة والطرائق متعددة. وعندي لكما صانع ماهر جدير بأن يجالسه الرومي فيسمع منه. يا فخر الدين، خذهما إلى علم الدين قيصر.

***

يمضي الرجلان ليلهما عند الشباك ليتبردا بالنسيم. الطريق تحتهما هادئ ودمشق حولهم غافية لاهية عن الجيوش التي تجوس حدودها لتحرسها أو تقتنص مفاتيحها.

يتناول ليوناردو ثمرة تين ممتلئة. العصارة الحلوة تسيل من بين شفتيه على ذقنه فيتركها تبلل ثوبه وكأنه يستطيب ماءها. علم الدين قيصر يرمقه صامتاً ويقرّب إلى ضيفه صحفة الفواكه. يتناول من جيبه المزيد من كِسر اللبان ويلقي بها إلى المجمرة فيغشى الحجرة أريج نظيف نفّاذ.

ثيودور اختار جانباً قصياً، مستأثراً بالسراج ليخط مكتوباً لا يصح أن تبصره عين.

يريح الشيخ البيزاوي المنهك رأسه على الحاجز الخشبي ويتمعن في الظلمة من بين فتحات زخارفه.

- وددت لو أتمشى في دروب دمشق. أحن إلى زحامها وخضرتها. لكني مأمور بالرجوع من فجر غدي.

- أما أنا فأحن إلى مصر ولا أطيق صبراً لأرجع إلى صعيدها. الاختلاء عن الدور والأسواق في الضياع البعيدة أهدأ للنفس وأهنأ للعقل.

يعاود ليوناردو التأمل فيه. أسمر كالطمي مكتنز الشفاه أفلج، لا شعرة مستقيمة في وجهه. لعله أصغر منه بعشر سنين. لكنه سهل الطبع فكّه الحديث. تبسم ليوناردو وقد تذكر حلاوة روح المصريين. لكن كل ذكرى حسنة بات يعقبها حزن يعكر قسماته. أنزل عينيه إلى البقعة على صدر قميصه.

يبادره علم الدين مواصلاً الحوار:

- قلت أن الكامل آذاك بكلامه.

يتدارك ليوناردو في حذر:

- ما نابني من السلطان الملك إلا كل خير. لكنها كلمة وقعت في نفسي موقعها.

- وصمك بالمقلّد.

يكاد ليوناردو يتأوه. المصري يمعن في الضغط على الجرح وهو لا يمنعه. ينزف بألمه أكثر:

- فعل يا قيصر. وجانب من قلبي يرفض ذلك ويعرف بطلانه. لكن جانباً آخر يقبله ويقبل عليه. وكأن نفسي تشتهي ما يعذبها وتركن إلى ظلماتها. وكأنها لا أنوار تشع فيها.

- أراك تتكلم في النفسيات وقد ظننتك مقتصراً على الحسابيات. لك في العلم الأرسطي؟

- لا تأتِ على ذكره لعنه الله أينما كان!

يضع ثيودور قلمه وقد أُخذ بفلتة سخط صاحبه. يتعجب علم الدين:

- سبحان الله! ما هذا بقول عالم ولا دارس. قد انقطع العلم إليه وإلى عصبته من أعلام الإغريق. لعلك تنقم على الإقليدس وبطليموس كذلك فمن أبقيت؟

يلوّح ليوناردو بيديه:

- خصيمي هو أرسطو إلى يوم الدين. كلُ ما جئت به تكسّر على صخرته ولا يسمع قومي إلا به فكأنه نبي أوحي إليه. يرفضون الحساب المشرقي ورموزه وصفره لأنه أثبت بزعمهم أن الصفر نقيض وجود الرب. وما شأن المتفلسف اللعين بالحسابيات والعدديات؟ ما ترك شيئاً إلا هذى به والقوم في أثره كالقطيع.

- أمر قومك عجيب وجهالتهم فادحة. وأنت أمرك أعجب. ما عارض فكرُ أرسطو ما جئتَ به ولكنها الغشاوة على قلبك وقلوبهم.

- ما تقول أصلحك الله؟ أولم يفتِ أرسطو باستحالة وجود العدم؟

- بلى وإني أصدق ذلك.

- ويحك يا مصري! أوليس الصفر رسم العدم المطلق؟

- أما العدم فمعلوم. وإما إطلاقه فظنيّ، ومثلك أدرى.

سدد ليوناردو نظرة شك إلى محدثه. ترك ثيودور كتابه وجلب قنديله ليجلس بينهما وقد تعلق بمبتدأ الفكرة الباهرة.

يغير علم الدين موضع ركبتيه في جلسته ويعبث في عقبه المتشقق:

- أنت الخبير بالعدديات فخبرني. قسّم عدداً على عشرة فكم يصير عندك؟

- عُشره.

- وإن قسمت العُشر على عشرة؟ ثم قسمت عُشر العشر وهكذا إلى قيام الساعة؟

- يصير عندك مقدار متواصل في التضاؤل. متوالية تأخذك إلى قيمة متناهية في التهافت.

- يصح أن نسميها لا شيئاً. ويصح أن نقول أنها قيمة صفرية، لو صرفناها دراهم لما أغنت شيئاً. لكنها تظل ذات جُرم وإن كان غاية في الحقارة.

- كلامك بديع.

- وأبدع من ذلك ما حدثتني عنه البارحة من متوالياتك الحسابية يا رومي، وقد دونتُها في دفاتري وتمليت في خصائصها فتبدى لي فهم جديد لا أحسب أن أحداً سبقك إليه.

يكاد ليوناردو يستحث لحظات الزمن ليستعجل الكلام من بين الشفتين السميكتين للمصري الذي يقلّب قراطيسه:

- قلتَ يا أونارد أن مجموع كل عددين متتابعين في متوالية أرانبك يحيل إلى العدد التالي.

- بلى.

- فهل جربت أن تقسّم بدلاً من أن تجمع.

تنبض العروق حول أذني ليوناردو ويحس بالشعر في مؤخر عنقه ينتصب:

- أقسّم؟

- قسّم كل عدد على سابقه. الخمسة على الثلاثة، والثمانية على الخمسة، والثلاثة عشر على الثمانية، والواحد والعشرون على الثلاثة عشر والثلاثة والأربعين على الواحد والعشرين

وهكذا دواليك إلى قيام الساعة. صرفت يومي في ذلك وخلصت إلى أن الحاصل يفضي إلى نتيجة واحدة. قيمة تقريبية؛ تكاد تكون واحداً وستة أعشار وبضعاً من ذلك، توغلُ فيها كلما أوغلنا في القسمة.

تحتبس أنفاس ليوناردو وهو يتناول القراطيس ويحملق في حسابات علم الدين. أما ثيودور فيهتف مبتهجاً:

- ما أحسن هذا!

- قيمة سرها ربانيّ. تقارب ما أفاض فيه السالفون حين تكون نسبة القسم الأكبر إلى الأصغر من الخط المستقيم مساوية لنسبة الكل إلى القياس الأكبر.

فرك ثيودور كفيه منشرحاً:

- نسبة سرّها إلهي! ما أحسن ما جئت به يا أبا لوكا.

يلتفت إليه علم الدين:

- وأنت يا فيلسوف. ألم تعلم أن أرسطو الذي تعتال على كلامه قد درس الهندسيات على من هو أبرع منه؟

- تقصد أفلاطون ومدرسته التي سماها الأكَديمية؟

- هو بعينه. فأين أنت عن صاحبك لتنوّر فهمه؟ وقد جاء فيما تركه الأولون أن باب مدرسة أفلاطون كُتب عليه: من لا يجيد الحساب فلا يدخل.

- بلى دريت. لكن أين ما خاض فيه أفلاطون عمّا بين يدينا؟

- أكثرتَ الحزّ وأخطأتَ المِفصل. ما العدديات إلا مفتاح الخوض في الهندسيات، وما الهندسيات إلا باب الولوج إلى فهم بنيان العالم. أوليس ذاك الذي بعثك فيه ملكك؟

- أفصح رعاك الله.

- لا أفصح بل أسألكما وأنتما العالمان المحققان. في أي شيء تكلم أفلاطون لما قسّم عناصر الوجود؟

- قال إن الدنيا مكونة من أربعة عناصر: التراب والهواء والماء والنار. وكل مخلوق عداها هو من أصلها ومن تنوع طبائعها.

- يهز علم الدين رأسه معترضاً مخللاً أصابع قدمه بأصابع يده:

- هذا كلام ناقص. لكني أسايرك يا إنطاكي إلى حين وأختبرك وصاحبك. في أي شيء تكلم أفلاطون إذ تناول البنى الهندسية وأشكالها الأقرب إلى التمام؟

يعصر ثيودور جبينه بأنامله منقباً في ذاكرته. لا يرفع ليوناردو رأسه عن أوراق علم الدين وهو يجيب:

- متعددات الوجوه، على الأبعاد الكروية.

يصفق علم الدين بكفيه:

- ليهنك العلم يا بيزاوي! المتعددات المكوّنة من الوجوه المتماثلة، تعطي مجسمات فريدة المزايا. أولها الهرم المثلث المكون من وجوه مثلثة متطابقة؛ أربعة وجوه وأربع زوايا تستقر على السطح الداخلي للجسم الكروي المحيط بالهرم.

وثانيها المكعب المعروف؛ بستة وجوه مربعة متساوية الأبعاد وثمان زوايا تستقر هي الأخرى على المحيط الكروي، وثالثها من هرمين مربعين، على ما أنشأ الغابرون في بلادي. نطابق هرمين على بعضهما فيتشكل مجسم يشبه الجوهرة له ثمانية أوجه مثلثة متطابقة وست زوايا. ورابعها يتشكل من المثلثات متساوية الأضلاع كذلك فيعطينا مجسماً عشريني الأوجه. وخامسها أصله من الشكل الخماسي المنتظم، يعطينا المجسم الاثنيعشري الوجوه. تلكم هي المتعددات الهندسية الأفلاطونية. كل منها قرَنه أفلاطون بجوهر عنصر من عناصر تكوين العالم الأساس.

يكمل ثيودور مأخوذاً بما اتضح له من قديم علمه:

- النار، ثم التراب، ثم الهواء، ثم الماء. بقي عنصر خامس يا قيصر!

- قل لي أنت يا فيلسوف الإنبرور؛ ماذا بقي من عناصر العالم الظاهري أو الباطني على ما تكلم المتكلمون وفسّر المفسرون وتفلسف الفلاسفة؟

يثب ثيودور صائحاً إذ لدغته الخاطرة وقد رفع ذراعيه إلى السماء:

- الهيولي!

يستريح علم الدين في جلسته مرخياً بطنه، تاركاً الإنطاكي في رقصة دهشته وليوناردو في بهتته:

- ويحي! الهيولي يا ليوناردو! أصل الأصول ومنبع المادة الأول. جذر النار والهواء والتراب والهواء. الجوهر المادي وأصل الصور ومِلاط الفراغ بين ذرّات الخلق.

لا يكاد ثيودور يفرغ من عبارته حتى تتسع عيناه على اتساعهما. يبادله ليوناردو ذعره ويتمسك الاثنان بذراعي بعضهما كراكبين في مركب تتلاعب بها أمواج الكشف.

يلتقم علم الدين ثمرتي تين معاً. يتكلم بين مضغاته:

- ظلمتها أرسطو وأفلاطون وما تقوّل عليهما إلا عميان البصيرة. العدم محشوّ بمادة العدم يا إخوتي. وبين كل دقيق ماديّ محسوسٍ، يوجد جوهرٌ عدميّ صفريّ تام التكوين ربّاني النسبة، منه تتشكل الموجودات بتوافقها وتنافرها ورطبها ويابسها. ويحك يا رومي؛ قرنت الصفر باللاشيئية وهو محرك الزيادة ومولّد الكثرة. أما رأيته حوّل العشرة إلى مئة وحوّل الألف إلى ألفِ ألفٍ؟

يربت ثيودور على كتف صاحبه البيزاوي الذي تاه في مفازات الفَرَج وانزاحت عن روحه إصَر الغمّ. قام فبدا لهما وكأن ظهره اعتدل ولمعة الشباب عادت إلى مقلتيه المحتقنتين بدمع اليقين. عبّ الهواء إلى صدره كما يعب البعير الماء وأرجع رأسه مرتحلاً إلى أزمنة التشكّل فسمعا كلامه ينهلّ كأنه يقرأ في صفحة قدره:

- الرب هو المهندس الأعظم، والمختارون من خلقه يبصرون مكامن أسراره. كل خلق الإله مقدّر محسوب. لا مخلوق

طارئ على التمام ولا موجود فائض عن سعة الجمال. وكل شيء عنده بمقدار.

يؤمّن علم الدين قيصر:

- ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً. هذه أنوار أفلاطون تجلّت لك بعدما التحم رفاته بالتراب. أتراك تصبر في قبرك على حظك ونصيبك إلى أن يخلق الله أقواماً يعون ما فُتح به عليك؟

*

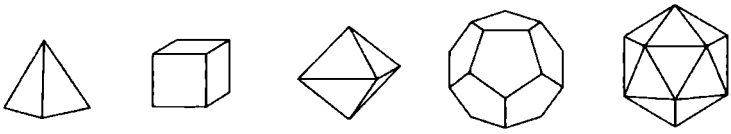

مكتبة
t.me/t_pdf

(١٤)

القدس. ٦٢٦هـ، ١٢٢٩م

أزاح هيرمان ڤون سيلزا بطريرك القدس عن صدارة المنصة. دفعه كما يُدفع سائس الخيل غير عابئ بالصليب الذهبي على صدره ولا ردائه الاحتفالي الناصع. فرد لفافة قرأ منها على رؤوس من غصّت بهم جنبات المحفل الأقدس، متكلماً على لسان الإمبراطور فريدريك هوهنشتاوفن:

- للرب الحمد في علاه. أتم علينا النعم وذلل لنا الصعاب وأخضع لنا الرقاب. ويعلم القاصي والداني قدر ما عانيناه، وما كان من البابا وما نالنا من عداوته وحرمانه، واستجلابه حقد الرعاع علينا وخيانته بما لا يليق إلا بالفسّاق بتحريضه المنشقين حتى نازعونا حقنا. وإنّا في موقف عزتنا هذا نسامحه على عداوته وجهالته بما ندين به للرب من فروض الطاعة والمسامحة. وليعلم الناس أن ما أخرجنا من مُلكنا إلا حب الرب ورجاء رضاه. ولو صدقّنا البابا لما نازعنا ولا حرّض علينا. لكن شهودنا الغداة من خيار المؤمنين وأصدقهم،

وشهادتهم نقيمها في وجهه ومن والاه. ولا نذّل نفسنا إلا لله ولا يتوقف جهادنا ما دام في قلبنا خافق.

دوّت صيحة الجند المنتصرة مبعثرة ما تبقى من هيبة كنيسة القيامة، معززة سلطان ملك أورشليم الأوحد.

مدّ فريدريك عنقه موازناً تاج مملكته المستردة على هامته. توّج نفسه بيديه آنفاً. لا أحد يستحق هذا الشرف سواه في يومه هذا، وقد نال غرضه بنفسه وانخذل كل من ناوأه. محياه هادئ وشفتاه مزمومتان، لكن أسنانه تصطك تحتهما بمزيج مرَض وزهو وتشفّ.

أرضية كنيسة القيامة كساها البياض بأردية التيوتونيين الذي جثوا تحية لمليكهم المظفر. أما بطريرك القدس الذي أراد غمره بالصلوات والأدعية فلم يجد من يكترث له.

عبرَ طرفي الكنيسة، تقاسم ليوناردو وثيودور طلّات الحبور والانعتاق. ما تحقق ليس بأقل من معجزة. رضخ الكامل أخيراً بعد أشهر من المفاوضات المذلّة المضنية. كاد فريدريك يزهق روحه حسرة وهانت عليه الدنيا، لكن الكامل رضي بالحلّ الوسط. ستكون القدس لفريدريك لعشر سنين. تبقى المساجد تحت تصرف المسلمين ويحجّ النصارى إلى مقدساتهم ثم يغادرون من فورهم ولا تقيم فيها حامية ولا يرمم لها سور ولا يُرد مسلم عن الحرم.

تسلل هواء الربيع عبر البوابات المشرّعة محمولاً على خيوط شمس دافئة. استشعر ليوناردو نعيمها في قلبه وهو يقلب وجهه في البناء العتيق والخشوع يستبد به، فيما الترانيم تصدح مباركة الملك

المتوّج. انحدر ببصره فجاءت عيناه في عيني سبط ابن الجوزي. سحنة الشيخ أشد قتامة من أردية الحداد التي يرتديها. لم يجبره على شهود هذه الباقعة إلا أمر الكامل بأن يرافق فريدريك في جولته على المزارات المقدسة. تبسم له ليوناردو مُواداً فلم يلق منه إلا نظرة زائغة تفيض بالكره الصافي.

نزل فريدريك عن منصة تتويجه آخذاً طريقه خارج الكنيسة، مجيلاً النظر في المعمار وزخرفه. من حوله البطريرك وأساقفة أوروبا، ومقدمو عسكره وخاصته. بينهم فخر الدين ابن شيخ الشيوخ الذي سحب سبط ابن الجوزي من ذراعه وألصقه بالملك النصراني.

وقف الإمبراطور في منتصف الكنيسة ورفع رأسه. تطلع، بفضول السائح لا إقبال المتعبد، إلى الزجاج المعشّق والأيقونات التي سودتها السنون. تساءل:

- من هنا صعد المسيح إلى السماوات؟

أشار إلى النوافذ الشاهقة:

- لم جعلتم عليها شَبكاً؟

يفتح البطريرك فمه بمحاولة إجابة فيعرض عنه فريدريك ملتفتاً إلى مرافقيه المسلمين. يقرص الأمير كف سبط ابن الجوزي فيتجرع غصته ويتغصّب النطق:

- لألا تدخل منها العصافير.

يهزّ فريدريك رأسه ويتمتم:

- خشيتم من العصافير فأدخلنا عليكم الخنازير.

الموكب الملكي يأخذ طريقه راجلاً بين دروب المدينة. فرسان الهيكل تكوّموا على الجنبات مخزيين كالمطاريد ووجوههم تنطق بالشرّ. منعهم فريدريك من الالتحاق به ومشاركته مجده. حشود نصارى من كل ملّة ولون تدفقت على البقعة من أيام لتحظى برؤية الفاتح المحروم. لا يعرفون ما يصنعون؛ أيهللون للفتح الذي تحصّل بلا قطرة دم، أم يندبون كرامة البابا التي مرّغها الملك الطريد في وحل انتصاره الصريح؟

يجاهد ليوناردو ليسيطر على حواسه في خضم المحسوسات الجديدة الباهرة. بيگولّو الرحّال حط رحاله في القدس أخيراً وقد ظن أنه استنفد نصيبه من الترحال. كل ما جرى عليه في حياته في كفة، وما هو فيه الساعة في كفة أرجح. تسلط خيال اليهودي ابن بركات على ذاكرته حتى حسب أنه سيبرز له من بين الجموع. خط الحياة ليس مستقيماً ببداية ونهاية، بل طرفاه متصلان كأنه دائرة يأخذ مبتداها إلى منتهاها، أو دوائر لا تفتأ تتكرر كحلقات الإعصار إما تعلوا بالمرء أو تحطّه، دوائر كرسم الصفر مردّها إلى العدم. وكأن كل ما مر به أعده وحضّره لهذا اليوم.

تبسم معتذراً وهو يسترجع حاله يوم نزل بعكّا قبل أشهر معدودة. لا ساحل لبحر اللطف الإلهي. ها هو يمشي بنعليه على الأرض التي مشى المسيح عليها وحواريوه. وقبل أربعين عاماً كان صلاح الدين يقف موقفه طارداً فلول الجيوش التي أنفق علها أبوه

وجماعته. أيكون گويلمو بوناتشي راضياً عنه في مرقده الآن؟ أيعلم في أي صحب يمضي ابنه وأي ملأ يجالس؟

عاود الحملقة في معالم البلدة الحجرية المنهكة بتوالي الخصوم والأعداء. فكر أن العداوات هي محرّك حياة هذه المدينة وسر عزّها. بدت لهم من البعيد قبة الصخرة مهيبة بمبناها وما تحته. بقدر شموخ أنف فريدريك المزهو بنصره، ينحني ظهر سبط ابن الجوزي مع كل خطوة يخطونها باتجاه الحرم المقدس. الجند تأخذهم الحمية وهم يصعدون تبّة الصخرة خلف إمبراطورهم فتنطلق من حناجرهم أناشيد الحماسة. يثبت فريدريك رجليه بالأرض موقفاً الموكب بأكمله ويلتفت بجسده إلى أتباعه ليقمعهم. يسكتون حائرين ويواصل الإمبراطور خطوه الهادئ عبر الساحة الشاسعة للحرم.

يدخل فريدريك مسجد الصخرة ويتأخر عنه سبط ابن الجوزي المتعثر في مشيته كمن يعاني فالجاً. يتفقدّه الإمبراطور فيجده منشغلاً بخلع نعليه عند الباب. يرجع وينزع حذائه. يأمر جنده ليلزموا مواضعهم. يتبعه ثيودور غير مستأذن وليوناردو في عقبه. لن تفلت منه هذه اللحظة.

المسجد رحب مبخّر منار بالفوانيس على ضوء الشمس الصريح. خلو من كل أحد إلا قارئ قرآن تشاغل بتقليب مصحفه. حتى إذا دنا منه فريدريك وكزه سبط ابن الجوزي بقدمه فرفع صوته بالقراءة:

- مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ.

لا يعيره فريدريك التفاتة ويواصل التأمل في جنبات الحرم. مال على الحفرة التي فيها الصخرة وسأل:

- هذه التي أُسري بمحمد من عندها؟

فيما كان فريدريك ينظر أسفل رجليه، كانت رقبة ليوناردو مثنية للأعلى مأخوذاً بأجمل بناء وقعت عليه عيناه منذ ولدته أمه. كلامه نصفه لثيودور ونصفه لنفسه:

- متن البناء مضلع مثمن الوجوه. لم أبصر شيئاً مثله قطّ! فوقه حلقة دائرية تحمل القبة كأنها العنق للرأس. انظر يا ثيودور إلى روعة التناغم بين الأساطين والعقد، والأقواس وأعمدتها بالرؤوس المورقة. المداخل موزعة لا رئيسي بينها، كأن المبنى كله يدعوك إلى الصخرة في وسطه لا إلى محراب قبلته. وهذه القبة؛ هي ملتقى كل خطوط البناء، كأنها تحملك معها إلى عنان السماء.

- تراه أجمل من كنيسة القيامة؟

- وأجمل من جامع إشبيلية. انظر إلى بديع الزخرف المخطوط على الجدران، وكمال الأبعاد الهندسية. أليس ناطقاً بالبهاء؟

تتمدد ابتسامة على وجه ثيودور:

- مبنيّ وفق نسبة إلهية الجمال. أليس هذا مقصدك.

- الحق ما تبصر عيناك. ولا أبالغ لو قلت أن من بناه ملائكة لا بشر.

- تأمل جيداً واحفظ التفاصيل، فمولانا يروم تشييد قصر جديد في باليرمو على الأنماط الشرقية. وقد تشيد قبة صخرتك هناك في صقلية.

اكتفى فريدريك من الفرجة وخرج مواصلاً جولته فإذا في الساحة كاهن يصيح بتراتيل من الإنجيل. قصده فريدريك فرفع صوته قاصداً الاحتفاء بسيده الجديد. لكن فريدريك حطّ على صدغه بلطمة ألقته أرضاً وهدر فيه:

- ما أتى بك إلى هاهنا؟ وربي لئن عاد أحد منكم إلى هذه البقعة بغير إذني لأقلعن عينيه. نحن مماليك السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدّق عليّ وعليكم بهذه الكنائس، ولا يتعدى أحدكم طوره.

فرّ الرجل مرتجفاً. ربتّ فخر الدين على كتف فريدريك مهدئاً:

- الآن تأوي إلى الدار التي أعددناها لك فترتاح. ومن الغد يفد عليك المشايخ والخاصة فيسلمون عليك.

يقدم فخر الدين حصانه الأرقش فيمتطيه فريدريك ويمضي به مخفوراً بحرسه الصقليين محيطين به كالسوار، ساحباً خلفه كل أتباعه وأعدائه، داويةً وتيوتونيين وحُجاجاً. شيعه نوّاب الملك الكامل حتى إذا غيّبه الأفق مع جيشه الصغير صاح سبط

ابن الجوزي صيحة فزعت منها حمائم الحرم، وقذف بعمامته على الأرض.

تضاعف ذُعر الأمير فخر الدين منه وهو يرعد:

- هذا الأمعط الأشقر يملك الحرم وقد هلك دونه الصالحون والنجباء؟ والله لو كان عبداً ما ساوى عشرين درهماً!

يحذره فخر الدين:

- ويحك فضحتنا! لم يكن ذلك إلا حقناً للدم وبترتيب السلطان. وكانت تقر عينك لو تكالب علينا النصارى وأخذوها بالسيف وفوقها دمشق وما وراءها؟

يكاد سبط ابن الجوزي يأخذ بتلابيبه. وجهه أشد احمراراً من رايات الداوية:

- يكريها للعلج كأنها ورث أبيه؟ والله ليبوءَن بها سلطانك. وما يردّني إلا منبر جامع دمشق.

أما فريدريك فتبختر على جواده الجديد محدثاً نفسه:

- أهذه التي أودعها الربّ سرّه؟ لو أنه رأى صقلية لما فضّل عليها أورشليم.

يسمعه ليوناردو فتذهله الكلمات. يميل به حصانه فيرتطم بجواد أحد حرس لوتشيرا. يكاد ليوناردو يعتذر منه لكن لسانه ينعقد لمرأى الفارس المتجهم. لا تكاد الكلمة تغادر شفتيه المنفرجتين بالمفاجأة:

- محمود!

***

حلّ الغد بوفد من الوجهاء على رأسهم الأمير فخر الدين واقفين بباب الإمبراطور. الأمير الأيوبي لا يفوته الاضطراب في عسكر فريدريك وشدة الحماية عليه. عيون البصّاصين التي بثها أنبأته بترصد فرسان الهيكل له ومحاولتهم المستمرة الانتقام لكرامة سيدهم في روما. لكن فريدريك يستقبل ضيوفه بوجه صبوح ووجنتين عاودهما التورد بعد طول شحوب، ملقياً جزافاً بسؤال لا يُعرف جده من هزله:

- أفتقد أبا المظفر. لو صدق حدسي فلعله يشكو حرارة القولنج منذ الأمس.

لكن قسمات فخر الدين الصارمة تسترجعه إلى سمت الجد.

- جئناك بمن هو خير منه أعزك الله. هذا الشيخ شمس الدين قاضي نابلس.

يتقدم رجل طاعن في السن ترتعد فرائصه شيخوخة وقهراً. بين يديه صندوق خشب مفاصله من فضة مشغولة، والخشب ما فيه موضع إصبع إلا حفرت عليه توريقات وتصحيفات من أجلّ ما يكون. يتناوله فريدريك من يديّ القاضي المرتعشتين ويتطلع حائراً إلى فخر الدين الذي يومئ له مشجعاً. يفتح الإمبراطور الصندوق ويستخرج بيمينه مفتاح باب العامود؛ أعظم أبواب القدس وأقدمها.

إلى فخر الدين الذي يومئ له مشجعاً. يفتح الإمبراطور الصندوق ويستخرج بيمينه مفتاح باب العامود؛ أعظم أبواب القدس وأقدمها.

يلين وجه فريدريك وتأخذه الجلالة. يقلّب في كفه المفتاح الحديدي الذي تناقلته أيادي الفاتحين عبر القرون إلى أن آل إليه. يلف أصابعه عليه ويضمه إلى صدره رافعاً عينيه إلى قاضي نابلس الذي يقاسمه بصوت متهدج:

- بعهد الله وميثاقه؟

يكرر فريدريك مؤكداً:

- بعهد الله وميثاقه.

مكتبة
t.me/t_pdf

يرحب بهم الإمبراطور ويدعوهم إلى ما بسطه لهم من سماط. يلتئم القوم على خيرات أرضهم التي يكرمهم بها مضيفهم ويسمون بالله جهاراً فلا يمد فريدريك يده قبلهم. حتى إذا طعموا واستأنسوا بادر الإمبراطور الشيخ شمس الدين بالسؤال:

- قل لي يا قاضي، بأي ناموس تقضون بين المتخاصمين؟ وأي شرعة تجري عليهم في ملتكم، وتحتكم العرب والعجم، والمسلمون وغيرهم؟

يستوي القاضي في جلسته ويفحص الإمبراطور من تحت حاجبيه الأبيضين قبل أن يجاوبه:

- شرعتنا هي ما أنزل الله على نبيه ﷺ من قرآن، وما أوحى إليه وأثبتته السنّة الصحيحة. ما ينطق عن الهوى.

يؤرجح فريدريك رأسه:

- والقرآن الذي عندكم، فيه حكم بكل حادثة وتفصيل بكل نازلة؟

- فيه الأساس. رسم لنا السبيل لنتبعه. ومنه يستنبط الفقهاء الحكم فيما يستجد، وتتولد الأحكام وفق ذلك.

- وما الأساس الذي ذكرت؟

- أن الناس كلهم سواسية. وألا تزر وازرة وزر أخرى.

- ما أحسن هذا. ويتساوى في شرعكم الملوك والعوام؟

يدير القاضي عينه إلى فخر الدين للحظة. لا يخفى ذلك على فريدريك. لكن الشيخ شمس الدين يرد:

- قال نبينا محمد ﷺ: لو إن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

يواصل فريدريك هز رأسه:

- مليح ما تقول. والقرآن العربي المبين، أما نقله ناقل إلى لسان آخر فيعيه غيركم.

يطير الحاجبان الأبيضان عالياً. يهتف الشيخ:

- معاذ الله! أنّا يكون ذلك؟ لا نفتري على الله تعالى بغير ما قال.

يطرق فريدريك هنيهة:

ونحلهم، تكون ردئاً لهم من تسلط الرهبان وظلم القساوسة التي تفرق بينهم فلا تعدل. لكني لا أرى أن يخضع الملوك لذلك. فإنما نحن مختارون بيد الله معينون بمشيئته لا نستوي مع سوانا. وحتى قرآنكم يقول أن الله فضّل بعض الرسل على بعض.

لا يعرف القاضي شمس الدين ما يقول. يكتفي بالالتفات إلى الأمير فخر الدين مرتبكاً. لكن الإمبراطور لا يكتفي:

- يا قاضي. عند شبّاك مرقدي منارة مسجد. وما سمعت البارحة مؤذناً يؤذن منها ولا قارئاً يقرأ بقرآن فكيف ذاك؟

يقلب الشيخ عينيه في الوجوه ويتمتم محرجاً:

- أنا منعتهم من ذلك، إعظاماً للملك واحتراماً له.

ينقبض جبين فريدريك بالاستنكار. ترتخي كتفاه ويجيل نظرات أسفه فيهم:

- والله إن أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم في الليل.

ثم يمطر عتبه على الأمير فخر الدين:

- تغيرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي! فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا. هذا أول ما تنقصون من عندنا. لا أقبل ذلك.

يلتفت إلى ثيودور:

- فرّقوا على كل مؤذن في أورشليم عشرة دنانير عوضاً عمّا كان.

يحني القوم رؤوسهم ويتمتمون له بالمديح. يسأله فخر الدين:

- هل نقص على الإنبرور شيء فنتمه له؟ أو بقيت له شهوة فنقضيها؟

يجاوب فريدريك بامتنان خالص:

- ليس منكم إلا التمام يا إخوتي. وقد عاينت القدس وحققت مرادي بإنعام سيدي السلطان فلا ألبث فيها ساعة زيادة. بل أمضي إلى يافا فأصلح شأن ولاتي ونوّابي، ثم أركب البحر من عكّا فأرجع إلى بلادي، فإن الأشقياء عاثوا فيها ونازعوني ملكي بإملاء من الخبيث گريگوري.

يتنهد القاضي النابلسي مرتاحاً ويداري زلّته بسعال مفتعل. يومئ فخر الدين برأسه موافقاً:

- كما يشاء الإنبرور. وتعلم أن الدار دارك والمقام مقامك فتنزل بيننا وقتما أحببت.

يرفع فريدريك إصبعه مستدركاً عليه:

- لعشر سنين إن حيينا. ثم يخلق ما لا تعلمون.

يتضاحك القوم. يضيف فريدريك:

- لي حاجة أخيرة.

- تأمرُ فتطاع.

شمخ سليل هوهنشتاوفن برأسه منادياً:

- يا بيزاوي.

يهب ليوناردو بأسرع ما تسمح به مفاصله. يأمره فريدريك:

- اكتب لي على صفحة ما ينقشه النقاشون على بعض مداخل القدس.

- كما تأمرون جلالتكم. فما أكتب؟

يتفكّر الملقب بأعجوبة الدنيا برهة ثم يأمر:

- اكتب: دخلها الفقير فريدريك بن هنري. في عام الرب تسع وعشرين ومئتين وألف. خُطّ الأرقام برموزك العربية. وليتنا كنّا في العام القابل، لوضعتَ فيها صفرك.

*

مكتبة
t.me/t_pdf

(١٥)

بيزا، توسكانيا. ٦٤٨هـ، ١٢٥٠م

يسلم الجندي ذراعه ليتكئ عليها الشيخ المنهك وهما يعبران بوابة الكاتدرائية. مرّت ساعات من الاستجواب المضني ولم يدع الكاردينال دي مورّا وقضاته تفصيلة من حياته إلا ناقشوه فيها حتى لم تعد به طاقة ليزيد بكلمة. ارتعاشته تضاعفت مع تضاعف وهنه واشتداد البرد بأفول شمس اليوم.

خشي الجندي أن يلفظ الرجل أنفاسه بين يديه. لكن حصاناً صهل فنبهه إلى العربة القابعة على قارعة الطريق. هرع منها شاب طوى الأرض ركضاً نحوهما حتى إذا بلغهما كاد أن يدفعه دفعاً عن الشيخ. احتضنه وأوشك أن يحتمله.

رفع ليوناردو إليه عينين خائرتين وهمس بابتسامة متهالكة:

- جئت يا ريكاردو؟

يسنده الشاب وهو يعاينه بلهفة:

- أتعبوك يا سيدي؟ ساعة ونكون في الدار.

تنطلق العربة بهما إلى أملاك آل بوناتشي. يلتف ليوناردو بمعطفه في ركنها ملصقاً جبهته بزجاج شبّاكها البارد، متطلعاً إلى السقالات والروافع وجلاميد الرخام المحيطة ببرج الجرس الذي ما يزال ينمو مرتفعاً ببطء على توالي الأجيال، معانياً لعنته الأزلية. همهم لنفسه:

- مائل. وسيظل مائلاً.

تشرع السماء في الإمطار ولا يمنع ذلك امرأة وخط الشيب رأسها من أن تستقبل القادمين عند مدخل الدار. وجهها بسمرة الحنطة ناطق بالغضب والجزع. حتى إذا ما نزل ليوناردو من عربته مترنحاً استولى عليها الجزع المحض. خاضت في الوحل لتعين الشاب ليدخلاه. أجلساه على أريكة قرب المدفأة وتناولت خرقة مسحت بها وجهه المبلل. انحنت على رجليه لتخلع حذائيه وهتفت بالشاب:

- زد الحطب. مُر الخدم ليسخنوا له حساءً ويجهزوا له فراشه.

هبّ الفتى سابقاً صوته:

- أمرك يا أماه.

رمقها الشيخ بعينين نصف مفتوحتين. عاود تغصّب الابتسام:

- أنا بخير يا زينب. إن هي إلا غفوة وأرتاح.

مررت أصابعها على وجهه مواسية مطمئنة:

- ماذا أرادوا بك؟

يهتز كتفا ليوناردو بضحكة مكتومة:

- كلام. ليس عندهم إلا الكلام. تسامرنا سويعات في شأن ما كان وما جرى. ذكّروني بالحلاوات والمرارات.

- وقاكَ الله المرارات يا نور عيني.

ربت الشيخ على كفها ممتناً. ابتسامته تتقلص وهو يتأمل في نقش المفارش الفارسية على الأرض:

- قالوا إن فريدريك مات.

تهز زينب رأسها بغير معنى. يتهادى الشيخ في التحديق الفارغ قبل أن يشرع في النهوض.

- ألا ترتاح؟

- أرتاح في فراشي.

- أجلب لك ما يقيم أودك هناك.

تسنده في خطوه الثقيل إلى حجرته. تلف اللحاف الوثير حول جسده وتشعل فتيل شمعة، لكنه يرفع كفاً بقعتها السنون:

- أطفئيها. الظلمة أهدأ وأسكن.

تومئ مستجيبة. تنحني لتتحسس صلعته الرخوة. تطبع على جبينه قبلة وتهمس في أذنه:

- آتيك بطعامك الآن. ومشروباً ساخناً. النارنج بالنعناع كما تحبه.

يردد ليوناردو:

- إن هي إلا غفوة وأرتاح.

تمضي زينب مستعجلة. أما ليوناردو بوناتشي فيسترخي في رقدته ويزداد تنفسه عمقاً. مفاصله تستكين وأطرافه تذعن للخدر اللذيذ.

توشك أن تأخذه سِنة النوم رغم المطر الذي يضرب زجاج نافذته والبرق الذي يومض خارجها.

متهادياً بين النوم واليقظة، يشم رائحة بحر بجاية، يحس طعم عسلها في حلقه. يغمر أنفه أريج صابون نابلس وبرتقال إشبيلية ويسمع أذان جند لوتشيرا وقرع أجراس كنيسة القيامة.

بغتة يفتح عينيه على اتساعهما، وينتصب قاعداً كأن ظهره استرد عافية شبابه. يجلس في فراشه محملقاً في الظلمة إلى الوجوه التي يهيأ إليه أنها تتهادى نحوه. الغشاوة تنسحب من أمام عينيه الكليلتين وتحل بهما قدرة إبصار ما عهدها.

يتأمل في الماثل قبالته. قلبه العليل تنشط، وعروقه تفتحت. يكاد يثب من فراشه واقفاً محيياً الكيان المتبدّي أمامه:

- مولاي!

يبادله فريدريك هوهنشتاوفن الترحاب. تتوافد معه هيئات شتى تملأ فضاء الحجرة المظلم. يطفو بصره الشاخص عليها، مبهوتاً مرتاعاً مأخوذاً بالفرحة. يردد أسماءها واحداً واحداً:

- الحصّار.. مايكل..

تخرج من صدره شهقة تؤلم أضلاعه. ما عاد يحس بساقيه. بردٌ قارس يلم به ولسانه يثقل. ترتخي ملامحه وتغرورق عيناه:

- عطاء!

يسمع صوت صاحبه يردد:

- ثلاثة، خمسة، ثمانية، ثلاثة عشر.

يُرجع رأسه إلى وسادته. يتواصل العدّ من حوله:

- 6 7 8 9 ...

يضحك بكامل وجوده. يسحب نفسه الأخير ويزفره في كلمة واحدة:

- زيفِر.

*

-تمت-

الدمام

في ٤ من ذي الحجة ١٤٤١هـ - ٢٥ يوليو ٢٠٢٠م.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

"رجلٌ لديه حقل مسوّرٌ جاء فيه بزوج أرانب ذكر وأنثى. والأرانب تتزاوج إذا بلغت شهراً ففي نهاية الشهر التالي تكون الأنثى قد وضعت زوجاً من الأرانب ذكر وأنثى. بافتراض أن كل زوج أرانب يلد زوجاً من ذكر وأنثى في كل شهر ما أن يبلغ فكم أرنباً يصير لدى الرجل في سنة واحدة؟".

كتاب الحساب - ١٢٢٨م

* * *

نشأ ليوناردو بن گويلمو بوناتشي في بجاية الجزائرية. ارتحل بين موانئ المتوسط قبل أن يعود إلى مسقط رأسه بيزا، ويحظى برعاية الإمبراطور فريدريك الثاني الذي عُرف بشغفه بالحضارة العربية.

نعرفه اليوم باسمه المحوّر؛ فيبوناتشي. ونعرف أنه الرجل المسؤول عن تقديم الأرقام العربية، بما فيها الصفر، إلى أوروبا.

كما نعرف المتوالية العددية المنسوبة إليه، وثيقة الصلة بالنسبة الذهبية التي اعتبرها الفلاسفة والرياضيون سرّ كمال العالم المنظور.

هذه الرواية، تحكي كل ما لا نعرفه عن ليوناردو فيبوناتشي.

أشرف فقيه

رسمُ العدَم

قصة ليوناردو فيبوناتشي مع الصفر والأرقام العربية

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
9 789921 723700
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com